أُفُقٌ وَمَعَارِج

ومضات من واقع الحياة



بقلم:

د. آلاء عادل العبيد

عضو هيئة تدريس - كلية الشريعة - جامعة الكويت

أفق ومعارج

ومضات من واقع الحياة

ISBN: 978-9921-9708-9-0

الطبعة الأولى

١٤٤٧هـ - ٢٠٢٥م

شركة دار لطائف للنشر والتوزيع

المرقاب - المنطقة التجارية التاسعة، مبنى رقم ١١، الدور الخامس،
مكتب٥٠٤، ص.ب: ٩٢٧ قرطبة، الرمز البريدي: ٧٣٧٦٠ الكويت
- تلفاكس: ٢٢٤٥٦٢٥٨ ، ٢٤٥٧٠٠٥٠

أفق ومعارج

ومضات من واقع الحياة

بقلم

د. آلاء عادل العبيد

عضو هيئة التدريس كلية الشريعة

جامعة الكويت

بسم الله الرحمن الرحيم

إهداء

إلى **والدي الحبيب**،

الذي غرس في قلبي حبّ الخير، وسقاني من معين الشرع ما يروي ظمأ العمر،

إلى **أبي** الذي ربّاني على إيثار الباقي على الفاني، وعلّمني أن لا عيش إلا عيش الآخرة،

وغرس في قلبي منذ نعومة أظفاري أن الفوز ليس بكثرة الحطام؛ بل بصفاء الإيمان وحسن الختام.

إليك يا من علّمتني أن زينة الدنيا ظلٌّ زائل، لا يفتن به من أيقن أن البقاء في دار القرار، وأن الرضا بقضاء الله أسمى مراتب السعادة، وأن الأفق الحقيقي لا يُرى بالعين، بل بالبصيرة،

وأن المعارج لا تُرتقى بخطى الأقدام، بل بصدق النية وسمو المقصد، وأن من جعل وجه الله غايته، لم تضرّه تقلّبات الحياة ولا زخارفها.

أبي الكريم، يا من كان حضورك أمانًا، ودعاؤك بركة، ونصحك سراجًا يهدي في عتمات الطريق.

أهدي إليك هذا الكتاب «**أفق ومعارج**»،

قبساً من أنوار وصاياك، ورحيقاً من غرسك الطيب، وعرفاناً لبذرك الذي أينع وأثمر.

أسأل الله أن يبارك في عمرك، ويجعل أيامك طيبةً عامرةً بذكره، ويزيدك من فضله نورًا وسكينةً وإيمانًا، وأن يجزيك عني خير الجزاء.

د. آلاء عادل جاسم العبيد



المُقَدِّمَة



الحمد لله الذي علَّم بالقلم، علَّم الإنسان ما لم يعلم، والصلاة والسلام على من أُوتي جوامع الكلم، وعلى آله وصحبه وسلّم تسليمًا كثيرًا.

في دروب الحياة ومسالكها، يبسط الله لعباده من الآيات ما يوقظ القلوب، ويجعل من الوقائع والأحداث مواعظ شاهدة، ﴿فَٱعۡتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾[1]، وما القصص إلا مرايا تنعكس عليها تجارب البشر، تهدي من شاء الله أن يهتدي، وتذكِّر من أراد أن يتذكَّر.

وإن هذه الصفحات التي بين يديك ليست محض حكايات ولا سردًا للتسلية، بل هي قصص واقعية عشتها، ونقلتها، تخلّلتها عبرٌ جليلة، ومواعظ بليغة، ومعانٍ شرعية وإيمانية، منها ما يفتح أفق الفكر للتأمل، ومنها ما يرفع معارج الروح إلى مراتب الرضا واليقين.

---

(١) سورة الحشر: ٢

أقدّمها للقارئ الكريم رجاء أن يجد فيها ما يحرّك قلبه إلى الخير، ويزيد بصيرته في التفكّر، ويؤنسه بأن في كل موقف من مواقف العمر رسالة، وفي كل مشهد من مشاهد الناس عبرة، فكم من دمعة أيقظت معنى، وابتسامة أنارت طريقًا، وكلمة عابرة حملت حكمة العمر!

إنها أفق ومعارج، رحلة تمتد بين النظر في وقائع الناس وما تحمل من إشارات، والصعود في مدارج العظة إلى مقامات السكينة والإيمان، أهديها لكل باحث عن الحكمة، ولكل قلب يترقّب موعظة، سائلة الله أن يجعل فيها أثرًا يبقى، ونورًا يهدي، ورحمة تفيض.



ممر الحكايات



بعض الممرّات ليست من حجرٍ وإسمنت، بل من مشاعرٍ تمرّ بنا، تُنقش فينا أكثر مما نخطّ فيها، وتترك فينا من الدروس ما لا تتركه قاعات الدرس!

❐ بين الممرات اليومية

كان الممر الذي يفصل بين قاعات التدريس وبوابة الكلية أشبه بصفحة تُكتب كل يوم.

طالبة تأتي مبتسمة، وأخرى تسأل عن بحثها، وثالثة تهمس لي بسرٍّ تخبئه منذ زمن.

لم يكن هذا الممر مجرد جدارين يلتقيان؛ بل كان دفتراً ليومياتي مع طالباتي.

كان الممرّ مملوءًا برائحة الورق ووقع الأقدام، وصوت الطالبات يتردد فيه كأن المكان نفسه يصغي لما لا يُقال.

ذلك اليوم، انتهت المحاضرة.

أغلقتُ الحاسوب، رتبتُ أوراقي، وخرجت بخطواتي المعتادة، أحمل أوراقي وأفكاري

كان الجو مفعمًا بالحركة، لكن داخلي كان يبحث عن لحظة هدوء بعد الشرح الطويل.

لم أكن أعلم حينها أن الممر سيكتب لي هذا السطر المؤثر في كتاب التجارب!

❐ وجوه عابرة وأسرار خفية

وبين الوجوه الشابّة، برز وجه مختلف؛ طالبة كبيرة في العمر، امرأة وقورة تسعى للعلم رغم مشاغل الحياة وثقل العمر.

لها مكانة في نفسي منذ أن رأيتها أول مرة.

ملامحها كانت تحمل وقار السنين، وشيئًا من التعب الذي يختبئ خلف ابتسامة مجاملة.

لكن في ذلك اليوم، كانت عيناها مضطربتين على غير عادتهما!

اقترَبَت ببطء، حتى كادت أن تستند إلى الجدار، كأنها تخشى أن يسمعها أحد.

❐ الكلمة التي هزّت الممر

وقَفَت أمامي، جمَعَت شجاعتها، ثم قالت بصوت متهدج خافت:

ادعيلي بالثبات يا دكتورة غدا زواج زوجي من الثانية!

كانت كلماتها كالصاعقة! لحظة واحدة جمعت بين رجاءٍ وألمٍ ودهشةٍ وصمتٍ كثيف.

شعرتُ أن الممرّ سكت رغم ازدحامه، وأن كل الأصوات حولي اختفت.

لم أعد أرى شيئًا سوى عينيها المليئتين بالخوف والخذلان والغيرة الطبيعية والانكسار.

كانت يدها تشد على طرف عباءتها بقوة، ثم تتركه، لتعود فتقبض عليه ثانية.

كان جسدها ثابتًا لكن قلبها مضطربًا، وكأنها تقف على أرض تهتز تحت قدميها.

❐ جرح لا يراه الناس

وقفتُ مشدوهة، لم أجد أول الأمر ما أقوله، سكتُّ لبرهة، وكأن الكلمات جميعها تبعثرت من قاموسي.

كانت عيناها معلقتين بي، تنتظران كلمة تلتقط بها أنفاسها.

كل ما خطر ببالي حينها أنني أمام جرحٍ لا يراه الناس، لكنه ينزف في قلبها بلا توقف.

داخلي امتلأ بأسئلة كثيرة:

ماذا يمكن أن يُقال في مثل هذا الموقف؟ كيف أُسند قلبًا جريحًا؟

كنت أبحث عن الكلمات.

شعرتُ أن الدعاء الذي طلَبَته لم يكن مجرد دعاء،

بل كان استغاثة: «امسكي بيدي قبل أن أغرق».

وضعتُ يدي على يدها، لا أدري لماذا ارتجفت يدي أكثر من يدها.

ربما لأنني شعرت أنني أنا المحتاجة لأن أتعلم منها معنى الثبات.

❐ حين يسند القلب الدعاء

تنفستُ بعمق وقلت لها:

الزواج الثاني قسمة وقدر، لكنه لا ينقص من قيمتك ولا يمحو مكانتك.

أنتِ شريكة عمر، وأجر صبرك عند الله أعظم مما تظنين.

لا تنظري إليه على أنه خسارة، بل على أنه ابتلاء سيُرفع به قدرك عند الله.

أطرقت رأسها، ثم قالت بصوت مبحوح:

«لكنني أشعر أن قلبي لا يحتمل».

قلت لها:

«ومن قال إننا نحتمل بمفردنا؟ نحن نحتمل بالله.

ثم أضفت:

قولي: اللهم إني أسألك باسمك القوي أن تقويني،

استعيني بالصلاة والدعاء، ستجدين قلبك أقوى مما تظنين».

سكَتَت فترة.

نظَرت إلى الأرض كأنها تبحث بين البلاط عن قوةٍ ضاعت منها.

مرّت ثوانٍ طويلة بدت كأنها دقائق.

لم أقطع صمتها.

تركتُ لها المجال لتغوص في أعماقها.

رفعت عينيها ببطء، ثم أعادتهما إلى الأرض.

ارتجف جفنها الأعلى، وشفتها السفلى انكمشت.

كانت تحاول أن تُمسك دمعةً تتأهب.

وضعت يدي على كتفها، ضغطت بخفة لأقول دون كلام: أنا معك.

❐ يا مقلب القلوب

ظلّت واقفة، لا صوت لها سوى أنفاس متقطعة.

أصوات الطالبات تمرّ من بعيد، لكننا كنا في عالمٍ آخر.

قالت بصوت مبحوح:

دكتورة أخاف أن يزيغ قلبي أخاف أن يغلبني الغضب فأزلّ بقولٍ لا يرضي الله.

مددت يدي برفق إلى كتفها، وقلت:

﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ (١)، من قال إننا نقوى وحدنا؟ نحن نضعف، لكن الله يقوينا.

نحن نتزلزل، لكن الله يثبّت قلوبنا.

قولي: «يا مقلب القلوب، ثبّت قلبي على دينك».

تنهدت وقالت:

أخاف على أولادي

كيف سيستوعبون الأمر؟

---

(١) سورة النساء: ٢٨

كيف أواجه أسئلتهم؟

وأخاف من كلام الناس

أخشى نظرات القريبات والصديقات.

الكل كان يقول إن بيتي مستقر.

قلت:

الناس يتكلمون ثم ينسون، أما الله فلا ينسى.

المهم أن تكوني أنت ثابتة عند الله.

وأولادك سينفعهم أن يروا أمًا صابرة راضية، لا أمًا مكسورة.

ثم أضفت:

اشرحي لهم أن هذا قدر الله، وأن بيتكم لا يقوم إلا برضا الله.

❐ دمعة ويقين

«قالت غداً عرسه، أخاف من لحظة سكون البيت حين أنام وحدي.

أخاف أن يتحوّل الدعاء إلى سخط، وأن يغلبني الهمّ»

قلت بلطف:

لهذا علّمنا النبي ﷺ الدعاء عند المصائب: «**اللهم أجرني في مصيبتي وأخلف لي خيرًا منها**»[1]. ردديه كلما ضاق صدرك، فليس هذا الدعاء كلماتٍ فحسب، بل وعدٌ بالخلف والرضا».

ثم، أخيرًا، سالت دمعة واحدة على خدها، لم تتبعها أخرى.

مسَحَت دمعتها سريعًا بيدها، ثم أغمضت عينيها.

عندها فقط نطقت، بصوت متهدج لكنه ممتلئ يقينًا:

اللهم أجرني في مصيبتي، وأخلف لي خيرًا منها.

كررتها مرة أخرى، بصوت أهدأ، كأن قلبها وجد منفذًا يتنفس منه.

قلتُ من قلبي:

«أسأل الله أن يرضى عنك ويرضيك، حبيبتي الرضا ليس أن يزول الألم، ولا أن تُمحى الذكرى، بل أن تسلّمي الأمر لله وتثقي أن اختياره خير من اختياراتنا، ومن رضي فله

(١) صحيح مسلم (٩١٨).

الرضا، ومن سخط فله السخط، والرضا هبة يضعها الله في قلبك حين ترفعين إليه كل همّك».

نظرت إليّ بعينين يختلط فيهما الدمع مع شيءٍ من الطمأنينة،

وقالت: دعواتك يا دكتورة

قلت: أثق أن ربي الرحمن أرحم بك مني، وسأدعو لكِ من قلبي: أن يبدل الله حزنك طمأنينة، وأن يجعل لك في كل خطوة سكينة، وأن يكتب لك الرضا عنده قبل كل شيء.

❐ تدبير الرحمن

مضت بخطوات بطيئة، لكن أكثر ثباتًا من ذي قبل.

أما أنا، فوقفت مكاني طويلًا، أنظر إلى أثرها، أستعيد كلماتها ودمعتها،

شعرت أنني أنا التلميذة وهي المعلمة، علّمتني أن في قلب كل امرأة ساحة معركة،

وأن في أقسى اللحظات قد تخرج من أعماقنا أجمل الدعوات.

بعدها بيوم كان قلبي مشغولا بها؛ إنه يوم اختبارها.

قلت في سري: اللهم ثبتها، اللهم اجبرها، وامسح على قلبها

لم يأتني اتصالٌ منها ولا أجرؤ على مهاتفتها؛ ففي قلبها من الحزن ما الله به عليم، بعد أسبوع لمحتها في المحاضرة، نعم هي، لمحتها تشارك وتبتسم، اللهم لك الحمد.

كنت متشوقة للحديث معها وقبل أن أقترب، سبقتني وقالت وهي تشرق وجهًا:

«دكتورتي أبشرك دبرني ربي الرحمن بتدبيره!»

قالتها والابتسامة تُشرق على وجهها:

«رُزق ابني أحمد بطفل في يوم زواج زوجي فانشغلت به ونسيت هم زواج زوجي؛ أمسكت حفيدي بين يدي، ضممته إلى صدري، وشعرت أنني أضم العالم كله، كل همومي ذابت حين سمعت صوته يبكي، وحين فُتِحت عيناه كأنه يبتسم لي، كان ميلاده في تلك الليلة عزاءً ورحمة، أرسلها الله لي في اللحظة التي ظننت أني لن أحتمل!».

❐ **سبحان الله اللطيف!**

قالتها بثقة أشعر أني فهمت الحياة يا دكتورتي، زوجي جزء من حياتي؛ لكنه ليس حياتي كلها، قلبي متعلق بالله،

وجدت الله فأمّن قلبي!

● **ومضة:**

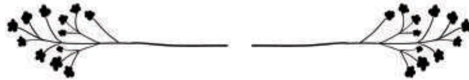
تعلّمت أن لحظات الانكسار تكشف هشاشة قلوبنا مهما بدونا متماسكين.

تعلّمت أن لحظات الألم ليس نهاية الطريق، بل بدايةُ رحلةٍ نحو الله.

وأن القوة الحقيقية لا يمنحها الناس، بل يفيض بها الله على من التجأ إليه.

وأن الإنسان مهما اشتدّ تماسكه يبقى محتاجًا إلى نفحة عونٍ من مولاه،

فإذا صدق العبد في افتقاره، تولّاه الله بعونه، فاستحال ضعفه ثباتًا، واضطرابه طمأنينة، وخوفه سكينة، وحينها يتحول الوجع من جرحٍ ينزف إلى بابٍ يفتح على السكينة والرضا.





مرض الجسد وسمو الروح



كنتُ دائمًا أرى أن في صحبة طالباتي خارج جدران القاعة منافع لا تُحصى؛ فرحلاتنا لم تكن ترفيهًا بقدر ما كانت مدرسةً للتربية، ومنبرًا للدعوة، وميدانًا لتزكية النفوس، كنا نزور دار المسنين، فنرى هناك كيف يُصبح الكبر امتحانًا للإيمان.

وندخل المدارس لنُعدّ درسًا قصيرًا في الدعوة، فنكتشف أن الكلمة الصادقة قد تُثمر في قلب ناشئ ما لا تُثمره الخُطب الطوال.

ونقف في ممرات المستشفيات، نُمسك أيادي المرضى، ونقرأ في وجوههم معنى الصبر والرضا.

وفي تلك المرة، كانت وجهتنا إلى مركز علاج السرطان.

❑ القلوب تسبق الأقدام

دخلتُ مع طالباتي بخطى مترددة، فالمكان يفرض على القلوب سكينة وهيبة لا توصف.

الوجوه الشاحبة، الأجهزة المعلقة، رائحة الأدوية كلها

رسائل صامتة تُذكرك بحقيقة الإنسان: ﴿وَخُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾[1]، والضعف ليس عيبًا في الخِلقة، بل هو سرّها، ليبقى العبد عبدًا، مفتقرًا إلى مولاه، محتاجًا إلى رحمته.

دخلنا إلى مركز علاج السرطان والقلوب تسبق الأقدام، نحمل بين أيدينا ورودًا، وبضع كتيبات صغيرة، وحلوى نُهديها للأطفال في الممرات.

كانت الطالبات حولي متحمسات، يتسابقن في ترتيب الكلمات التي سيقلنها للمريضات، كأن كل واحدة منهن تريد أن تُدخل البهجة قبل الأخرى.

❐ غرفة صغيرة وقلب كبير

حين وصلنا إلى غرفتها، طرقنا الباب بخفة، فسمعنا صوتًا ضعيفًا لكنه مطمئن: تفضلوا.

دخلنا فإذا بها امرأة تجاوزت منتصف العمر، وجهها شاحب لكن يضيئه نورُ الرضا والإيمان.

ابتسامة رقيقة سبقت كلماتها، كأنها تريد أن تقول لنا: لا تجزعوا لرؤيتي هكذا.

اقتربتُ منها، سلمتُ عليها، وقدمتُ لها هدية صغيرة.

---

(١) سورة النساء: ٢٨

قلنا لها: جئنا نزورك، ونرجو أن تكون هذه اللحظات ترويحًا عنكِ.

ابتسَمَت، وقالت: بل أسعدتن قلبي قبل أن تجلسن.

جلست الطالبات حول السرير، كل واحدة تُظهر اهتمامها بكلمة أو سؤال، وأجواء الغرفة امتلأت بلطفٍ مؤثر.

لكن ما هي إلا دقائق، حتى شعرنا جميعًا أننا نحن الزائرات ولسنا المزورات.

قالت وهي تتحدث بصوتٍ متهدّج ولكنه مطمئن:

«يا بناتي، لا تظنن أن المرض نقمة، والله إنه باب فتحه الله لي لأعرفه أكثر.

كل ليلة أضع رأسي على الوسادة، وأقول: الحمد لله الذي لم يجعل بلائي في ديني.

السرطان يأكل جسدي لكنه ترك لي إيماني، يتركني أذكر الله، وأتذوق لذّة المناجاة.

نظرتُ إلى الطالبات، وجدت الدموع في عيون بعضهن، وأخرى تُمسك يد زميلتها بقوة.

لم يتوقعن أن يسمعن هذا الإيمان في مكان يظن الناس أنه موضع اليأس».

❑ هي المعلمة ونحن الطالبات

كان ذلك اليوم مختلفًا عن كل زياراتنا السابقة.

جلسنا حولها، نتأملها في صمت.

كنتُ أظن أن دورنا أن نواسيها ونقوّي قلبها، لكني فوجئت أن الكلمات انقلبت، وصارت هي من تواسينا!

دخلنا نحمل ورودًا ووجوهًا باسمة وهمسات دعاء، نريد أن نخفف عن المريضات ونزرع الأمل في القلوب، لكننا خرجنا نحمل من الدروس أكثر مما أعطينا.

قالت وهي تبتسم:

«يا بنات الحمد لله، أنا أحسن من غيري، والله هناك من هو أشد بلاءً مني.

أنا عندي علاج، وغيري لا يجد الدواء، أنا أذكر الله وأصلي، وغيري غارق في غفلته.

أنا أعيش بين أهلي، وغيري وحيد لا يجد من يواسيه.

سكتت قليلًا، ثم تلت بصوتٍ خافتٍ: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ (١).

---

(١) سورة الملك: ٢

فالابتلاء سنة ماضية على الخلق، يرفع الله به أقوامًا، ويُكفّر به الخطايا، ويُمحّص به القلوب.

كانت كلماتها تسقط في قلوبنا كالمطر، تهزّ أرواح الطالبات هزًّا.»

أضافت بصوتٍ خافت لكنه ثابت: المريض حقًّا هو من لا يعرف ربه.

أنا على سريري، لكني أرجو رحمة الله،

وأعيش معنى قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾[١].

بعض الطالبات لم يستطعن حبس دموعهن.

كانت كلماتها تسقط في قلوبنا كالمطر، تهزّ الأرواح هزًّا.

فهمنا أن ما كنا نظنه بلاءً، قد يكون أعظم منحةٍ من الله.

واحدة منهن همست:

كنا نظن أننا جئنا نعلمها الصبر، فإذا بها هي مدرسة في الرضا.

---

(١) سورة البقرة ١٥٥-١٥٧

ابتسمت في وجهها إحدى الطالبات قائلة: «**يُبتلى الرجل على حسب دينه، فإن كان في دينه صلابة اشتد بلاؤه، وإن كان في دينه رقة ابتلي على قدر دينه، فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشي على الأرض وما عليه خطيئة**»[(١)]

قاطعتها الأخرى بقول النبي ﷺ: «**إن عظم الجزاء مع عظم البلاء، وإن الله إذا أحب قومًا ابتلاهم، فمن رضي فله الرضا، ومن سخط فله السخط**».[(٢)]

قالت بصوتٍ ثابت: «الحمد لله على كل حال وأرجو أن يكون هذا البلاء تطهيرًا».

كان حديثها بليغًا في بساطته، قويًا في أثره.

شعرتُ أنني أمام امرأة ليست مجرد مريضة، بل واعظة صابرة تعلّمنا الصبر بأصدق الأفعال لا بمجرد الأقوال.

تردد في ذهني قوله ﷺ: «**عجبًا لأمر المؤمن! إن أمره كله خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن؛ إن أصابته سراء شكر، فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراء صبر، فكان خيرًا له**».[(٣)]

---

(١) أخرجه أحمد (١٤٩٤)، والترمذي (٢٣٨٩)، وصححه الألباني في الصحيحة (١/ ١٤٢).

(٢) أخرجه الترمذي بعد حديث (٢٣٩٦)، وابن ماجه (٤٠٣١).

(٣) أخرجه أحمد (٢٣٩٣٠)، وأخرجه مسلم (٢٩٩٩) بنحوه.

خرجنا من غرفتها وقد سُكتت الألسن.

❐ **كان المشهد أكبر من قلوبنا.**

لم نجد في قلوبنا قدرة على الكلام، كأن الكلمات أُخذت منّا قسرًا.

كانت الدموع تتحدث بدل الكلمات.

خرجنا بقلب يختلف عن القلب الذي دخلنا به.

مشينا بخطوات بطيئة نحو المخرج، وفي كل خطوة كانت صورتها تزداد وضوحًا: جسدٌ منهك، رأس بلا شعر، وجهٌ ناحل، لكن قلب عامر بالإيمان، ولسان لا يفتأ يلهج بـ «الحمد لله أنا أحسن من غيري».

لم نكن نستوعب بعد ما رأيناه: إيمان يعلو فوق الألم،

رضا يكسو الوجع، وبصيرة تبصر ما وراء البلاء.

لم نكن نتخيل أن سرير مرض قد يتحول إلى منبر دعوي،

وأن جسدًا يذوب من الألم قد ينطق بكلمات تملأ قلوبًا شابة باليقين.

خرجت من غرفتها وأنا أحمل درسًا لا يُنسى: أن الابتلاء درجات، وأن رحمة الله أوسع من آلامنا، وأن الصبر لا

يكون إلا بعون الله، وأن المؤمن الحق يُحوّل محنته إلى منحة، وبلاءه إلى باب من أبواب الجنة.

❑ على طريق العودة

ركبنا السيارة، وما إن أُغلقت الأبواب حتى انطلقت العبرات، كأنها كانت حبيسة تنتظر لحظة الخروج.

الطالبات يتبادلن النظرات، يحاولن مسح الدموع خفية؛ لكن العيون الفاضحة لم تستطع أن تخفي دموعها.

قالت إحداهن متعجبة: «جئنا نواسيها، فإذا بها تواسينا.

جئنا نخفف عنها، فإذا بها تخفف عنا ثِقل الدنيا».

قالت أخرى: «دكتورة لم أكن أظن أن في هذا العالم إنسانًا بهذا الصبر، نحن نجزع من أتفه الأمور، وهي بين وجع وسرطان وعلاج مرّ تقول: أحمد الله أنا بخير!»

ساد الصمت مرة أخرى، لكنّه لم يكن صمتًا فارغًا، بل صمتًا مثقلًا بالمعاني.

كل طالبة تغوص في نفسها، تقارن بين همومها الصغيرة وبين عظمة ما رأت، بين شكواها اليومية وبين رضا تلك المرأة.

قالت طالبة ثالثة: «كنت أتذمر من ضغط الدراسة والامتحانات، لكن بعد أن رأيتها، خجلت من نفسي، سأحمد الله على عافيتي، وسأتعلم كيف أستقبل البلاء بالصبر، إن نزل بي يومًا».

❐ نقطة تحوّل

تلك اللحظة لم تكن مجرد رحلة، بل كانت نقطة تحوّل، لم نخرج من المركز كما دخلناه؛ خرجنا ونحن نحمل درسًا خالدًا: أن الرضا عبادة، وأن الصبر جنة، وأن الله إذا أحب عبدًا ابتلاه ليُقربه لا ليُبعده.

وأنا أقود السيارة، شعرت بأننا لم نكن وحدنا؛ كانت كلماتها ترافقنا، كانت صورتها بيننا، وكأنها تجلس معنا في المقعد الخلفي، تردد علينا وصيتها: «الحمد لله أنا أحسن من غيري أحمد الله وأشكره».

كانت دموعنا هذه المرة دموع حياة، دموع يقين بأن الإيمان أقوى من السرطان، وأن الروح المؤمنة أبقى من الجسد الواهن.

حين وصلنا إلى أبواب الكلية، كانت القلوب لا تزال مشدودة إلى تلك الغرفة الصغيرة في المستشفى، حيث تعلمنا معنى الصبر من امرأة ضعيفة الجسد قوية الروح.

قبل أن ننزل من السيارة، التفتُّ إلى طالباتي وقلت لهن: يا بناتي ما سمعناه ورأيناه اليوم ليس مجرد موقف عابر، إنها آية من آيات الله، ورسالة لنا جميعًا. فاجعلن من هذه الزيارة وصايا تحفظنها ما حييتُن:

«احمدن الله على العافية، تعلمن الصبر والرضا، فبهما يحيا القلب وتعلو الروح.

لا تنكسروا بالابتلاءات، فإنها علامات محبة من الله، ورفعة في الدرجات.

اجعلن حياتكن لله، فما الدنيا إلا دار ابتلاء، والآخرة هي دار الجزاء».

كانت الدموع لا تزال حاضرة في العيون، لكن هذه المرة امتزجت باليقين.

نزلت الطالبات وكل واحدة منهن تردد في سرّها: «الحمد لله على ما نحن فيه الحمد لله على العافية».

وغادرنا المكان، لكن أثر ذلك اللقاء الأول لم يغادرنا قط، بل بقي حيًا يتردد في القلوب،

ليصنع بداية فصل جديد من القصة!

❑ حين عدتُ إليها وحدي

ما إن هدأت حرارة الموقف الأول، وعادت الطالبات إلى بيوتهن وبدأت الحياة اليومية تسير في مسارها المعتاد، حتى وجدت قلبي مشدودًا إليها.

كانت صورتها وهي تبتسم برضا وصبر، على الرغم من شدة البلاء، لا تفارق خاطري.

شعرت أنني بحاجة إلى أن أعود إليها، لا كجزء من برنامج جماعي هذه المرة، بل لأني أنا شخصيًا كنت أفتقر أن أتعلم منها، أن أستزيد من إيمانها وصبرها.

وفي صباح يوم من الأيام، توجهت مبكرًا إلى الكلية؛ لكن قلبي قادني قبل محاضرتي إلى المستشفى. دخلت أروقة المكان بخطوات يملؤها الترقب، ولسان لا يفتر عن الدعاء.

❑ تبدل الأحوال

طرقتُ الباب الطرقَ الخفيف الذي يليق بمريضٍ قد يكون غارقًا بين وَعْيٍ وإغفاء.

لم يُجِب أحد.

دفعتُ البابَ قليلًا، فإذا بابنتها جالسة على كرسي بلا صرير، وعيناها تمتدان إلى أمّها بنظرةٍ تجمع الحراسة بالدعاء.

كانت المريضة على السرير ذاته؛ لكن شيئًا في المشهد تبدّل؛ الحزن مستقرّ على خطوط الوجه، والقلق يسكنُ حركة الغطاء.

همستُ: السلام عليكم ورحمة الله

التفتت البنت، قامت مرحّبة بأدبٍ وقالت: وعليكم السلام تفضّلي

اقتربتُ، حيّيتُ المريضةَ بابتسامةٍ تُخفي ما رأيت، أمسكتُ بكفّها فأحسستُ بملمس العظم من تحت الجلد، وبرودةٍ خفيفة تشبه برودة الشتاء.

رأيتها، فإذا هي على غير الحال التي عهدتها.

تلك الابتسامة الوادعة خبت قليلًا، وارتسمت على وجهها ملامح حزن وقلق، بل وشيء من الضيق الذي لم أعهده منها.

جلست إلى جوارها، وبدأت أواسيها، لكن بدا أن هناك همًا أكبر مما يراه الناظر لأول وهلة.

التفتُّ إلى ابنتها التي كانت تجلس إلى جوارها، وقلت لها بصوت خافت:

«ماذا دهاها؟ هل اشتد عليها المرض؟»

فقالت وهي تكاد تبكي:

«أمي يا دكتورة تخشى أن تتكشف وهي على السرير، الستائر تتحرك أحيانًا عند دخول الممرضات، وهي في غيبوبة العلاج أو التعب، فتشعر بالانكسار وتخاف أن تنكشف عورتها».

تلك الكلمات وقعت على قلبي كَسَهمٍ من نور، اخترق حجاب الغفلة، وأيقظ في داخلي رهبةً ودهشة، أيُّ إيمانٍ هذا؟! وأيُّ مراقبةٍ لله تسكن هذا القلب الضعيف؟!

امرأةٌ أنهكها المرض حتى ذاب جسدها، وغاب منها رونق الجمال،

وقفتُ للحظةٍ على قلبي، لا على قدميّ!

تتكشّف؟ أيُّ تكشّفٍ بقي لامرأةٍ قد نحلَ جسدُها، وغاب شعرُها، وتكسّرت مظاهر الدنيا حولها شيئًا فشيئًا؟!

هنا فهِمتُ: هذا ليس خوفَ جسد، بل صيانةُ قلب،

إنّ الحياء إذا استقرّ في الروح، صار حارسًا لا ينام.

تذكّرتُ قول النبي ﷺ: «**الحياءُ لا يأتي إلا بخير**»[(١)]

---

(١) أخرجه البخاري (٦١١٧)، ومسلم (٣٧).

نحل جسدها حتى لم يبقَ منه إلا العظم والجلد!

أكلها المرض وأضعفها التعب وتبدلت الملامح،

كل مظاهر الفتنة قد ذهبت، ومع ذلك لا تزال تخاف من التكشف!

كل همها أن تبقى مستورة بين يدي ربها!

يا الله كم في هذا المشهد من دروسٍ لا تُنسى!

إنها التقوى حين تستقر في القلب، تُثمر حياءً حتى في الغيبوبة، وخشيةً حتى عند الوهن.

وقفت مذهولة أقول: سبحان الله!

إن كان هذا همّها وهي في قمة ضعفها، فكيف بحالنا نحن الأصحاء؟!

كم من نساءٍ غفلن عن ستر أنفسهن وهن في أوج الصحة والقوة والزينة، بينما هذه المريضة الواهنة التي غابت عنها مظاهر الدنيا لم تتنازل عن سترها لحظة.

ثم تمتم لساني بدعاءٍ من أعماق القلب:

اللهم اغفر لنا زللنا، واستر عوراتنا، وذكّرنا بفضلك في الرخاء كما نرجوك في البلاء.

❐ حين طرقت الأبواب

قمتُ من عندها وعيناي تفيضان بالدموع، وقلبي يغمره مزيج من الفخر والانكسار؛

فخرٌ بتلك المرأة التي جسّدت معنى العفة في أسمى صورها، وانكسارٌ أمام عظمة إيمانٍ يسكن جسدًا أنهكه الوجع، لكنه ما زال عامرًا بخشية الله.

خرجتُ مسرعةً من غرفتها، كأن نداءً خفيًا في داخلي يدفعني لأن أنصرها ولو بكلمة.

اتجهتُ إلى إدارة المستشفى، وطرقت الباب بلهفةٍ يملؤها الرجاء، ثم دخلت أشرح الموقف بصوتٍ تغلبه العاطفة:

«إن الكلمة الطيبة شفاء، وإن حفظ كرامة المريض سترٌ يحبه الله، هذه المريضة لا تسأل زيادةَ مُسَّكِّنٍ ولا ترفًا؛ إنما تسألُ سترًا: بابًا يُغلق، وغرفةً تُؤمِّن خصوصيتها إذا غاب وعيُها»

ثم ذكّرتهم بقول الحبيب ﷺ «**من فرّج عن مسلم كربة من كرب الدنيا فرّج الله عنه كربة من كرب يوم القيامة**».[1]

---

(١) أخرجه الترمذي (١٩٣٠) واللفظ له، وأخرجه مسلم (٢٦٩٩) مطولاً.

ساد الصمت لحظةً، وقد بان التأثر على الوجوه، ثم قالت الموظفة بصوتٍ متأثر:

«لدينا غرفةٌ خاصة، لكنّ الطلبات كثيرة».

قلتُ: «أعلم ضغطَ المرافق؛ لكن أضع بين يديكِ قيمةً إنسانية وشرعية، هذه مؤمنةٌ متعبّدة، وحياءُها جزءٌ من علاج روحها، السترُ ليس رفاهيةً لها، بل هو سكينةٌ تُعينها على الاحتمال، إن استطعتم تقديمها فذلكم بابُ أجرٍ لكم».

وماهي إلا دقائق وبشرتني الموظفة بخبر نقلها، قالت: «نرتّب مع الممرضات لنقلها خلال اليوم.»

شَكرتُها شكرًا يليقُ بجميلٍ خفيٍّ لا يراه إلا الله.

خرجتُ وقد تعلّمتُ مرّةً أخرى أن أدبَ السؤال لا ينافي قوةَ الحُجّة، وأن الرحمةَ في الناس لا تموت؛ فقط تحتاج إلى من يوقظها.

❑ وعلى لساني البِشر

دخلتُ وعلى لساني البِشر قلت: تَمَ بفضل الله نقلُكِ إلى غرفةٍ خاصة ببابٍ يُغلق!

ارتسمت على وجهها ابتسامةٌ صافية، نقيّة كنسمة الفجر بعد ليلٍ طويل،

ابتسامةٌ لا صخب فيها، لكنها تبلغ الأعماق.

ابتسامةُ مَن كان يحمِلُ همًّا دقيقًا لا يراه كثيرون، فأراحه الله.

ابتسامةٌ محَت من قلبي كل أثرٍ للتعب، وصنعت يومي، وفرّجت همي، وأيقظت في داخلي يقينًا بأن الرحمة عبادة، وأن الله لا يضيع أجر من أحسن عملًا.

كانت تُمسكُ بيد ابنتها وتقول: (الحمد لله، لحمد لله).

تلك اللحظةُ حفرتْ في قلبي أثرًا: أن الله يرى الخوف الصادق ولو كان من تفلّتِ ستارة، ويرى الحياء ولو كان في جسدٍ أنهكهُ المرض، وأنه سبحانه لا يضيعُ دعاءً ولا دمعًا ولا حياء.

❒ فرج بعد شدة

وما إن خرجت من المستشفى، حتى رنّ هاتفي.

كان اتصالًا طالماً انتظرته، يتعلق بمشكلة أقلقتني شهورًا.

أجبت، فإذا بالبشرى تحلّ بين يديّ، وإذا بالغُمّة التي خنقتني تنقشع بفضل الله.

وقفت مذهولة، والدموع تغمر وجهي، وأنا أردد:

«الحمد لله الذي استخدمني في خدمتها ففرج الله عني، والله إنها لرسالة بليغة،

علَق في قلبي الحديث الذي عشته واقعًا: «**والله في عونِ العبدِ ما كان العبدُ في عونِ أخيه**»[1]

رجعتُ إلى محاضرتي في الكلية، لكنّي لم أرجع كما خرجت.

قرأت الدنيا على حقيقتها:

نحن ضعفاء ولا عيب في ذلك؛ العيبُ أن نتكبر على حقيقة ضعفنا،

حينها أدركت من قلبي أن سعادة العطاء تفوق أضعاف أضعاف السعادة في الأخذ،

وأن السعادة كل السعادة في أن تُقيم سترًا، وتسوق سكينةً، وتخدم ضعيفاً.

❐ بقاء الأثر

ولم يكن لقائي الثاني بها هو الأخير، بل صار بيني وبينها موعدٌ متكرر، كأن الله أراد أن يجعلها لي مدرسة لا تُنسى، في كل زيارة كنتُ أرى فيها عجبًا؛ فالمرض يزداد وطأة، والسرير يضيق بها أكثر، والجسد يذوب شيئًا فشيئًا، لكن كلماتها كانت أوسع من الدنيا بما فيها.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦٩٩)

ولم تمضِ سوى أيّام حتى وصلني الخبر الذي هزّ القلب، وأعاد إلى ذاكرتي كل لحظة قضيتها معها.

لقد رحلت فلانة،

انتقلت روحها إلى رحمة الله.

وقفتُ للحظةٍ أستعيد ابتسامتها الأخيرة، وكلماتها التي ظلّت تتردّد في أذني: «الحمد لله أنا أحسن من غيري، أحمد الله وأشكره».

كم بدت في تلك اللحظة عظيمة رغم ضعف الجسد، قوية رغم هشاشة العظم، ثابتة رغم أن المرض قد أكل من جسدها ما أكل.

رحلت المرأة المؤمنة، لكنّ قصتها لم ترحل.

بقيت حيّةً في داخلي، حيّةً في وجدان طالباتي.

كنتُ كلما حدّثتهن عنها، غلبت الدموعُ عيونهن، وبقيت حكايتها مدرسة مفتوحة للصبر والرضا والحياء.

• ومضة:

هذه المرأة لم تترك وراءها مالاً ولا جاهاً ولا شهرةً، ولكنها تركت أثرًا لا يُمحى،

درسًا نُردّده ونحن في مواطن العلم ومجالس الذكر: أن الله يرفع عباده باليقين أكثر مما يرفعهم بالمناصب، وأن الضعف في الجسد لا يمنع من القوة في الروح.

لقد رحلت، لكنها علمتنا أن الدنيا ليست دار قرار، وأن العاقبة للمتقين.

علمتنا أن الابتلاء يمضي، لكن أجر الصابر لا يزول، وأن الإنسان وإن خُلق ضعيفًا، فإن الله إذا أمدّه بالصبر والرضا صار قويًا لا تُزلزله المحن.

وأقفلتُ هذا الفصل من حياتي بدمعة حارة وهمسة صادقة من قلبي:

«اللهم ارحمها رحمةً واسعة، واجعلنا ممن إذا ابتُلي صبر، وإذا أُعطي شكر، وإذا أذنب استغفر، اللهم اجعل أثرها في قلوبنا باقيًا ما بقينا».



ثم بكت بين يدي!



في بعض اللحظات يتكلّم الصمت، وتُترجم الدموع ما عجزت عنه الكلمات، فيملأ الله القلب يقينًا بدل الأنين

❒ بين القاعة والممر الطويل

خرجت من قاعة المحاضرات مثقلة بالشرح، تلاحقني بقايا أسئلة لم تكتمل أجوبتها، ووجوه طالبات تتزاحم في ذاكرتي.

كنتُ أسير في الممر الطويل المؤدي إلى مكتبي حينها لفتني وجه مألوف بين الزحام، توقفت لحظة،

تأملت... نعم، أعرفها!

❒ وجه مألوف وسط الزحام

تلك الطالبة الهادئة التي درست عندي قبل سنوات، كانت تجلس دومًا في الصف الثاني من جهة اليمين، تحفظ الدرس بعينيها أكثر مما تحفظه بقلمها.

ابتسمتُ وأنا أتجه نحوها:

أهلاً بك، ما أجمل أن أراكِ بعد هذه السنوات!

بادلتني ابتسامة باهتة، شاحبة الملامح، كأنها ابتسامة مُعلَّقة بين الرغبة والخذلان.

لم أنخدع بهذه الابتسامة، فقد كانت العيون أصدق من الشفاه، وعيناها كانتا تصرخان بألمٍ لا يخفى.

❐ حين انكسر السدّ

فتحتُ باب مكتبي ودعوتها للدخول.

كانت خطواتها مترددة، كأنها تُجرّ قدميها جرًا.

جلَست أمامي بصمتٍ ثقيل.

أغلقتُ الباب، وما إن فعلتُ حتى انكسرت السدود.

انفجرت بالبكاء كما ينفجر النهر بعد طول احتباس.

كان بكاؤها حادًا، عميقًا، يخرج من صدر مثقوب لا يجد سبيلاً للالتئام.

اقتربت منها، وضعت يدي على كتفها أواسيها.

حاولت أن أترك لها مساحة، أن تفرغ ما بداخلها بلا مقاطعة.

دقائق مرّت، والدموع تسيل بلا توقف.

❑ جرحٌ لا يُوصف

أخيرًا، رفَعَت رأسها بصوت مبحوح، تتكسر حروفها كما تتكسر الأمواج على صخور البحر:

(مات أبي)؛ تلك الكلمة القصيرة أطلقت في الغرفة صدى عميقًا، حتى خُيّل إلي أن الجدران ضاقت علينا.

لم تكن مجرد عبارة إخبارية، بل كانت جرحًا مفتوحًا.

«**مات أبي**» تعني أن السند قد انكسر، وأن الأمان قد ارتحل، وأن الحنان الذي كان يُلقى بلا سؤال قد أصبح ذكرى.

نظرتُ إليها برفق، ومسحت دموعها بمنديل ناولتها إياه.

قلت بصوت هادئ: رحمه الله رحمة واسعة، هذا قضاء الله وقدره.

أطرقت برأسها، ثم رفعت عينيها وقالت بانكسار:

لكنني لم أودّعه، لم أقل له: سامحني، لم أقل له كم أحبك.

أحسست بسهم يخترق قلبي.

كم من فقدٍ يوجعنا ليس لأنه موت فحسب، بل لأنه انقطاع مفاجئ لم يُمهلنا لإكمال الكلام.

قلت لها:

يا ابنتي، هذه الدنيا لا تمنحنا تمام اللقاء، بل تقتطع من قلوبنا من نحبّ على غفلة، غير أنّ عزاءنا أنهم انتقلوا من رحمتنا القاصرة إلى رحمة أرحم الراحمين.

❑ البحث عن يقين

سكتَت لحظة، ثم سألتني بصوتٍ مختنق:

لا أظن أني قادرة على العيش من دونه!

قلت لها: أتظنين أنه مات قبل وقته؟ أم أن هذا مقدر مكتوب؟

قالت: بل مات في يومه؛ لكني لا أستطيع استيعاب ذلك.

طبطبت عليها برفق، وقلت: يا ابنتي، ليعلم المكروب علم اليقين أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه.

لا أحد يموت قبل وقته، ولا بعد وقته، قال تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾[1]

حدّقت بي بعينين دامعتين، كأنها تبحث عن يقين لم يتزعزع؛

---

(١) سورة الأعراف: ٣٤.

فقلت: أتظنين أنكِ أرحم به من الله؟ لقد ذهب إلى أرحم الراحمين، الله أرحم به منك؛

بل هو أرحم به من نفسه التي بين جنبيه.

أطرَقَت، وبدأت الدموع تتساقط من جديد.

قلت وأنا أتابع:

الحزن طبيعي، والشوق لا يُلام عليه، لكن المؤمن يحوّل حزنه إلى عمل، أنتِ تشتاقين إليه نعم؛ لكن اجعلي شوقكِ دافعًا للعمل حتى يجمعكِ الله به في جنات النعيم حيث لا فراق ولا وداع.

رفعت رأسها وقالت:

لكنني لا أحتمل فكرة الفقد؛ بل ولا أتخيل ذلك، كيف سأعيش من دونه؟

أخذت نفسًا عميقًا وأجبتها:

بالصبر يا ابنتي.

❐ جزاء الصابرين

هل تعلمين أن الله ذكر الصبر في القرآن أكثر من تسعين مرة؟ وأنه جعل جزاء الصابرين بغير حساب؟

نظَرت إليّ بدهشة ومن بين دموعها قالت: بغير حساب!؟

ابتسمتُ وقلتُ:

نعم. يُروى عن أنس بن مالك ﵁ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**تُنصب الموازين يوم القيامة، فيؤتى بأهل الصلاة والصيام والزكاة والحج، فيوفَّون أجورهم بالموازين، ثم يؤتى بأهل البلاء، فلا يُنصب لهم ميزان، ولا يُنشر لهم ديوان، ويُصب عليهم الأجر صبًا بغير حساب، ثم تلا:** ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[1] »

كانت تستمع وقد تضاءلت شهقاتها شيئًا فشيئًا.

بدا لي أنها للمرة الأولى منذ وفاته تسمع ما يجعل دموعها تحمل معنى، لا مجرد وجع.

قالت: «أين هو الآن هل فعلا ذهب إلى مثواه الأخير؟ أريد أن أعرف كل ما يحصل له الآن»

أجبتها:

«أعوذ بالله من هذه المقالة، التي تتضمن إنكار البعث، بل من المعلوم عندنا نحن المسلمين أن القبر ليس المثوى الأخير؛ فالمثوى الأخير إنما هو عند الذين لا يؤمنون باليوم

---

(١) سورة الزمر: ١٠

الآخر. أما عندنا؛ فالمثوى الأخير إمّا الجنة، وإما النار يوم القيامة.

وفي قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ۝٢﴾[1]، بشارة لكل من فقد عزيزاً أن هناك اجتماع ولقاء آخر؛ لأن الزائر لا يقيم وإنما المقابر مرحلة من مراحل الآخرة».

❐ دموعٌ تحمل معنى

أخذتها معي إلى قاعة الدرس

دخلتُ القاعة ومعي الطالبة التي أثقلها فقد والدها.

جلَسَت بجانب الطالبات مترددة،

وجهها ما زال يحمل أثر الدموع،

وعيناها شاردتان كأنهما تبحثان عن شيء بعيد.

ساد صمت قصير، ثم التفتُّ نحو الطالبات وقلت:

يا بناتي، هذه أختكن بيننا اليوم، فقدت والدها منذ أيام قليلة، وهي تحتاج منكن الكلمة الصادقة والدعاء المخلص، فلتكن قلوبكن لها عزاء.

ارتبَكت الأعين أول الأمر، ثم تقدمت طالبة هادئة

---

(١) سورة التكاثر: ٣

الصوت، وقالت:

دكتورة أنا فقدتُ أمي منذ عام، كنتُ أشعر أني لن أستطيع أن أتنفس بعدها، كنت أستيقظ وأبحث عنها في البيت، فلا أسمع سوى الصمت؛ لكن مع الأيام تعلمت أن الدعاء لها يخفف عني وعنها، وكأن بيني وبينها خيطًا يمتد إلى السماء.

❐ فجأة الرحيل

هنا تمايلت الطالبة الضيفة، كأن الكلمة اخترقت قلبها، فاغرورقت عيناها من جديد.

تقدمت أخرى، شابة مفعمة بالحيوية لكن صوتها كان يتهدج:

وأنا أخي الصغير رحل فجأة؛ في الصباح كان يلعب، وفي المساء كان تحت التراب!

بكيت حتى جفّت دموعي، ثم فهمت أن الدنيا لا تسير بإرادتنا، وأن الأقدار لا تستأذن أحدًا.

لم يثبتني إلا قول الله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ﴾ (١)، فعرفت أن الطريق واحد، وأن موعد اللقاء في الجنة.

اشتدت شهقات الطالبة الضيفة، ووضعت يديها على

(١) سورة آل عمران، ١٨٥

وجهها، ثم رفعت بصرها نحوي كأنها تسأل: وهل هناك بعد هذا الوجع عزاء؟

❑ بوح من نوع آخر

لكن فجأة ارتفع صوت ثالث من زاوية القاعة.

كانت طالبة مرّت بتجربة أخرى مختلفة، قالت بصوت ثابت يخالطه حزن:

لم أفقد قريبًا بالموت، لكنني فقدت نفسي!

نعم فقدت نفسي حين تطلقت صغيرة، وتشتتت أحلامي، يومها أحسست أن الحياة أظلَمَت كلها؛ تعلمت أن في كل كسر يُختبر إيماننا، كان كل جرح يترك أثرًا يقودني إلى الله.

ساد الصمت، وبدت القاعة كلها كأنها قلب واحد ينبض بالحزن.

كانت كل طالبة تستدعي في داخلها ذكرى فقد أو ألم.

❑ بوحٌ وتسكين

أشرتُ بيدي بهدوء، ثم قلت بصوتٍ بليغ يخالطه التطمين:

البلاء سنة ماضية، والموت حق لا مفر منه، والأقدار لا تُدفع.

لكن خلف هذه الدموع دار لا حزن فيها ولا وجع

تسمرت العيون عليّ، فتابعت:

ورد في الحديث[١] أن الموت يُجسّد يوم القيامة في صورة كبش، فيُذبح بين الجنة والنار، ثم يُقال: يا أهل الجنة خلودٌ فلا موت، ويا أهل النار خلودٌ فلا موت. هناك، في دار البقاء، يُنادى: يا أهل الجنة، إن لكم أن تصحّوا فلا تسقموا أبدًا، وأن تشبّوا فلا تهرموا أبدًا، وأن تنعموا فلا تبأسوا أبدًا!

ارتجف صوتي وأنا أقول:

بناتي شباب لا يزول، صحة لا تنقطع، نعيم لا يبهت! لا فراق، لا دموع!

❐ الجنة ليست مجرد مكان

إنها دار اللقاء، دار النعيم الذي لا ينقطع

ولو أن في الجنة موتًا، لمات أهلها يوم دخلوها من شدة فرحهم يوم أن ينادى: لا موت!

تناثرت الدموع من العيون، لكنها دموع مختلفة، دموع امتزجت بالرجاء، دموع تاقت إلى دارٍ لا ألم فيها.

---

(١) انظر: الحديث الذي أخرجه مسلم (٢٨٤٩).

التفتُ إلى الطالبة الضيفة وقلتُ:

حبيبتي أرجو أن يكون والدك سبقك إلى هناك، إلى دار السلام، فاعملي واصبري واحتسبي، حتى يكون لكما لقاء لا ينقطع أبدًا.

❑ حين يتحول الحزن إلى عمل

هزّت رأسها بصمت، ثم قالت بخفوت:

دكتورة أستأذن أن أخرج قليلًا.

ابتسمتُ وقلت: خذي وقتك، وموعدنا عصر اليوم في المسجد بإذن الله، حيث نكمل الرحلة معًا.

غادرت القاعة بخطوات بطيئة، وتركَت وراءها أثرًا في القلوب.

أما الطالبات، فقد ظللن واجمات،

أكملتُ المحاضرة وأنا أعلم أن هذا اليوم لم يكن درساً أكاديمياً؛ بل كان فصلًا من فصول الحياة.

وحين أذن العصر، سبق الهدوءُ الضجيج، يتخلله نور هادئ، ثم شيئًا فشيئًا علت أصوات الصغيرات تلاوة خافتة من مصحف طفلة في الزاوية، طالبات يركضن في الساحة الملحقة بالمسجد وهن يحملن دفاترهن الصغيرة.

دخلتُ القاعة الملحقة بالمسجد، حيث يجتمعن الصغيرات بخطواتي المعتادة؛ لكن قلبي كان مشغولًا بانتظار ضيفتي.

لم يطل الوقت حتى رأيتها عند الباب، وقَفَت مترددة، ما أجملها وهي ترتدي عباءة محتشمة ووجهها يشرق بابتسامة خجولة، كانت تحمل حقيبة أنيقة بدا ثقلها أكبر من حجمها.

ابتسمتُ مُرَحِّبة،

تقدمت نحوي، وجلست قليلًا بجانبي، ثم فتحت حقيبتها وأخرجت منها إهداءات صغيرة؛ دفاتر جميلة، أقلام ملوّنة، وشرائط زهرية لتزيين دفاتر الصغيرات.

تقدّمَت بخجل نحو إحداهن، وقدّمت لها الهدية.

ارتسمت ابتسامة كبيرة على وجه الطفلة، وقالت ببراءة: شكراً!

تتابعت الصغيرات حولها، كل واحدة تتلقى هديتها وترد عليها بالدعاء، وهي تمسح على رؤوسهن بحنان، كأنها وجدت فيهن عزاءً مفقودًا.

كنتُ أراقبها من بعيد، فإذا بي ألمح في عينيها تلك الطمأنينة التي غابت عنها يوم دخلت مكتبي.

نعم كانت مشغولة؛ لكن بما يعود عليها وعلى أبيها بالنفع.

اقتربت منها وقلت: هنيئاً لك! هكذا يُحتسب الأجر؛ في كل ضحكة طفلة، في كل دعاء بريء يتردد بين جدران المسجد.

❐ شمس الأمل التي لا تغيب

أطرقت برأسها وقالت بصوت متهدج:

دكتورة أشعر أنه يبتسم الآن، وكأن هذه الضحكات التي رسمتُها على وجوه الصغيرات وصَلَت إليه في قبره!

ابتسمتُ وأنا أربت على كتفها، هذه الهدايا، وهذه البسمات، هي الصدقة التي تصل إليه، ألم تسمعي قول النبي ﷺ: «**إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له**»[1]

أنتِ اليوم جمعت بين عمل نافع، ودعاء يتردد مع كل بسمة.

هكذا يكون الصبر الجميل؛ أن نحول المصيبة إلى طاعة، والحزن إلى عبادة.

إن أهل البلاء يوم القيامة لا يُنصب لهم ميزان ولا يُنشر

---

(١) صحيح مسلم، (١٦٣١).

لهم ديوان، بل يُصبّ عليهم الأجر صبًّا بغير حساب.

رأيت طالبتي المهمومة تمسح دموعها هذه المرة برجاء لا بأسى .

انتهى النشاط، جمَعَت حقيبتها، ثم التفَتَت إليّ وقالت بابتسامة مطمئنة:

اليوم أول مرة أشعر أن أبي لم يرحل ما دام أن لي عمل أقدمه له!

ابتسمتُ وأنا أودعها عند باب المسجد قلت لها:

هذا هو الوفاء؛ فاعملي له، واعملي لنفسك، حتى يجمعكما الله في دار الخلود.

بينت لها أن الجنة ليست فكرة بعيدة، بل وعدٌ صادق يخفف كل ألم، ولو أن في الجنة موتًا، لمات أهلها من شدة الفرح بدخولها، لكن الله كتب لهم الخلود.

ذكرتها بقول السلف: «الحمد لله، مصيبتي أعظم من أن أفسدها بالجزع»؛ فوجدت أن الصبر ليس خيارًا ثانويًا، بل هو تاج المؤمن، ومفتاح السكينة، ووسام يُعطى لمن أيقن أن البلاء جسر إلى الجنة.

خرجت من المسجد وقد أرخى المساء سدوله، لكن في ملامحها إشراقة لا تغيب: «إشراقة الأمل في لقاء الجنة».

- **ومضة:**

بالأمس رأيتُ قلبًا يذوب من الألم، واليوم رأيته ينهض من جديد حين تذكّر أن للجنة وعدًا، وأن العمل الصالح يصل إلى من رحل.

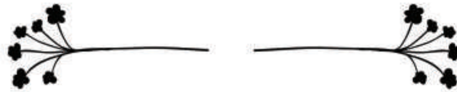
أدركت أن البلاء ليس شرًا محضًا، بل مدرسةٌ عميقة.

تعلمت من الفقد أن الدنيا قصيرة، فلا نتعلق إلا بما يبقى.

وأنَّ الحزن لا يجرُّ نفعًا، ولا يدفع ضرًّا، ولا يردُّ غائبًا.

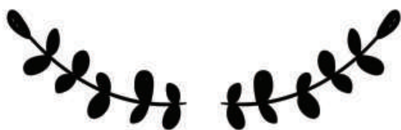
وأنَّ الصبرَ إذا اقترن بحسن الظن بالله كان زادًا يعبر بنا قسوة الابتلاء.

اللهم اجعلني وبناتي حبيباتي من الصابرين الذين بشرتهم برحمتك، واجمعنا بمن نحب في جنات النعيم حيث لا نصب ولا وصب ولا فراق.





دمعة أب ورحمة رب!



في بعض اللقاءات لا تبدأ الحكاية من الكلام، بل من نظرةٍ تحمل وجعًا أعمق من البوح.

وتأتيك المواقف التي تُعلّمك أن بين الطالبات مَن تحمل في قلبها فصلاً من البلاء، لو قُرئ لاهتزّت له القلوب.

❐ بحر من القلق

ما إن انتهت المحاضرة، وبدأت الطالبات يتوزعن خارج القاعة، حتى تقدمت نحوي طالبة كنت أعرفها بكثرة الغياب.

توقعت أن تهمس باعتذار عابر وتمضي، لكنها لم تفعل.

توقفت أمامي مترددة، وعيناها تسبحان في بحرٍ من القلق، ثم قالت بصوتٍ يختنق بالرجفة:

«دكتورة أعلم أنني كثيرة الغياب، لكن لم يعد الغياب يهمني!

لم يعد يفرق معي شيء، أريد فقط أن تستمعي لي».

كانت كلماتها أشبه بصرخة مكتومة، جعلتني أضع أوراقي

جانبًا وأشير لها بالجلوس،

وأصغي لها بكل قلبي.

جلَسَت على المقعد الأمامي، ويدها تعبث بطرف شيلتها.

❐ بيت الأوهام

ثم قالت: «تزوجتُ رجلًا حسبته الأمان، كان مظهره أنيقًا، كلماته عذبة، وعوده كثيرة، أقنعني أنه سيحملني إلى حياة مستقرة، فصدّقته، وصدّق أهلي؛ لكن ما إن أُغلق الباب حتى اكتشفت أنني أدخلت نفسي إلى بيتٍ مظلم، زوج مدمن، غائب عن الوعي، حاضر بجسدٍ بلا روح».

كانت كل كلمة تنزل ثقيلة، كأنها حجر يتدحرج من صدرها.

سردت مواقف متتابعة، وكأنها تفرغ ما علق بها خلال الأشهر الماضية:

«كان يغيب أيامًا كاملة، وكنت أعيش بين قلق وانتظار، لا أدري أحيّ هو أم ميت!

وإذا عاد، عاد بوجه غريب وصوتٍ متكسر.

كنت أسأله: أين كنت؟ فيثور ويقول: أنتِ السبب!

حتى تعلمت أن الصمت أهون من المواجهة».

❒ سُنة البلاء

قلت لها وأنا أتنفّس الأسى:

«يا حبيبتي كلامك يُدمى له القلب، وتأسف له النفس، ولكن لله في بلائه الحِكْمة البالغة؛ فهو أرحم وأحكم سبحانه، يبتلي عباده المؤمنين في الدنيا؛ ليمتحن صبرهم، ويختبر رضاهم، وجعل عِظَم الجزاء مع عِظَم البلاء، وفي الحديث: «**إذا أحبَّ قومًا ابتلاهم، فمَن رَضِي فله الرضا، ومن سخط فله السخط**»(١)؛ فاصبري واحتسبي، واعلمي أن مع كل بلاء رحمة خفية، ومع كل كسر جبراً من الله، ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾(٢)»

قالت:

«دكتورة فعلا بلاء مهما قلت لك لن تتصوري!»

أطرقتُ برأسي وقلت:

«أدرك يا غالية أنك في ابتلاءٍ عظيم؛ ما تمرين فيه هو بلاء -بكل المقاييس-؛ فإدمان الحشيش، وتعاطي المخدرات،

---

(١) أخرجه الترمذي بعد حديث (٢٣٩٦)، وابن ماجه (٤٠٣١)

(٢) سورة الزمر: ١٠.

من كبائر الذنوب التي جمعت كلَّ أبواب الشرِّ؛ فهي مفسدة للدِّين والدنيا، مفسدة للبدن، مُذهبة للعقل، مضيعة للمال، مضيعة للعِرض والشرف، وكم هدمت من بيت، وقتلت من أناس، وسلبت من نِعم، وجلبت من نِقَم، وقلَّ مَن وقع في حبائلها أن ينجوَ منها! إلا أن يشاء الله شيئًا، ويتداركه - سبحانه - برحمته.»

ثم تابعت: «لكن هذا البلاء يتطلب منك الاستعانة بالله، والحكمة والثبات والصبر قدر الاستطاعة؛ حتى تجدي الحل الأمثل للخروج مما أنتِ فيه، وأيقني بأن البلاء هو سنة الله في هذه الحياة الفانية الزائلة؛ فالدنيا دار اختبار، وليست دار قرار. قال تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًاۚ﴾ »[1].

ذكّرتها بالأنبياء وكيف كانوا أكثر الناس بلاء؛ هذا يوسف عليه السلام، أُلقي في الجب صغيرًا، ثم بيع عبدًا، ثم سُجن بغير ذنب، ومع ذلك قال في سجنه: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِۚ﴾[2]، فلم يفقد حسن ظنه بربه.

وهذا أيوب عليه السلام، ابتلاه الله في جسده وماله وأهله سنين

(١) سورة الملك: ٢

(٢) سورة يوسف: ٤٠

طويلة، فلم يزد إلا صبرًا وحسن ظن، حتى قال: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ (١).

وهذا نبينا ﷺ، لاقى من قومه أذى شديدًا، وضرب أروع الأمثلة في الصبر، كان غاية همهم رضا الله، مما أنساهم حتى ألم البلاء.

قلت لها: «لا تظني نفسك وحدك في درب الألم؛ بل هو طريق سلكه الصفوة من قبلك، وجعل الله في آخره رحمة واسعة.»

الله الله بالدعاء فالدعاء يصنع المعجزات على سبيل الحقيقة لا المجاز، أحسني الظن بربك ولا تملّي الدعاء خاصة في الأوقات الفاضلة -في الثلث الأخير من الليل وفي آخر ساعة في الجمعة وبين الأذان والإقامة وأثناء السجود-، ادعي لله دعاء الغريق في ظلمات البحر أن يشفي زوجك ويصلح حاله، وأن يحفظك ويرزقك القوة.

الصبر عبادة فكما أنك تركعين وتسجدين قربة لله، فكذلك صبرك على زوجك وأنت تخوفينه بالله وتذكرينه بالله في ميزان حسناتك.

---

(١) سورة الأنبياء: ٨٣

أوصيك بالصبر واحتساب الأجر، احتسبي أجر إنقاذ زوجك من النار، لا يخذلك الشيطان عن هذا الصبر، يكفيك أن الله عالم ومطّلع، لا يخفى عليه شيء من أمرك.

وليكن نصحك ودعوتك دافعه الإخلاص والاحتساب، لا من وازع الخوف من الناس والفضيحة، فإن الكلمة التي تخرج من القلب والجنان، تستقر في الآذان، وما خرج من القلب يقع في القلب إذا أذِن الله، فاصدقي الله يصدقك!

❏ السجن في بيت الزوجية!

أطرَقَت بكلامي ثم أردفت قائلة: «لا تنسيني من دعواتك دكتورة، أمر بضيق وبلاء عظيم، في يومٍ خرجت لزيارة أمي، جلستُ في سيارتي، فإذا بي أفاجأ به يقف بسيارته خلفي، ليغلق الطريق عليّ!

توسلتُ إليه، فابتسم بسخرية وقال: «ما في طلعة!» جلست أبكي ساعات، شعرت أنني سجينة في بيتي، انكمش المكان حولي، كانت يداي ترتجفان، لا من البرد، بل من شعورٍ بالحصار. لم يكن الطريق مسدودًا فحسب؛ كان صدري هو المسدود. يومها أدركت أن بعض الأقفال تُغلق من الخارج، وأقفالًا أقسى كثيرًا تُغلق في الداخل!

قلت لها:

أثق أن الله أرحم بك منا، ولن يضيعك الله، ولعل ما تظنينه قيدًا هو سبيل إلى بابٍ من الرحمة، وإذا أغلق البشر بابًا، فتح الله أبواب السماء. ثم ذكرتها بقوله ﷺ: «**واعلم أن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسرا**»[1].

❐ وعود في مهب الريح

قلت لها: هل جربتي أن تتحدثي معه بهدوء في وقت استقرار لحالته؟

لا تمارسي معه دور الواعظة والمذنب فيقاوم الاستجابة لك،

جربي أن تتحدثي معه حديثًا عاطفيًّا ناعمًا، فالإصلاحُ يحتاج قلبًا لينًا وصوتًا هادئًا؛

حدّثيه حين يفيقُ ويهدأ، بخوفكِ عليه لا بخوفكِ منه، وبأملكِ فيه لا بيأسكِ منه، فالكلمة إذا خرجت من القلب وقعت في القلب.

قالت:

«حاولت ووعدني مرات لا تُحصى أنه سيتوب،

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٥١٦)

دكتورة كنت أصدّق، وأبني على وعده بيوتًا من الأمل،

لكن سرعان ينهدم كل شيء بعد يوم، حين أجده في الغد غارقًا في غيبوبة.

وعوده ليست إلا أوراق في مهب الريح».

أجبتها قائلة: لا تعلقي قلبك بالوعود الكاذبة، بل علّقيه بالحي الذي لا يموت.

البشر يخلفون وعودهم، والله لا يُخلف وعده قال تعالى: ﴿وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ﴾(١)

فإن وعدك ربك بالفرج، فانتظري الفرج، وإن وعدك بالعون، فهو أصدق القائلين.

سألتها: ألم تحاولي الاحتماء بعد الله بالأهل أو تعطي فرصة لبعض الصالحين من أهلك وأهله، ليردوه عن الطريق المحرّم؟ انظري إلى أقرب الناس إلى زوجك، أو أقرب الناس إليك، إنساناً حليماً عاقلاً حكيماً، تعرضين عليهم مشكلته وتطلبين منه أن ينقذ هذا الحائر التائه من بلائه، تحاولين قدر استطاعتك أن تستحثي هممهم لانتشال ذلك الغريق من بلائه.

---

(١) سورة الروم: ٦

❐ دموع الليل

قالت وهي تغالب الدمع:

«دكتورة والله لم أقصر، دعوت الله له في صلاتي،

بكيت أمامه، أسمعته محاضرات دينية، لم أكن يوماً متفرجة؛ بل حاولت إصلاحه ما استطعت،

كنت أظن أن كلمة صادقة، أو دعوة في السحر قد تعيده، كنت كثيراً ما أكرر: اللهم اهده، اللهم اجعله قرة عيني؛ لكن كان يذبل قلبي مع كل خيبة»

قلت لها: ثقي أن الدعاء عبادة بحد ذاتها، تُرفع بها الدرجات وتُمحى بها السيئات، لا يضيع عند الله، ولو لم ترَي أثره الآن، ثقي بقوله تعالى: ﴿ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ﴾(١)، وأكثري من الدعاء في الأوقات الفاضلة، ادعي دعاء المضطر الذي قال الله فيه: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلۡمُضۡطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكۡشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾(٢).

ثم أكدت:

لا تستبطئي الإجابة؛ فالله يسمعكِ ويراكِ، ومن يتوكل

---

(١) سورة غافر: ٦٠

(٢) سورة النمل: ٦٢

على الله فهو حسبه، وفي حديث النبي ﷺ «**يستجاب لأحدكم ما لم يعجل، يقول: دعوت فلم يستجب لي**»[1]؟ لا تستبطئي الإجابة.

قلت لها:

الله معك يسمعك ويراك استعيني بالله تعالى، ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ﴾[2]

لم تجبني بإجابة؛ كانت دموعها تسبق حروفها، قلت لها مطَمئِنة:

أحسني ظنك بربك، فإنه عند ظن عبده به، كما قال جل جلاله في الحديث القدسي: «**أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني**»[3].

❑ سرقة العمر

قالت بحرقة: «حتى حياتي لم تسلَم، حاول خنقي مرات عدة! وأخذ مالي بحجة قضاء الديون، فرحتُ أني أسانده، ثم اكتشفت أنها ذهبت إلى ضياع آخر، كنت أشعر أنني أُسرق مرتين: مرة في عمري، ومرة في مالي».

---

(١) أخرجه البخاري (٦٣٤٠)، ومسلم (٢٧٣٥)

(٢) سورة الطلاق: ٢، ٣

(٣) أخرجه مسلم (٢٦٧٥)

وبشفقة قلت لها:

لا حول ولا قوة إلا بالله أعيذك بالله من الفتن، وأستودعك أرحم الراحمين سبحانه، اعلمي يا غالية أن الله إذا أخذ منك شيئًا، عوّضك خيرًا منه،

ذكّرتها بحديث النبي ﷺ «**ما من مسلم تصيبه مصيبة فيقول ما أمره الله: إنا لله وإنا إليه راجعون، اللهم أجرني في مصيبتي وأخلف لي خيرًا منها، إلا آجره الله في مصيبته وأخلف له خيرًا منها**».[1]

قلت في نفسي: سبحان الله! دنيا طُبِعت على كدر!

ما أصعب الدنيا على قلبها الضعيف، وما أعظم لطف الله حين يفتح في ظلام البلاء نافذة رجاء.

ونصحتها:

أنتِ ضعيفة بنفسك قوية بالله كوني امرأة قوية، صامدة، ومجتهدة، حاولي جاهدة السعي في تعليم نفسك، انشغلي بحفظ القرآن لتكوني قادرة على مواجهة المحن، اعتمدي على الله، وخذي بالأسباب العملية، وسيفتح الله لكِ أبواب الخير.

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٥١١)

كان صبرها أشبه بجدار يتهالك تحت المطر، لكنه رغم تشققه ظل قائمًا.

قلت لها:

كوني حذرة في التعامل مع زوجك؛ خصوصًا أنه في حالة إدمان، مما قد يجعله عنيفًا وتصرفاته غير متوقعة، فحفظ النفس واجب، بل من الضروريات المتفق عليها، فإذا كنت تشعرين بأن زوجك يشكل خطرًا جسديًّا أو أخلاقيًّا؛ فإنه يجب أن تكون الأولوية لحمايتك، مساعدته تكون بمحاولة بدفعه للتوجه إلى مراكز علاج الإدمان لا أن تجعلي ذلك على حساب سلامتك.

رددت عليها مراراً:

أنا على يقين أنك تستطيعين أن تجتازي هذه العقبة المؤلمة في حياتك الزوجية بمشيئة الرحمن.

❐ قبضة أب

ترَدَدَت قليلًا، ثم قالت بصوتٍ منخفض:

والدي لم يعد يحتمل.

جاءني يومًا، وقف أمام الباب وقال:

«يكفي! الطلاق أهون من الجنون، أفضّل أن أراكِ عندي

مطلقة على أن أراكِ أسيرة عنده، أخشى أن يذهب عقلك كما ذهب عقله».

قلت لها:

ما فعله أبوكِ رحمة ساقها الله إليكِ.

هنا لم تعد قادرة على تماسك دموعها، قالت:

«رأيت دمعة يخبئها أبي، وحرقة لا يستطيع إخفاءها، أمسك بيدي بقوة، كمن يسحب ابنته من النار، حين أمسك أبي بيدي وسحبني خارج البيت، شعرت أن الأرض كلها تهتز تحتي».

كانت قبضةُ أبيها جسرًا تعبر عليه من الغرق إلى الشاطئ.

في تلك اللحظة فهمت أن بعض الأيدي لا تُمسك بنا فقط؛ بل تُمسك قلوبَنا لئلا تتبعثر!

لم يكن يسحب جسدًا من عتبة بيتٍ فحسب، كان يسحب روحًا من حافة الانهيار.

قالت:

«دكتورة لم أدرِ كيف وجدت نفسي جالسة بجانبه في السيارة، كان يقود بسرعة، وصمته كان أثقل علي من الكلام، نظرتُ إليه فرأيت يده على المقود ترتجف، وملامحه متوترة كأنه يبتلع دموعه ليبقى قويًا أمامي، كلماته كانت تتردد في

أذني، والله أهون عندي أن أراكِ مطلقة حيةً عندي، من أن أراكِ ميتةً ببطء عنده، كان يحاول أن يبدو صلبًا، لكن صوته انكسر في آخر كلمة، أدركت أن قلبه يحترق أكثر من قلبي، شعرت أن أبي لم ينقذني من رجلٍ مدمن فقط، بل أنقذني من نفسي، من أن أستمر في صمتٍ يُهلكني».

حين سمعت حكايتها عن أبيها، لم أرَ في القصة مجرد رجلٍ ينتشل ابنته من بيت زوجها، بل رأيت مرآةً صغيرة لرحمةٍ أكبر، رحمها أبوها بدمعةٍ أخفاها، وبقبضة يدٍ قوية، وبقرارٍ بدا صعبًا لكنه كان رحمة محضة.

رأيت أن الله يرحم عباده حين يسخر لهم قلوبًا حانية، وأذرعًا قوية، وأصواتًا تكاد تنكسر من شدّة الحرص، فمن أبرز صور الرحمة التي يشهدها العبد في حياته: أن يهيئ الله له من أهله من يكون سترًا وحمايةً.

ورغم كل شيء، نظرت إليّ وقالت **بقلبها الكبير**:

«لا أكرهه، ما زلت أدعو له في سجودي: اللهم اهده، اللهم تب عليه!»

أقول في نفسي لله قلبها الذي ظل قادرًا على الرحمة وسط كل هذا الألم.

سرحت بعيداً أقول إذا كانت هذه رحمة الأب بابنته فكيف برحمة الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ؟

كيف برحمة الله سبحانه التي وسعت كل شيء؟

قلت لها:

أستشعري يقينًا أن الله لن يُضيّعكِ وهو الذي ألزم نفسه برحمة عباده ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾[1]، ألزم نفسه جل جلاله بالرحمة، وهو الغني عن العالمين!

ذكرتها بحديث النبي ﷺ حين رأى امرأةً بين السبي تبحث عن صغيرها، فلما وجدته ألصقته بصدرها وأرضعته، قال ﷺ: «**الله أرحم بعباده من هذه بولدها**»[2]

تمتمت لها:

رحمة أبوكِ رحمة ساقها الله، وربك الرحمن أرحم بكِ من الجميع، إن رحمة أبيكِ حين أمسك بيدكِ ليست إلا جزء من رحمة أرحم الراحمين، أما رحمة الله فهي أعظم وأوسع، هي نورك الذي لا ينطفئ، وسترك الذي لا ينكشف، إذا ضاقت عليكِ الأرض بما رحبت، فقولي: «اللهم رحمتك

---

(١) سورة الأنعام: ٥٤

(٢) أخرجه البخاري (٥٩٩٩)، ومسلم (٢٧٥٤)

أرجو، فلا تكلني إلى نفسي طرفة عين».

ثم قالت وهي تحبس دموعها:

«دكتورة، موهاينة علي نفسي! أشعر أن حياتي تدمرت، كل الأبواب أُغلقت في وجهي!»

همست لها برفق:

إذا أغلق الله أمامك بابًا بحكمته، فقد فتح لك أبوابًا برحمته،

ثقي برحمته كما تثقين بحكمته.

وما دام لسانك يلهج بالدعاء: اللهم اجبر كسري، فتيقّني أن الله لن يردكِ خائبة؛

وما ضاع صبر عند الله، ولا خاب قلب لجأ إليه، اصدقي في يقينك بقول الله تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦﴾ (١)

❐ الطلاق بداية

قالت بانكسار: تطلّقت دكتورة!

نظرتُ في عينيها طويلًا، ثم قلت: ليس كلُّ انكسارٍ نهايةَ

---

(١) سورة الشرح: ٥-٦

طريق؛ بل قد يكون جبرًا في صورة كسر، يردُّنا الله به إلى أنفسنا، فنُلمُّ شتاتَها ونقف من جديد.

قال تعالى: ﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ﴾[1].

أرأيتِ؟ وعد من الله، أن الغنى والسعة قد يكونان بعد الفراق، وأن الفراق لا يعني الخسارة، بل قد يكون غنىً من الله وسعةً لم تظنيها، وما أُغلق أمامك من باب، فتح الله لك مقابله باب قربٍ منه، ورزق، وطمأنينة.

تمتمتُ لها كمن يواسي قلبًا مكسورًا:

«أحسني ظنك بربك، فكل كسر عنده جبر، وما أُغلِق بابًا إلا فتح الله أبوابًا»

قالت:

الطلاق أبغض الحلال

قلت مؤيدة:

الطلاق وإن كان أبغض الحلال، وهذا ما يؤكده قول النبي ﷺ «**أيما امرأة سألت زوجها الطلاق من غير ما بأس فحرام عليها رائحة الجنة**»[2]، ولكن في حالتكِ طلب الطلاق له

---

(١) سورة النساء: ١٣٠

(٢) صحيح أبي داود (٢٢٢٦).

سبب وجيه ومشروع، بل إن البأس واقع وبوضوح،

أومأتُ موافقة وقالت:

فعلاً كان ضرره متعدياً يأتي مخدّراً أو مخموراً، كثيراً ما كنت أخاف على نفسي، أو يغلب على ظني أنه سيودي بالبيت إلى كارثة.

أجبتها:

لقد أباح الله تعالى الطلاق هنا في قوله: ﴿فَإِمۡسَاكُۢ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٖۗ﴾[1]، ومن المقرر في الشريعة أن الزوج إذا كان يضر بزوجته، وَجَبَ عليه رفع الضرر عنها، وإلا طلقها منه القاضي عَنْوةً، ولا يلحقها بذلك إثم ولا حرج.

بل إن الطلاق قد يكون بداية النجاة، والطلاق ليس شرًّا محضًا، وإنما هو رحمة شرعها الله لعباده عند الحاجة.

سادت لحظة صمتٍ، قبل أن تنطق بكلماتٍ خرجت من عمق الجرح:

«لكن لا أخفيك دكتورة أشعر بالطلاق كأني انكسرت إلى غير رجعة! أشعر بضياع، أخشى من نظرة المجتمع والناس».

(١) سورة البقرة: ٢٢٩.

أعدت عليها: البلاء ليس ضياعًا؛ بل قد يكون طريق إلى الله. ألم تسمعي قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[1]؟ وصبركِ هذا مكتوب عند الله، لن يضيع منه شيء.

❐ حسن الظن بالله

ابتسمت بدمعة رجاء، وقالت:

«صدقتي دكتورة كم قرّبني هذا البلاء من الله، في ليالي وحدتي كم قضيتها على سجادتي».

قلتُ بثقةٍ واطمئنانٍ: ما من عبد أحسن ظنه بربه إلا أعطاه الله فوق ما يرجو، رحمة الله أوسع من ذنوبك، ومن ذنوب زوجك، ومن بلائك كله. قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾[2] وأنتِ من ذلك «الشيء» الذي وسعته رحمة الله.

❐ رب ضارة نافعة

سكتت قليلًا، فأمسكت يدها وقلتُ:

«رب ضارة نافعة، لعل الله أغلق بابًا ليحفظك من هاوية، وفتح لك بابًا إليه.

---

(١) سورة الزمر: ١٠.

(٢) سورة الأعراف: ١٥٦

ما ضاع عند الناس، لن يضيع عند الله.»

ابتَسَمَت، وفي عينيها دمعة مختلفة هذه المرة: دمعة رجاء وطمأنينة.

كانت كلماتها تسكب برد الطمأنينة في قلبي كما في قلبها.

- **ومضة:**

غادرت الطالبة القاعة، وبقي أثرها في داخلي.

لم أرَ طالبةً متعثّرة بغيابها، بل امرأةً نضجت في مدرسة البلاء.

تركت في قلبي يقينًا جديدًا:

أن العمر لا يُقاس بطول السنين، بل بما يَبقى من القلب لله،

وأن ما يراه الناس خسارةً قد يكون عند الله نجاة،

وأن البلاء، وإن كسر الجسد، يُحيي الروح ويُزهر الإيمان من بين الركام.

قلت في نفسي: ربّ ضارةٍ نافعة!

ما أغلق الله بابًا إلا ليحمي، وما أخذ إلا ليُعطي،

وما ابتلى إلا ليُطهّر ويرفع، وما كسر إلا ليجبر،

وما ضاق إلا ليفتح بعده أفق الرجاء والرضا.

العضل قيد على قلوب بريئة



في زحام الحياة، تمرّ بنا وجوه تحمل من الحكايات ما يعجز عنه الكلام، نظنها عابرة، وهي في الحقيقة محمّلة بأعمارٍ من الصبر والانتظار.

❐ قلق دفين

انتهت محاضرتي في المصلى، وجلسنا نتأهب لإقامة الصلاة.

كان الهدوء يخيم على المكان إلا من همسات متقطعة وارتطام خفيف لكتبٍ تُجمع.

كنت أهمّ بإغلاق كمبيوتري المحمول حين لمحْت عند باب المصلى امرأة كبيرة في العمر، وقفت مترددة الخطوات، تحمل على ملامحها آثار زمنٍ طويل أثقلها بالهموم.

لم تكن واقفة فحسب، بل كأنها تنتظر شيئًا لا يُرى، في عينيها قلق دفين، وفي وجنتيها بقايا دموع قديمة، وكأنها جمعت شتات شجاعتها لتدخل عليّ.

اقتربتُ مني تنهدت تنهيدة طويلة، خرجت معها أنفاس مثقلة وكأنها حملت جبالًا، وسألتها برفق: حياك الله كيف أخدمكِ؟

قالت بصوتٍ خافت يقطر ألمًا: يا دكتورة أنا محروقة القلب على بناتي.

❐ بداية الاعتراف

رفعت حاجبي دهشة وسألتها: خيرًا، ما الأمر؟

هنا لم تتمالك نفسها، فدمعت عيناها وجرى على خدّيها سيل صامت، وقالت بصوتٍ متهدّج:

أبوهن يعضلهن عن الزواج!

كلما تقدم خاطب صالح ردّه بلا سبب.

توقفت لحظة، ثم قالت بحرقة:

يخاف عليهن من ماذا؟ من الحلال الذي أحلّه الله؟!

ثم أضافت بحرقة وهي تمسح دموعها بظهر كفها:

والله لقد ذبلت وأنا أراهنّ أمامي، تُطوى أعمارهن كما تُطوى أوراق الأزهار حين تُحجب عنها الشمس، فلا ماء يرويها ولا دفء يحتضنها.

❑ الحيرة والصدمة

سكتُّ لحظة وقد أخذتني الدهشة ثم سألتها بحيرة:

يعضلهن؟ لِمَ؟ الأب هو الولي والسند، هو الستر والحماية، هو الحنان والشفقة، محبته لبناته فطرة من الله لا تعادلها محبة، لا تصنّع فيها ولا تزلّف، لا مصلحة فيها ولا مغنم، وكل ما يعارض هذا هو من قبيل الوهم أو الخلل الذي ينبغي أن يقوّم.

هزّت رأسها، وتفجرت كلماتها كبركان مكبوت: هو متسلِّط وظالم يا دكتورة.

❑ انتقام ممتد

جلستُ معها جانبًا، أستمع وقد عقدت الدهشة لساني.

همستُ في أعماقي:

نعم قد يخطئ الأب، قد يقسو، قد يتجاوز، لكن لا بد أن تكون نيته الحماية لا الإيذاء.

لكنها عاجلتني بكلمات هزّت قلبي:

الطلاق وقع عليّ عقوبة، وبعده امتد العقاب لبناتي. هو لا ينتقم مني وحدي، بل من فلذات كبدي؛ كلما جاء خاطب افتعل حججًا واهية، سنوات طويلة وأنا أتابع المسرحية

نفسها: خاطب صالح يُطرق الباب، ثم يُردّ بلا سبب إلا العناد.

تنهّدت، ثم تابعت بصوتٍ منكسر:

حتى أدركت الحقيقة المرة، لقد صرّح لي مرارًا: إنه يريد معاقبتي ببناتي. كأن قلوب بناته صارت ساحة حرب بينه وبين أمهن.

❑ تذكير بالشرع

شعرتُ بمرارة في قلبي، فخاطبتها برفق أواسيها:

اصبري وكوني لبناتك سندًا، وذكّري أباهم أن الظلم ظلمات يوم القيامة، وأن العدل في الولاية أمانة ومسؤولية، أخبريه بقول النبي ﷺ: «**إذا خَطَب إليكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه، إلا تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد عريض**»[1].

لكن الأم لم تهدأ، بل انطلقت كلماتها كالسيل قالت:

« أتدرين ماذا يعني أن ترى الأم بناتها يكبرن عامًا بعد عام والخطّاب يأتون ويُردّون بلا سبب شرعي؟ أن تُحرم الفتيات من حقهن في بيت وزوج وذرية؟ أن تتحول البسمة إلى دمعة،

---

(١) سنن الترمذي الصفحة (١٠٨٤)

والأمل إلى وجع ساكن؟ كل ذلك فقط لأن أباهم يظن أنه يحمي أو ينتقم»!

❐ بوح بالوجع

قالت وهي ترفع يديها بيأس لتمسح دموعها:

«بناتي يتأخرن في أعمارهن، والخطاب يتفرّقون. ماذا أقول لهن إذا بكت إحداهن في حجري؟ ماذا أجيبها إذا سألت: «لماذا يا أمي يمنعني أبي من الزواج؟»

نظرت إليها وسألتها: هل يمنعهم بحجة أو عذر؟

قالت:

لا والله. كلما جاء خاطب افتعل حججًا واهية،

قلت لها مُطَمئِنة:

إن الزواج رزق، ومن منع رزق بناته حرم نفسه من دعواتهن، وربما وقف خصمًا لهن يوم القيامة، وإن كان يتوهم أن العضل عقوبة لك، فقد جعل نفسه خصمًا لشرع الله قبل أن يكون خصمًا لك.

ذهب صوتها وهي تقول:

«تمر السنوات ثم أدركت الحقيقة بأنه ينتقم، صرّح بذلك مراراً يريد معاقبتي ببناتي، كأن قلوب بناته صارت ساحة

لمعركته معي. أهذا يُعقل؟ هل يُعقل أن يُتخذ قلب البنت ميدانًا للانتقام؟ هل يقبل الشرع أن يُظلمن هكذا؟»

أمسكت يدها بقوة وقلت:

بالتأكيد لا يقبل الشرع ذلك. هذا ظلم بيّن وعضل صريح، وإثم مبين، ومخالفة لكتاب الله وشرعه، وفي الآية نصّ صريح في تحريم العضل ﴿فَلَا تَعۡضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحۡنَ أَزۡوَٰجَهُنَّ﴾ (١).

وضعت يدها على رأسها وقالت في صوت يائس:

والله يا دكتورة، كلما رأيتهن يذبلن شعرت أن قلبي يُنتزع من مكانه، أليس لهن حق كما لبنات الناس؟

كانت دموعها تجري كالسيل، وكنت أربّت على كتفها قائلة:

ثقي أن الله لا يضيع حق المظلوم، كل دمعة من بناتك محفوظة عنده، وكل ليلة سهرتِ فيها من القهر مسطورة في صحيفتك صبرًا واحتسابًا، وما عند الله خير وأبقى.

❐ بين الخوف والرجاء

رفعت الأم صوتها وقد غلبها البكاء، وقالت بحرقة تفتت الحجر:

---

(١) سورة البقرة: ٢٣٢

«دكتورة ما يؤلمني ليس قلبي وحده، بل قلوب بناتي، كل واحدة منهن تحمل في قلبها سؤالًا لا يُجاب. الكبرى كلما جاء خاطب، أهيّئها وأبشرها، ثم يُردّ بلا سبب.

تنظر إليّ وتقول: «لماذا يا أمي؟ ماذا ينقصني؟» فأصمت، ولا أجد جوابًا إلا الدموع.

ولا أخفيك عن حزنها اليوم وقد فاتها الزواج لكبرها، كم مرة دعت على والدها «حرمك الله من الجنة كما حرمتني من الزواج»، بل يصل بها الأمر أحياناً إلى كراهية الشرع، ورفض قوامة الرجل على المرأة بسبب ظلم أبيها.

أما الوسطى، فقد ضاقت نفسها. كلما سمعت بزواج صديقتها، تنسحب إلى غرفتها أيامًا، لا تكاد تخرج ولا تكلم أحدًا، تقول لي بصوت حزين: «أشعر أنني محبوسة يا أمي، كل من حولي يبدأن حياتهن، وأنا ما زلت هنا، أواسيها، لكنني أعلم أن في قلبها غصّة لا تزول.»

ثم تنهدت تنهيدة طويلة وأردفت:

«وأما الصغرى فهي ألينهن قلبًا، تضحك أمامي وتتماسك كي لا تزيد ألمي، لكنها تبكي في الليل، سمعتها مرة تدعو وهي ترتجف: يا رب، ارزقني زوجًا صالحًا، وافتح قلب

أبي، وكأن بكاؤها في الليل سكين في صدري، لا أستطيع احتماله».

كانت دموعها تنهمر كالسيل، فمددت يدي أربّت على كتفها قائلة:

أعانك الله وفرّج همك، أُدرِك ما تمرّين به جيداً؛ فالعرس حلم كل بنت منذ نعومة أظفارها؛ خاصة في ظل غيبة الأب، قد ينشأ لديهن شعور قوي نحو الزواج من رجل يتفهمهن وتفجير مشاعرهن نحوه، حبيبتي جهادك بإحسان الظن بالله أولاً وتعليق القلب بمسبب الأسباب سبحانه، ثم بذل الأسباب الممكنة، وحاولي جاهدة أن لا تحمل قلوب بناتك كراهية لأبيهن، ولكن ليتوجهن إلى الله بالدعاء؛ فربما دعوة صادقة في جوف الليل تغيّر قلبه، أو تفتح لهن بابًا لا يخطر على بال، أثق أن الله معهن ويدبرهن.

❑ الخوف من الفتنة والانحراف

قالت الأم وهي تضع يديها على وجهها:

«والله إني لا أنام الليل خوفاً عليهن، أخشى أن يغويهن الشيطان؛ فيشبعن عواطفهن بالحرام، بعدما حُرمن مما أحلّ الله. أي مستقبل يرجوه من عضلهن؟!»

ارتجف قلبي وأنا أسمعها أردفتُ قائلة:

صدقتِ إن من الآباء من يئد ابنته وهي حية، يظن أنه أدرى بمصلحتها، لكنه يقتل مستقبلها بيديه، إن مستقبل المرأة الحقيقي بما رسمه لها الشرع: تزويجها من زوج صالح، وإنجابها لذرية طيبة تكون قرة عين لها في الدنيا والآخرة، ولو أن المرأة مُلِّكت خزائن الأرض، وأعطيت أموال قارون، وحازت أعلى الشهادات، فلا شيء يعدل سعادتها بزوج وأولاد.

❐ الجاهلية الأولى

قالت:

«هي يا دكتورة أحكام الجاهلية الأولى والظلم ومنع الحقوق، فتاة لا ينقصها عن الزواج شيء، ويرغب في مثلها كرام الرجال، لكنها ابتُليت بوليّ يرد الخاطبين الأكفاء عنها، حتى شاب رأسها، واغتيلت سعادتها، وتلاشت أحلامها وأمانيها.

كانت كلماتها كصفعات توقظ العقل والقلب معًا سكتُّ لحظة ثم قلت:

«حسبنا الله ونعم الوكيل، هو المستعان وعليه التكلان.»

❐ أثر العضل على الروح

تابعت الأم بلهجة يائسة:

« العضل لا يحرم البنت من الزواج فقط، بل يسرق منها ثقتها بنفسها.

يجعلها تظن أنها ناقصة، أن فيها عيبًا، أنها غير جديرة بالحياة.

والله ما فيهن إلا الخير والجمال والدين، لكن الحرمان الطويل يحطم الروح».

ثم أردَفَت:

«لا وصف لحالهن اليوم إلا الانطوائية والعزلة والانفراد، انسحاب تام من الحياة الاجتماعية، اكتفاء بالانسجام مع الذات بعيدًا عن أفكار ورغبات وآراء الآخرين.»

أجبتها بحزن:

نعم، هذه المشاعر تراكمية، كل موقف يزيد على ما قبله، كما يمتلئ الدلو قطرة بعد أخرى، حتى يصل إلى مرحلة الامتلاء ويعجز عن استيعاب المزيد. عندها تتحول الغصّة إلى اكتئاب، ثم إلى اكتئاب حاد يلتهم الروح.

❐ أليس منكم رجل رشيد؟!

وبحرقة قلت لها:

أليس منكم رجل رشيد؟ يذكره بالله يعظه بالكتاب والسنة، يذكّره بالقصة المشهورة قصة معقل بن يسار رضي الله عنه، الذي زوج أخته رجلا من المسلمين فطلقها فلما انقضت عدتها جاء يخطبها فرفض معقل بن يسار، وقال: أكرمتك وزوجتك فطلقتها، والله لا ترجع إليها أبدا، وكانت المرأة تريده فنزل قول الله تعالى:

﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوْا۟ بَيْنَهُم بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [(١)]، فلما نزلت الآية رضخ معقل لأمر الله تعالى، وقال: سمعٌ لربِّي وطاعةٌ ثُم دعاهُ، فقال: «أُزَوِّجك وأُكرمُكَ، فزوجها إياه».[(٢)]، هذا الانقياد الحقيقي لأمر الله حتى لو لم يوافق الأهواء

هزّت الأم رأسها وقالت بمرارة:

« نعم، هذا الانقياد لمن يتقي الله في بناته ويراقب الله في خطراته، لا من يجعل قوامته وسيلة للانتقام».

---

(١) سورة البقرة: ٢٣٢

(٢) صحيح البخاري (٥١٣٠).

❏ الطريق إلى القضاء

أجبتها بحزم:

إن ارعوى وإلا فلتُرفع شكايته إلى القضاء؛ لأن الشريعة لا ترضى أن تُحبس المرأة عن حقها.

ثم أوضحتُ قائلة:

إن انتقال الولاية من الولي الأقرب إلى الأبعد أو السلطان في حال العضل، حل واقعي لمشكلة كثير من النساء. إذ لا يجوز أن تُفوت المرأة فرصة الزواج بالكفء المناسب الذي ترضاه، بسبب تعنّت وليها، للسلطان أن يأمر الولي العاضل بتزويج ابنته من الكفء، فإن امتنع، انتقلت الولاية إلى غيره، وفي الحديث «**فإن اشتجروا فالسلطان ولي من لا ولي له**».[١]

قالت الأم بأسى:

«أن نقاضي الأب هذا أمر لا يقبله مجتمعنا ولا عاداتنا، لكن موعدنا يوم الحساب.

ثم تركتني وقامت إلى الصلاة، دموعها على خدّيها، وابتسامة إيمان ترتسم رغم الألم.

---

(١) صحيح الجامع (٢٧٠٩).

قامت إلى الصلاة، ووجهها مبلل بالدموع، لكن في عينيها بريق يقين.»

❑ جريمة إنسانية قبل أن تكون ظلمًا شرعيًا

بعد انصرافها جلست في مكاني أفكر بما سمعت، ورأيت أمامي أمًّا محروقة القلب، وبناتٍ يذبلن أعمارهن يومًا بعد يوم، وازددت يقينًا أن العضل ليس مجرد ظلم شرعي، بل هو جريمة إنسانية.

عضل الأب ليس فقط حبسًا لبنات بريئات، بل جناية على قلوبهن، وإن أعظم العقوبات أن يتحول الطلاق إلى انتقام، وأن يصبح الأب سيفًا على بناته بدلًا من أن يكون سترًا لهن.

كيف يواجه الأب ربه وهو يعضل بناته في زمن الفتن؟!

إلا أن ضعف التمسك بدين الله، وما يستتبعه من طغيان الشهوات والأهواء على ما فطر عليه الإنسان من أخلاق قد يؤدي إلى ذلك، فكيف ونحن في زمان أصبح فيه المنكر معروفًا والمعروف منكرًا والعياذ بالله.

❑ عاقبة الظلم

ترددت في قلبي آيات الله وأحاديث نبيه ﷺ:

﴿وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا﴾ .[1]

وقال ﷺ : «**اتقوا الظلم، فإن الظلم ظلمات يوم القيامة**».[2]

إنه ظلم مضاعف:

ظلم لبناته، إذ يُحرمن حقًا شرعيًا جعله الله لهن.

وظلم لنفسه، لأنه يحمل وزرًا عظيمًا أمام الله تعالى.

• ومضة الختام:

ألا فليتق الله كل من ولاه الله تعالى أمر واحدة أو أكثر من النساء، وليعلم أنه موقوف بين يدي الله تعالى ومسؤول عمن استرعاه الله، العضل قيد على القلوب، وقتل صامت للأحلام، وجناية على الفطرة التي فطر الله الناس عليها.

أسأل الله أن يمن على شباب وفتيات المسلمين بالزواج وطيب العيش وقرة العين وأن يملأ بيوت المسلمين سعادة ومحبة وذرية صالحة.



(١) سورة الفرقان: ١٩

(٢) أخرجه مسلم (٢٥٧٨)

لؤلؤة الثبات



بعض القلوب لا تُنادى بالكلمات؛ بل تُستيقظ بنفحةٍ من لطف الله، تمضي صامتةً حتى إذا آن أوانها، أزهرت يقينًا في وقتٍ لا يتوقّعه أحد.

❒ البذرة الأولى

ما كنتُ أظنّ أنّ الله يفتح في قلبي محبّةً خاصّةً لطالبةٍ من بين عشرات الوجوه التي أراها كلَّ يوم، حتى جلست أمامي هي؛ فتاةٌ هادئةُ الظلال، وادعةُ النظرات، إذا دخلتِ الصفَّ كأنّ السكينةَ تمشي على أطراف أصابعها. لا تُكثر الكلام ولا تستعرض حضورها، لكنّها تمتلك ذلك الوقارَ الذي يُصغي له القلبُ قبل الأذن.

حين ابتسمت أوّل مرّة أحسستُ أنّ المكانَ اتّقد بضوءٍ لا يُرى؛ ضوءٍ ناعمٍ من عالمٍ لا يعرف الضوضاء. كانت تُنصت للدرس بانتباهٍ صافٍ، لا تُشتّتُها الرفيقات، ولا تقطع المعنى بضحكاتٍ عابرة.

كثيراً ما كنتُ أراها أثناء الشرح، فتلوح في ملامحها

أنفاس الطهر، وأقول في نفسي: إن في قلبها نوراً لم يكتمل إشراقُه بعد.

مرّت الأيام، وكل يوم يزداد حضورها في قلبي، كنتُ أشعر أن روحها تتدرج بخطوات هادئة نحو الله، كمن يسير في ممر طويل، يعرف أن نهايته نور، لكنه يخشى استعجال الخطوات.

أسئلتُها تشير إلى روحٍ تبحث لا تُجادل؛ تسأل عن المعنى قبل الحكم، وعن السرّ وراء الكلمة. كانت تخطو إلى الله بخطواتٍ واثقة بطيئةٍ؛ خطوات من يعرف أنّ الطريقَ طويل، لكنّه مُمهَّدٌ لمن صدق. وكلّما مرّ يومٌ ازددتُ يقينًا أنّ في قلبها بذرةَ خيرٍ تنتظر المطر.

كنت أراها تنصت للدرس بوجه ساكن وعينين لا تلتفتان،

حتى بدا لي أنها تسمع من وراء الكلام نداءً لا يسمعه غيرها.

كل ذلك جعلني أرى في ملامحها بشائر هداية

تذكرت قول الله ﷻ: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِۖ﴾ (١) وسألت الله من قلبي أن يهدي قلبها.

وذات مساء، جلَسَت بعد المحاضرة وحدها، تُقلّب

---

(١) ا سورة لأنعام: ١٢٥

صفحات المصحف كما يُقلّب الغريق خشبة نجاته.

كانت عيناها تتنقلان بين الآيات ببطءٍ خاشع، ثم توقفت فجأة، وكأنها التقطت إشارة من السماء، رفَعَت رأسها نحوي، ولم تتكلم؛ لكن في عينيها وميض العزم قبل أن ينطق اللسان.

منذ تلك اللحظة، أدركت أن شيئًا في داخلها تبدّل،

وأن الفتاة التي كانت تتساءل قد بدأت تسمع الإجابة من أعماقها،

إجابةً لا تُقال؛ بل تُعاش!

ذلك الفصلُ لم يكن عاديًّا؛ كان مسرحًا لميلاد روحٍ جديدة، وقصّةٍ ستبقى علامةً في حياتها كما هي في حياتي.

❑ يومٌ فارقٌ

كان صباحًا يوشك أن يكون عاديًّا، لولا أن الله كتب له أن يكون منعطفًا في الحكاية.

دخلتُ الصفَّ على عادتي، ألقي السلام، وأشغل جهاز العرض، والطالبات يتبادلن الهمسات اليومية.

لم يكن في الأفق ما يوحي بحدثٍ مختلف، حتى فُتحت أبواب القاعة ودخلت هي.

خطواتُها هذه المرّة أبطأُ من المعتاد، كأنّها تمشي على صفحة قرارٍ ثقيلٍ بين السماء والأرض.

سكن المكان فجأةً؛ حتى الهمساتُ اختنقت.

رفعتُ بصري فإذا بي أراها وقد غطّت وجهَها بخمارٍ كامل.

لا ألوانَ زاهية، ولا عطرٌ يسبقها؛ بل هيبةُ سترٍ تسبقها، وصمتُ طاعةٍ يُعلن حضورَها قبل الكلام. كان نقابُها بسيطًا لا زخرفةَ فيه، غير أنّه بدا في عينيّ كالتاج على رأسِ مَلِكة، يزيدها مهابةً ووقارًا.

كان تاجاً فوق رأسٍ من عرفت قدرها عند الله.

تقدّمت بخطواتٍ واثقةٍ مهيبة، حتى جلست في مكانها المعتاد.

لم يُسمع في القاعة سوى نبضاتٍ خافتةٍ تشهد لحظةً لن تُنسى.

رأيت أنظار الطالبات كلها تتجه نحوها، كان المشهد كأنه ميلادٌ جديدٌ،

ميلاد روحٍ اختارت أن تُرى بنورٍ لا يُرى.

عندها أدركت معنى قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ زَادَهُمۡ هُدٗى وَءَاتَىٰهُمۡ تَقۡوَىٰهُمۡ ١٧﴾[1].

---

(١) سورة محمد: ١٧

فالهدى الذي بدأ يومًا بأسئلةٍ خجولة، أزهر اليوم ثباتًا يملأ المكان وقارًا.

لم أترك اللحظة تمرّ صامتة، وقفتُ وابتسمتُ إليها: «هنيئًا لكِ هذا النور، هنيئًا لقلبٍ اختار الله».

ثم أتبعتُها قائلة: «من ترك شيئًا لله عوّضه الله خيرًا منه».

رأيتها تبتسم من وراء الخمار، ابتسامةً خجولةً ممزوجةً بدمعة صافية انحدرت خفيةً،

وكأنها كانت تحاول أن تخفيها خلف ستار النقاب، لكنها أفصحت عمّا في القلب من فرحٍ وسكينة.

بعد انتهاء المحاضرة، اقتربتُ منها، فوجدتُ في عينيها بريقَ سكونٍ يشبه بقايا دمعةٍ سعيدة.

قالت بصوتٍ خافتٍ تغشاه الطمأنينة:

«دعوتُ الله كثيرًا أن يثبتني، واليوم جرّبت معنى أن تتوكل عليه، فوجدتُ أن الأمر أيسر مما كنت أتصور».

نظرت في عينيها وقلت:

ذلك لأن الله وعد، فقال: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾[1]، ومن كان الله حسبه، فماذا يخاف بعد ذلك؟!

---

(١) سورة الطلاق: ٣

خرجتُ من القاعة، وقد أدركت أن الله أكرمني بهذه الفتاة، ذلك اليوم لم يكن درسًا في مادة من المواد، بل كان درسًا لنا جميعًا في معنى العزيمة، يومٌ علّم الطالبات أن القرار لله وحده، وأن أجمل لحظة في عمر الإنسان هي حين ينتصر على نفسه، فيختار رضا الله على رضا الخلق.

يوم النقاب لم يكن يومًا عابرًا كان بداية القصة!

❒ حفل في زمن الغربة

لم يكن صباح ذلك اليوم ككلِّ صباحٍ،

كان يحمل في هوائه شيئًا مختلفًا، شيئًا مهيبًا يُشبه المواعيد التي لا تُنسى.

السماءُ كانت ساكنة، والقلوب تتهيّأ، كأنها على موعدٍ مع لحظةٍ أكبر من التكريم ذاته.

كان يومًا مهيبًا، يليق بجمالهن المصون وثباتهن النديّ.

أصنع لبناتي هذا الحفل كل عام؛ حفل مملكة العفاف، زادًا لقلوبٍ تمشي لله وإن قلّ السائرون.

اصطفت الأمهاتُ، وتأهّبت الطالباتُ للتكريم.

دخلت هي بينهن، وحدها دون والدتها.

كانت تمشي بخطواتٍ مترددة، وفي صدرها عزاءٌ كبير:

«إن غابَ السند، فاللهُ سندي»

بدا ممرُّ القاعة أطول من عادته؛ ليس لاتّساعه، بل لأنّ خطواتها كانت تُضيف إليه معنًى جديدًا،

كأن كل خطوةٍ منها تقول: ما دام الله معي فلستُ وحدي.

كانت تحمل في قلبها ما يكفيها من الفخر أن الله معها، وأنه لا يترك من لجأ إليه.

❐ لحظة التكريم

جاءت لحظة التكريم، والقلوب تخفق كأنها على موعد مع فرحٍ سماويٍّ لا يُشبه الأفراح المعتادة.

ناديتُ الأسماء زهرة زهرة؛ اثنتان وثلاثون زهرةً من زهرات الطاعة، كلّ من خطت خطوةً نحو الستر، ولو صغيرة، كان لها بيننا مكان.

وما إن تعاقبت الأسماء حتى شعرتُ أن الدمع يغالبني، حاولت أن أخفيه، لكن العيون لا تكذب؛ فالمشهد كان أعظم من أن تحتمله النفس دون دموع.

تقدّمت الفتيات لاستلام شهاداتهن، بخطًى واثقةٍ يجمّلها الحياء،

تمدّ كل واحدة منهن يدها لتتسلّم شهادتها، وعلى

ملامحها ابتسامةٌ يغشاها نورُ الطاعة.

مشهدٌ يتكرّر، لكنه في كل مرةٍ يبعث في القلب سكينةً جديدة، كأنّ الإيمان يتجدّد في الوجوه كلما تجددت الطاعة.

ولمّا جاء اسمُ فطومة خيّم السكون. نهضت ببطءٍ تمسك بطرف عباءتها، وفي عينيها حياءٌ وعزيمة. ناولتُها شهادتَها فارتجفت يداها وسبق الدمعُ البسمة. أدركتُ يومها أنّ التكريم ليس ورقةً تُرفع، بل تذكيرٌ بعهدٍ بين القلبِ وربِّه.

قطعنا الكعك، وتعالت الضحكات، لكنّي كنتُ أرى في العيونِ أثرَ آية: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ﴾[1].

لم يكن الحفلُ دنيويًّا؛ كان إعلانًا أنّ الطاعة طريقٌ، وإن صَعُبت بدايتُه فهو ينتهي بحلاوةٍ لا تُوصف، وقفتُ أمام الحضور، وفي قلبي غصّة فرح، وقلتُ لهنّ:

«يا بناتي، طريق الإيمان ليس مفروشًا بالورد؛ لكنه ممهدٌ بالدعاء والصبر،

في أوله مشقةٌ وجهادٌ للنفس، لكنه ينتهي بسكينةٍ تُغني عن الدنيا وما فيها،

---

(١) سورة العنكبوت: ٦٩

ومن صبرَ على الطاعة في بدايته، ذاق في نهايته لذّةً لا تضاهيها لذائذ الدنيا».

استشعرت في تلك اللحظة بأنّ الملائكة تشهد المجلس معنا، تذكرت قول النبي ﷺ «**ما اجتمع قومٌ في بيت مِن بيوت الله يَتْلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلاَّ نزلت عليهم السَّكينةُ وغشيتهم الرَّحمةُ وحفَّتهم المَلائكة وذكَرَهم اللهُ فيمن عنده**»[1]، وسألت الله عز وجل أن يجعلنا ممن يُباهي بهم الملائكة[2].

• ومضة:

نظرتُ إلى الفتيات، إلى عباءاتٍ سكن فيها النور، ووجوهٍ أشرقت بالحشمة،

وقلتُ في نفسي قبل أن أنطق بلساني: «جمالُ الفتاة لا يُرى في ملامحها، بل في حيائها،

ولا في ألوان زينتها، بل في صدق طاعتها، فالخفيُّ عند الله أعظمُ من كل ظاهرٍ للناس».

---

(١) رواه مسلم (٢٦٩٩).

(٢) كما في الحديث الذي رواه مسلم (٢٧٠١).

تـذكـرتُ قـول الـحـق سـبـحـانـه: ﴿كَأَمۡثَٰلِ ٱللُّؤۡلُوِ ٱلۡمَكۡنُونِ ٢٣﴾[1]؛ فاللؤلؤة جمالها عظيم، لكنه لا يظهر وهي في صَدَفها، ومع ذلك قيمتها في خفائها وصيانتها، وكذلك المرأة المؤمنة: جمالها في سترها، وهيبتها في حجابها، فإذا زاد سترها زاد جمالها، وإذا خفيت عن أعين الناس ازدادت قدرًا عند الله.

ذلك اليوم لم يكن تكريمًا لهنّ فحسب، بل كان تكريمًا لي أيضًا، علّمني الله أن أرى بأمّ عيني أثر الطاعة حين تتجسّد في حياة الفتياتٍ،

وأن الفرح الصادق ما كان يومًا في دنيا تزول، بل في دمعةٍ تُسكب في سبيل الله، وقلبٍ يجد حلاوة الإيمان أول مرة.



(١) سورة الواقعة: ٢٣

نداءٌ في المسجد



ليست كلّ المعارك تُرى في الميادين، فأشدّها خفاءً ما يجري داخل القلب حين يتنازع فيه الإيمان والهوى، وهناك يُختبر الصادقون دون أن يراهم أحد.

❒ مرحلة صعبة

كنتُ في زاويةٍ من زوايا المسجد بعد صلاة العصر، أُراجع بعض الأوراق، وأصوات المصلّيات وهمسات التسبيح تحيط بي من كل جانب كأنها تهمس بآيات الطمأنينة، حينها أقبلت نحوي فتاةٌ في حياءٍ ظاهر، تمشي ببطءٍ كمن يحمل في صدره رسالةً لم يتهيّأ بعدُ لقولها، وقد بدت على وجهها ملامحُ تردّدٍ وأثرُ تربيةٍ تحفظُ للمكان حرمته. جلستْ بقربي وقالت بصوتٍ خافتٍ متقطّع:

«دكتورة تذكرين فطومة؟ بنت خالتي؟»

عصرت ذهني أحاول أن أتذكر،

قالت دكتورة: دائماً تنادينها: فطومتي، هي التي كرّمتِها

قبل أشهر على ارتداء الحجاب، هي تحبك كثيراً لا تفوّت لك درساً.

رفعتُ بصري إليها فإذا بعينيها تحملان قلقًا أعرفه جيدًا، قلق المؤمن حين يرى من يحبّه يتعثّر.

لحظة لحظة! كأني تذكرتها، فطومتي الفتاة الهادئة،

غاب طيفها عني منذ فترة، لكن وصف صاحبتها لها حمل لي صورتها واضحة كأنني أراها

قالت نعم : هي هي!

على ما عهدتيها يا دكتورة؛ لكنها تمرّ بمرحلةٍ صعبة، تحتاجك دكتورة هي ترتاح لك وتستهويها كلماتك.

دكتورة بدأت تشعر بالضعف في ثباتها على الحجاب الشرعي، وأخاف أن تتراجع.

وقفتُ للحظةٍ أحدّث نفسي:

سبحان الله! كم من قلب رقيق يُجاهد ليبقى على الصراط، لكنّ أمواجَ الفتنة من حوله لا ترحم.

رددت عليها برفق:

«بلّغيها أن الطريق وإن كان صعبًا، فالله لا يُضيّع من

صدق معه، قولي لها إن الثبات رزق، وإن الهداية لا تُعطى دفعةً واحدة، بل تُروى بدموع البذل والمجاهدة في سبيل الله».

❑ معركة صامتة

لم تمضِ أيّامٌ حتى وصلتني رسالتُها الأولى؛ تفوح ببكاءٍ مكتوم، وتنبض بأنفاسِ قلبٍ يسير على جسر الخوف والرجاء.

كتبتْ تقول:

«دكتورة، أشعر كأنني وحدي في معركةٍ صامتةٍ، كلّ الأعين تلاحقني. أمشي في الطريق فيلتفت المارّة، بعضهم يبتسم بسخرية، وبعضهم يهمس بكلماتٍ لا أفهمها، لكنها تسقط على قلبي كالحجارة».

هاتفتُها بعد ذلك، فإذا بصوتها ينساب إليَّ كنبضٍ انفلت من صدرٍ ضاق بما حمل، ثم وجد في الكلام فرجًا بعد طول كتمان.

كان في نبرتها حزنٌ شفيفٌ يمتزج بصلابةٍ وضيئة، كأنّها تقف بين دمعةٍ تأبى السقوط، ويقينٍ يأبى الانكسار.

كانت تتحدث، وصوتها يمشي على حافة البكاء، غير أنّ خلف الحافة نورًا يتّقد، يوحي بأنّ هذه الغربة بدايةُ طريقٍ لا نهاية له إلا الرضا.

عبّرت قائلة:

«كنتُ أمشي في شوارع الغربة، لا أحمل في يدي إلا حقيبتي الصغيرة، ولا على وجهي إلا نقابي الساتر.

الجوّ عادي، لكن في داخلي اضطرابٌ لا يهدأ؛ أعلم أنّ العيون ستلاحقني في كل خطوة، وأنّ الطريق أمامي ليس مفروشًا إلا بالاختبارات.

كانت خطواتي الأولى بطيئة، متردّدة، كأنّ الأرض تمتحن صدق نيّتي.

التفتُّ يمينًا ويسارًا، فإذا بنظرات تتفرّس وأخرى تتهكّم، وكلمات مبعثرة تتساقط من أفواه المارة.

في تلك اللحظة، شعرتُ بحرارة تصعد إلى وجهي، وكأنّ الدنيا بأسرها تصرخ في وجهي:

(أنتِ غريبة عنّا!)

لكنّي أبيتُّ أن أنكسر، ابتلعتُ غصّتي ورفعتُ بصري إلى السماء، أستجمع ما تبقّى من عزيمةٍ في قلبي، ثم تابعتُ المسير.

كنتُ أقول لنفسي وأنا أخطو وسط الزحام:

يا ربّ، إن كنتَ تعلم أني لا أبتغي إلا وجهك، فقوّ قلبي على هذا الطريق.

❑ دويٌّ في قلبي

كان لكلماتها دويٌّ عجيب في قلبي، أحسست كأنني أسمع خفق قلبها بين الحديث،

شعرتُ كأن الله يرسل إليّ نداءً خفيًا لأن أكون سببًا في تثبيت روحٍ تتأرجح بين الصبر والانكسار.

قلتُ لها مطَمئِنةً:

هكذا قال حبيبك ﷺ: «**بدأ الإسلام غريبًا وسيعود غريبًا كما بدأ، فطوبى للغرباء**».[(١)] وطوبى من الطّيب، قال تعالى: ﴿طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ﴾[(٢)]، إذا صار الدين غريباً، فالمتمسك به أسعد النَّاس، لأنه يكون من جنس السابقين الأولين الذين اتبعوه لما كان غريباً، وهم أسعد الناس.[(٣)]

الغربة ليست لونَ الثوب ولا هيئةَ الجسد، بل هي وجهةُ القلب؛ فإذا صحّت الوجهة عَمُر الطريقُ بالله وإن خلا من الناس.

أكّدت لها: «يا فطومة، إن ما تعانينه شرفٌ لا نقمة، فإنما يختبر الله قلوب الصادقين، ليُظهر ما فيها من يقين.

---

(١) صحيح مسلم (١٤٥)

(٢) سورة الرعد: ٢٩

(٣) انظر: مجموع فتاوى ابن تيمية (١٨/ ٢٩١).

ذكّرتها بقوله تعالى: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٣﴾ (١)

فالابتلاءُ سنّةُ تمييزٍ ليظهر صدقُ اليقين.

توقفنا عند قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ﴾ (٢)

تمتمتُ لها:

اعلمي أنّ طريق الاستقامة لا يُفرش بالتصفيق، بل تُزهِره الملائكةُ بالدعاء، وتغمره رحمةُ الله حين يراكِ وحدكِ ثابتةً في زمنٍ مضطرب.

❐ امتحان العائلة

ومع تتابع الرسائل، أدركت أن معركتها الكبرى ليست في الشارع، بل في بيتها وبين الوجوه التي كان يُفترض أن تكون مأمنها.

هاتفتني تفيض أنينًا:

«دكتورة، اجتمعنا في بيت جدي، وكنتُ الوحيدة بنقابي

(١) سورة العنكبوت: ٢-٣

(٢) سورة فصلت: ٣٠

بينهم، لم يمض وقت طويل حتى بدأتُ أشعر أنني غريبة، لا باللسان فقط، بل بكل كياني!

في البداية صمتوا، ثم تتابعت النظرات والتعليقات: الدين يسر، النقاب عادة لا عبادة، صغيرة صغيرة وتضيّق على نفسها!».

❏ سرحت عنها بعيداً أتأمل:

كم هو قاسٍ أن ترى الحلال يُستبدل بالحرام، ثم يُقال لك: الأمر يسير، فلا تشددي.

وقلت في نفسي: هذا ما أخبر عنه الله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ﴾[١].

فالمجالس إذا امتلأت بالمنكر، لم يعد الصمت خيارًا سهلاً، بل صار امتحانًا صريحًا للإيمان.

كم هو صعبٌ أن يُختبر المرءُ في عقر داره، وأن يرى المعروف غريبًا والمنكر مألوفًا، ثم يُطلب منه أن يبتسم وكأن شيئًا لم يكن.

ذكّرتها بقول النبي ﷺ: «**من التمس رضا الله بسخط الناس، رضي الله عنه وأرضى عنه الناس**»[٢]

---

(١) سورة الأنعام: ٦٨

(٢) أخرجه الترمذي (٢٤١٤)، وابن حبان (٢٧٧).

قلت لها:

إن ثبتّ اليوم، تنزّلت عليك السكينة غدًا، وستجدين أثرها في قلبك قبل أن تلوح في عيونهم.

حدثتُها بصوتٍ دافئٍ يواسي قلبها المنكسر:

«جربي أن لا تُناقشي الجميع دفعةً واحدة، اختاري قلبًا واحدًا يُصغي؛ خالة رحيمة، أو جدة حكيمة؛ فالكلمة التي تخرج من صدقٍ قد تفتح أبوابًا غلّقتها سنوات من العناد، وإن وجدتِ المجلس يُجرّك إلى ما يغضب الله، فتنحّي بنفسكِ بلُطفٍ، فسلامة قلبكِ أولى من رضاهم.

❑ بذور الصبر

بعدها بأيام كنت باجتماع العائلة رنّ هاتفي فغادرت على غير العادة، اعتذرت منهم دقائق لأرد على المكالمة، وإذا بها تهاتفني وكلها شوق للحديث تبدّلت نبرة الألم برجاء خافت، ابتدأت حديثها بالسلام واسترسلت:

« دكتورة لم تكن تلك الليلةُ الماضية مثل غيرها! بيتٌ كبيرٌ يضجُّ بالأضواء، والموسيقى تتسلّل في الزوايا، والضحكات تتطاير كشررٍ لا يعرف الوقار.

وجوهٌ متلألئة بزينة مفرطة كأن شيئًا من الحياء انسلّ من

المجلس، والموسيقى تنبعث في الخلفية خافتة تارة، صاخبة أخرى، وكأنّ كلّ شيءٍ هناك يُعلن أنّ الدنيا هي الغاية!

جلستُ بينهم، لكنّ ثِقَل الغربة هبط على صدري. انكمش قلبي لحظةً، ثم استحضرت قوله تعالى: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾[1]، فقلت في سرّي: يا ربّ اهدِ قلبي.

لم أُرِد أن أجادلهم، شعرتُ أنّ الوقت ليس وقت مناظرة، بل وقت نجاة!»

عقَّبت برفقٍ كمن يسكب الطمأنينة في صدرها:

صدقتِ والله من آمن بالله هدى الله قلبه، وعوضه عما فاته من الدنيا هدى في قلبه، ويقيناً صادقاً، وقد يخلف عليه ما كان أخذ منه، أو خيراً منه.[2]

ابتسَمَت من بين دموعها وقد هدأ اضطرابها شيئًا فشيئًا ثم أكملت:

«حينها نظرتُ حولي أبحث عن ركنٍ آمن، فوجدتُ غرفة صغيرة، جلست، وأخرجتُ مصحفي، ما أن فتحته حتى وقعت عيناي على الآية وكأنها رسالة لقلبي:

---

(١) سورة التغابن: ١١

(٢) تفسير ابن كثير: ٥٥٧

﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾﴾[1].

توقّفتُ عندها طويلًا، شعرتُ أنها تخاطبني: «أتريدين الآخرة؟ فاسعَي لها سعيها». فقلت: يا ربّ، قد أردتُها على ضعفي ثم همستُ، اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة!»

سبحان الله الرحيم وكأن الآية جاءت رسالة في تلك اللحظة لتنتشل قلبًا أوشك أن يذوب في زحام الناس!

قالت:

« بكيتُ كثيرًا، شعرتُ أنني غريبة بين أهلي، فقدت أهلي وضاقت علي نفسي؛

❐ لكني وجدت قلبي!

قالت:

«طال بي المقام في الزاوية، فما مللت، كلما ارتفعت أغنية، أطفأها في داخلي ذكر، وكلما دوّى الضحك، سكّنه دعاء، تذكّرتُ كم كنتُ أضعف، كيف كنتُ أرتجف من كلمةٍ ساخرة، واليوم قلبي في مأمن! قمتُ فتوضّأت وصلّيت ركعتين وناجيت ربي»،

---

(١) سورة الإسراء: ١٩

اكمَلَت: «دكتورة دعوتُ الله كثيراً كثيراً فأمّن قلبي!»

وبصوت لا يزال صداه في أذني قالت:

«أقسم لك يا دكتورة أني حين سلّمت من صلاتي أحسست بسكينةٍ لم أعرفها من قبل، كأن الله مسح على قلبي».

توقّفتُ طويلاً عند هذه الكلمات، وقفتُ عند دعائها، عند ثباتها عند قوله تعالى: ﴿وَٱصۡبِرۡ وَمَا صَبۡرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ﴾(١)

سبحان الله الذي لولا توفيقه ما قامت من عثرتها، ولا وُلد هذا اليقين في قلبها، هذا لسان الإيمان حين يتربّى في محراب الابتلاء.

لم تُحارب ولم تُجادل؛ صمتتْ، ثم تكلّم عنها دعاؤها، وكأنّها تقول بدموعها: حسبي الله، ومن قالها صادقًا كفاه اللهُ ما أهمَّه.

❐ تحوّل القلوب

مرّت أسابيع، وجاءتني رسالة بنبرةٍ جديدة كأنها بشارة:

«دكتورة، صرت أشعر أنني أقوى. لم أعد أنهار كما كنت، رجعتُ إلى مكاني، والمجلس كما هو، لكنّني لم أعد كما كنت!

---

(١) سورة النحل: ١٢٧

حين يجتمعون، أجلس بوقاري، لا أشارك في لهوهم، ولا أُجادلهم، وأرى في صمتي عبادة، وفي وحدتي عزّة».

تمتمت في نفسي:

﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾ [(١)]، فالمخرج ليس بابًا في الجدار، بل بابًا في الصدر؛ نعم، هكذا يتربى القلب بالإيمان، يأنس بالله حين يستوحش من الناس، حتى تصبح الخلوة معه جنةً في الدنيا قبل جنة الآخرة!

لقد خالطت فطومة أهلها ببدنها، لكن قلبها كان مع الله، يُسبّح في بحرٍ آخر لا يعرف ضجيجهم.

❐ ولم يطل الوقت حتى كتبت إليّ بفرح:

« كنت في البداية أخاف من كلامهم، أما الآن فأرى أن الله ألقى في قلوبهم شيئًا من الهيبة، الغريب أنّ قريباتٍ كنّ يلمزنني، أصبحنَ يقلن: اتركوها بحالها، هي مقتنعة.

صاروا يقولون عني: «الملتزمة»، و«المؤدبة»، بل يطلبون منها الدعاء أحيانًا!

وبعضهن يسألن عن النقاب وكأنه صار أجمل في عيونهن».

قلت في نفسي: الله أكبر! هكذا يتحقق وعد الصادقين

---

(١) سورة الطلاق: ٢

سبحان من ألان قلوبًا كانت قاسية، وفتح لها بابًا لم يكن في حسابها!

«من أرضى الله بسخط الناس، رضي الله عنه وأرضى عنه الناس»(١)

فما هي إلا أيامٌ يسيرة من صبرٍ جميل، حتى يُبدّل الله الاستهزاء احترامًا، والتثبيط إعجابًا، والنفور قبولًا.

❑ من الخوف إلى الطمأنينة

بعد أسبوعين كتبت: «أصبحت أمشي بخُطى تعرف طريقها، يهمس قلبي: لبيك اللهم، إنّ العيش عيشُ الآخرة، لم تعد نظراتُهم تهزّني؛ كلّما ازدادت سخريتُهم ازددتُ عزّة».

قرأتُ رسالتها، فابتسمت وقلت في نفسي: سبحان مقلب القلوب؛ ما كان بالأمس خوفًا صار اليوم سكينةً ويقينًا.

❑ ثمار الصبر

انتهت الأشهر الثلاثة، وعادت فطومة من سفرها.

لم تكن تلك عودةً عادية لفتاة قضت إجازة سياحية مع أهلها، بل كانت عودةً مغايرة؛ كأنها رجعت من مدرسة خفية غيّرت معالم قلبها، وأعادت تشكيل روحها.

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٤١٤)

رأيتها بعد الغياب، فإذا بملامحها تحمل شيئًا جديدًا: مزيجًا من السكينة والوقار. لم تكن الابتسامة وحدها هي التي تغيّرت، بل النظرة أيضًا، نظرة من ذاق شيئًا من مرارة الابتلاء، ثم تذوق بعدها حلاوة اليقين.

رجعت وهي تحمل في قلبها أثر الصبر.

لم تعد تلك الفتاة التي كانت تنهار من كلمة أو نظرة، صارت تُلقي دروسًا في الثبات.

كتبت لي تقول:

« كنتُ أظن أن الحجاب يُثقِلني، فإذا به يرفعني، ظننته حاجزًا بيني وبين الناس، فإذا به جسرٌ بيني وبين الله، كلما ازدادت نظراتهم، ازددتُ يقينًا أنني أسير في طريقٍ يرضاه».

بعدها بأيام أرسلت تقول:

«دكتورة، أشعر أن النقاب لم يعد مجرد ستر؛

❐ بل صار حياتي كلها!

أغلى من كل ما كنت أراه زينة، كنت أظنه عبئًا، فإذا هو عزّي، وكنت أراه ثِقلاً، فإذا هو هويتي».

لقد تركت فطومة شيئًا من زينة الدنيا، فعوّضها الله نورًا في وجهها، وقبولًا في قلوب من حولها، وطمأنينة تسري في كيانها.

تذكّرتُ قول الله تعالى: ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌۚ﴾[1]، خيرٌ، لا يُشبهه لباس، ولا يبلَى بمرور الأيام.

لقد صار الحجاب في نظرها لا ثِقلًا ولا عادةً، بل **عهدًا مع الله**، تُجدّده كل يوم.

❐ كأنها جناحُ طائرٍ

وفي يومٍ هادئ فتحت هاتفي وإذ برسالة صوتية سمعتها تقول:

«دكتورة كنتُ أسير في الطريق، والريح تحرّك عباءتي، فأحسستُ كأنها جناحُ طائرٍ يرفعني إلى السماء. لم أعد أرى نفسي غريبة، بل أراهم هم الغرباء عن طريق الله. أصبحتُ أمشي بين الناس، وقلبي يقول في كل خطوة: الحمد لله الذي هداني لهذا، وما كنتُ لأهتدي لولا أن هداني الله».

سمعت رسالتها، فغمرني شعورٌ عميقٌ بالسكينة، كأن الله يقول لي من خلالها:

ها قد أتممتُ نعمتي على عبدي، وثبّته بعد خوف، ورفعتُه بعد انكسار.

فقلت في نفسي وأنا أغلق الرسالة:

(١) سورة الأعراف: ٢٦

أيُّ جمالٍ هذا الذي يكسوه الستر؟ وأيُّ عزةٍ تلك التي يمنحها الله لمن خضع له؟

• **ومضة:**

ما بين السفر والعودة، تعلّمت أن الطريق إلى الله قد يبدأ بالصعوبة، لكنه ينتهي بالطمأنينة، وأن الغربة مهما طالت، فهي أيام تمضي، ويبقى الأجر ما بقيت السماوات والأرض.

كنتُ أظن أنني أنا من أُثبّت طالباتي، وأشد على أيديهن، وأعلّمهن معاني الصبر واليقين، لكن مع قصة فطومة أدركت أن الله يجعل التثبيت تبادلاً، وأن في كل طالبة قد يزرع الله درسًا لمعلماتها.

لقد علّمتني فطومة أن الطاعة ليست مجرد التزام شكلي، بل هي معركة يومية مع النفس والناس، وأن النصر فيها لا يُقاس بعدد المؤيدين من حولك، بل بطمأنينة القلب حين تختار الله.

لقد صارت فطومة في قلبي كأنها مرآة صافية؛ أرى فيها ضعف نفسي حين أتراخى، وأرى فيها عظمة ستر الله حين يثبّت عباده.

صارت قصتها عندي حجّة ناطقة: أن الحجاب ليس عادة ولا ثوبًا، بل هو عقيدة وصبر وهوية.

حين أطوي أوراق هذه الحكاية، لا أجدني أسرد قصة طالبةٍ عابرة، بل أسطر سيرة قلبٍ صغيرٍ مرّ في شهور قليلة بما يمرّ به غيره في سنوات؛ فالغربة لم تكن أرضًا فقط، بل كانت امتحانًا يختبر معدنها في كل خطوة ومجلس ونظرة.

أول الطريق كان خوفًا واضطرابًا، ثم تحوّل مع الصبر إلى عزّةٍ وثقة.

حين مشت أول مرة في الطرقات بنقابها، كادت خطواتها تتعثّر تحت ثقل النظرات، ثم ما لبثت أن رفعت رأسها تمشي كأنها تحمل تاجًا من نور.

وقفتُ أتأمل قصتها مرارًا، وأقول في نفسي: هذه الفتاة لم تُعط شهادةً في يدها، ولم يُصفق لها جمعٌ في قاعةٍ رسمية، لكنها خرجت من امتحان الغربة بأوسمةٍ على قلبها لا تُشترى ولا تُعطى؛ إنما هي تلك السكينة التي إذا نزلت في القلب صارت أغلى من كل تصفيق، وتلك العزة التي إذا رسخت لم يضرّها كثرة المستهزئين.

إنها قصة فطومتي، لكنها ليست عن فطومة وحدها. هي

مرآةٌ لكل فتاة تسير في طريق الطاعة، تُعاندها النظرات وتُثقلها كلمات الأهل، لكنها تقول لنفسها كل ليلة: إن صبرتُ اليوم، وجدتُ أثره غدًا، وتُدرك أنّ الهداية لا تُمنح دفعةً واحدة، بل تُروى بدموعٍ في ليلة، وصمتٍ في مجلس، وابتسامةٍ واثقةٍ في شارع.

قلت في نفسي، وأنا أطوي رسائلها: سبحان من يُبدل الخوف أمنًا، والابتلاء عزًّا، والدمعة نورًا. وما أعظم أن يخرج المرء من الغربة بزادٍ يبلّغه إلى الآخرة. حقًا، «**إن العيش عيش الآخرة**»[(١)].



(١) عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «**خرج رسول الله إلى الخندق، فإذا المهاجرون والأنصار يحفرون في غداة باردة، فلم يكن لهم عبيد يعملون ذلك لهم، فلما رأى ما بهم من النصب والجوع قال: اللهم إن العيش عيش الآخرة، فاغفر للأنصار والمهاجرة، فقالوا مجيبين له: نحن الذين بايعوا محمدا على الجهاد ما بقينا أبدا**»، رواه البخاري (٤٠٩٩) ومسلم (١٨٠٥).

رحلة البحث عن السعادة



كان صباح الجامعة مختلفًا، والنسيم المتسلل من بين نوافذ القاعات يلامس وجوه الطالبات في الممر الطويل المؤدي إلى فصول المحاضرات.

المكان مزدحمٌ كعادته، لكن ازدحام اليوم بدا لي وكأنه لوحة مرسومة بعناية؛ خطوات سريعة متعاقبة، ضحكات خافتة تتناثر هنا وهناك، أصوات دفاتر تُصفق مع إغلاقها في أيدي الطالبات، ووشوشات متقطعة لا يكاد المرء يميز معانيها من شدة تداخلها.

وقفتُ بجانب إحدى الزميلات من عضوات هيئة التدريس، نتبادل حديثًا عابرًا عن محاضرة الأمس وما أثارته من نقاش بين الطالبات، غير أن عقلي كان يتجاوز الكلمات، ليلتقط ما حولي من مشاهد.

كانت الشمس ترسل خيوطها الذهبية من النوافذ العالية الممتدة على طول الممر، فترسم خطوطًا مضيئة على الأرضية الرخامية، أشبه ما تكون بسطور كُتبت لتوها بمداد النور، وكأنها تهيئ المكان ليشهد قصة جديدة من قصص الحياة.

تأملت الطالبات وهنّ يعبرن الممر؛ هذه تمسك كتبها متعجلة كأنها تطارد حلمًا، وتلك تضحك بخفة مع زميلتها، وثالثة تمشي مطأطئة الرأس غارقة في أفكارها.

الممر ليس مجرد طريق للعبور، بل هو مسرح يومي للأرواح، يختزن الحكايات الصغيرة والكبيرة، ويُخفي خلف صخبه أسرارًا أعمق مما تبدو على السطح.

في تلك اللحظة، كان قلبي يردد آية طالما وقفت عندها: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [١].

قلت في نفسي: ما من حركة هنا، ولا كلمة، ولا نظرة، إلا والله مطّلع عليها، يعلم ما في الصدور، عنده علم كل شيء، ما كان وما سيكون، وما هو كائن مما لم يكن!

وبينما أنا مستغرقة في هذا الجو الممزوج بين الضجيج الخارجي والصمت الداخلي،

تقدمت نحونا فتاة لم تكن ملامحها عابرة؛

كان في عينيها بريق قلق يوشك أن يفصح عن نفسه، وفي خطواتها ارتباك يفضح حيرة دفينة.

---

(١) سورة الأنعام: ٥٩

لم تكن كسائر الطالبات اللاتي يسرن بخطوات رتيبة نحو قاعاتهن؛

بل بدت وكأنها تحمل في صدرها سؤالًا أكبر من حجم اليوم الدراسي المعتاد.

انتظرت لحظة حتى انتهيت من حديثي مع زميلتي؛ لكنني وجدتني أنظر إليها قبل أن تتكلم، كأن قلبي سبق سمعي.

كان في وجهها شيء يجذب الانتباه: خليط من حياء واضح، وجرأة مترددة، وانكسار يبحث عن مخرج.

رفَعَت بصرها إليّ أخيرًا، ثم قالت بصوت خافت متردد: لو سمحتِ ممكن تدليني على قاعة للاستماع؟

سكتُّ لحظة.

ترددت الكلمة في ذهني: قاعة للاستماع! ما معنى هذا؟

أي استماع تقصد؟ كانت عبارتها غامضة، لكنها محمّلة بشيء أكبر من ظاهرها.

❑ نور في عينيها

تأملت ملامحها أكثر، كأنني أبحث في عينيها عن المفتاح الذي يوضح مقصدها.

سألتها بلطف:

قاعة للاستماع؟ عفواً أي استماع تقصدين؟

خفضت رأسها قليلًا، وكأنها تبحث عن شجاعة ضاعت منها للحظة.

ثم رفعت نظرها بسرعة، وفي ملامحها خوف أن تفقد ما تبقى من عزيمة.

قالت بصوتٍ متقطعٍ يحمل شيئًا من الارتباك:

«في رمضان حضرت درسًا إيمانيًا، ومن يومها قلبي يشتاق لذلك الشعور.

أحس أنني تائهة وأبحث عن مكان يعيد إليّ تلك الطمأنينة».

توقفت الكلمات في داخلي، وشعرت أن الممر بكل ضجيجه سكت في تلك اللحظة.

أي روح هذه التي تتكلم؟

فتاة نضِرَة القلب، تبحث عن شيء أعمق من الضحك والشكليات، عن نور يملأ روحها بالسكينة.

تبحث عن شعور السعادة الذي لامس قلبها في مجلس

الذكر فعلاً «**هم الجلساء لا يشقى بهم جليسهم**[(١)]»

تذكرت قول بعض السلف «إننا في سعادة لو علم بها الملوك لجالدونا عليها بالسيوف»![(٢)] ،

تذكرت قوله ﷺ - «**أرحنا بها**»[(٣)] أي أذن يا بلال بالصلاة، نسترح بأذانها!

شعرت أن سؤالها لم يكن مجرد استفسار عن مكان، بل كان صرخة قلب يطلب النجاة، قلب يبحث عن السعادة؛ عن الراحة بقرب الرحمن.

ابتسمتُ، وقلت لها بصوت يملؤه الحنان:

معك دكتورة آلاء، ما رأيك تصحبيني لقاعة الدرس

بدت الدهشة على وجهها، واحمرّت وجنتاها خجلًا وهي تقول:

دكتورة؟! آسفة لم أكن أعرف أنك دكتورة!

ابتسمت ثانية وقلت:

نعم دكتورة، ما رأيك أن تحضري معنا المحاضرة؟

---

(١) أخرجه البخاري (٦٤٠٨)

(٢) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٧/ ٣٧١).

(٣) أخرجه أبو داود (٤٩٨٥)، وابن أبي شيبة في «مسنده» (٩٤٠)

ستجدين قلوبنا أوسع من الجدران

ارتسم نور في عينيها، كان أشبه بوميض فجائي في غرفة مظلمة.

شعرتُ أنها لم تسمع كلماتي بقدر ما شعرت بروح تتلقاها.

سرنا معًا خطوات قليلة، والفتاة تمشي إلى جواري بصمت، لم تنطق بشيء، لكن ملامحها كانت تتكلم بلغة واضحة: أحتاج هذا اللقاء، لا تتركيني!

فعلا الحياة بدون الله جافّة المعنى؛ خطوات متعثّرة، وأنفاس متعبة، وروح تائهة في زحام الدنيا، لا سكينة فيها ولا قرار، يظلّ القلب عطِشًا مهما ارتوى، حتى يعود إلى ربّه الذي خلقه، وأعلمُ بما يملأ فراغه ويؤنس وحشته.

كنت أستمع لخطواتها بجانبي كأنها تطرق باب قلبي.

كل خطوة تحمل رسالة: أن قلوب الشباب مهما ابتعدت، فإنها تعود تبحث عن الله، تعود تبحث عن السكينة التي لا يمنحها شيء من زخارف الدنيا.

حين دخلنا القاعة، جلست بين الطالبات، ورغم أنها لم تكن تعرف إحداهن، إلا أني رأيت في عينيها نظرة غريبٍ وجد أخيرًا أهله.

كانت تحاول أن تندمج في الجو بهدوء، لكن يديها المتشابكتين في حجرها كانت تفضحان اضطرابها الداخلي ورغبتها في التشبث بتلك اللحظة.

تقدمتُ إلى المنصة، ونظرت إلى وجوه الطالبات.

لحظة سكون انتشرت في القاعة، وكأن النفوس كلها على موعد مع حديث القلب للقلب.

❐ في قلب الفصل

من أمام الطالبات بدأت حديثي بنبرة هادئة، أردت أن يتسلل المعنى إلى القلوب قبل أن يمر على الأسماع:

يا بناتي، الأنس بالله هو سرّ السعادة، وهو كنز القلوب الذي لا يزول. كثيرون يظنون أن السعادة في جمع المال، أو في بلوغ منصب، أو في اقتناء ما تشتهيه الأنفس، لكن الحقيقة أن السعادة لا تُشترى ولا تُكتسب من الخارج، إنها تُغرس في القلب حين يقترب من الله.

كان الصمت يملأ القاعة، حتى أنني كنت أسمع أنفاس الطالبات المتتابعة.

رفعت بصري قليلًا وكأنني أستحضر من معين التاريخ، ثم وقفت مع ما قاله شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ حين واجه

خصومه وأعداءه: «ما يصنع أعدائي بي؟ أنا جنتي وبستاني في صدري، إن رحت فهي معي لا تفارقني؛ إن حبسي خلوة، وقتلي شهادة، وإخراجي من بلدي سياحة».[1]

رأيت في عيون الطالبات دهشة وإعجابًا، وخصوصًا تلك الفتاة الجالسة في الصف الأوسط، كأن الكلمات أصابت موضع الجرح في قلبها.

ابتسمت وأردفت: بل انظروا إلى ما قاله بعض الصالحين: «وإنه لتمرّ بي أوقات أقول: إن كان أهل الجنة في مثل هذا، إنهم والله لفي عيش طيب!».

ثم استرسلت أشرح:

السعادة هي تلك الجنة التي ينشدها كل الناس، غير أن القليل منهم يُوفَّق إلى سلوك طريقها الحق، بينما يضلّ أكثرهم في طلبها حيث لا تُوجد، فيزداد شقاءً إلى شقائه، يظنّ كثير من الناس أن السعادة في الغنى والمال، غير أنّا رأينا أغنياء يعيشون في فراغٍ روحيّ قاتل، ويظن آخرون أنها في كثرة الأولاد، الذين هم زينة الحياة الدنيا، ولكننا وجدنا كثيرًا

(١) الوابل الصيب، دار الحديث (ص٤٨)

منهم يشقى بأبنائه أكثر مما يسعد بهم.

ويحسب بعضهم أن السعادة في الشهرة أو الجاه أو المناصب العالية، لكنّ العجب أن كثيرًا من أصحابها ماتوا يائسين أو منتحرين!

فأين السعادة إذن، إن لم تكن في وفرة المال، ولا في كثرة الأولاد، ولا في سطوة الجاه؟

كما يقول بعض العلماء السعادة قيمة معنوية لا تُرى بالعين، ولا تُقاس بالمقدار، ولا تُشترى بثمن، هي سكينةٌ تسكن القلب، وصفاءُ نفسٍ، وانشراحُ صدرٍ، وراحةُ ضمير.

وهذا كله تجده في الإيمان الصادق بالله تعالى، وفي ذكره ومراقبته، والعمل الصالح ابتغاء وجهه، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ٢٨﴾[1].

وقال: ﴿مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗۖ﴾[2].

---

(١) سورة الرعد: ٢٨

(٢) سورة النحل: ٩٧

الحياة الطيبة يا بناتي ليست في زخارف الدنيا، ولا في المآكل والمشارب، ولا في الأموال والمناصب، إنما هي سعادة القلب بربّه، وفرحه بطاعته، وأنسه بقربه.

فإذا تنعّم بالرضا والطمأنينة، تبعه الجسد كله في ذلك. حينها **يذوق الإنسان راحة لا تعدلها راحة، وسعادة لا تضاهيها سعادة.**

أحسست أن القاعة امتلأت بنور داخلي، لم يكن نورًا يُرى بالعين، لكنه كان يُحسّ بالروح.

وجوه الطالبات أشرقت، وبعضهن غاب في تأمل عميق.

تقدمت بخطوة وسألت الفتاة التي جاءتني في الممر:

أخبريني يا ابنتي ماذا وجدت في قلبك يوم حضرت درس رمضان؟

ارتبَكَت قليلًا، ثم رفعت رأسها وعيناها تلمعان بالدموع، وقالت بصوتٍ مبحوحٍ ممزوجٍ بالصدق:

«شعور عجيب يا دكتورة، صعب أصفه أحسست وكأن قلبي امتلأ بالنور والسعادة، وكأن صدري اتسع بعد ضيق طويل».

تأثرت بكلماتها حتى شعرت أن القاعة بأسرها تحبس أنفاسها لتسمع.

ابتسمت لها وقلت:

أسأل الله أن يرزقك الأنس به، وأن تجدي في قلبك مؤنسًا لا يغيب، وأن يكون بينك وبين ربك حديث لا يقطعه ضجيج، وأن تذوقي في سجدة قصيرة راحة لا يمنحها سفر طويل، وأن تجدي في آية واحدة حياة لا تهبها الدنيا كلها.

لم أكن وحدي من تأثر، بل رأيت الطالبات يرمقنها بنظرات ملؤها المودة والدعاء. وكأن القلوب تآلفت فجأة، وذابت الحواجز.

أكملتُ موجّهة الكلام للجميع:

السعادة التي تبحث عنها ضيفتنا ليست بعيدة، بل هي أقرب من أنفاسنا.

كلما أسرعنا في الاستجابة لله، وجدنا السعادة تتدفق في قلوبنا، حين نسمع الأذان فنسارع إلى الصلاة، حين تضيق صدورنا فنرفع أكفّنا بالدعاء، حين تمرّ بنا آية فنقف عندها، هنا تبدأ أبواب الطمأنينة.

كانت الفتاة تُمسك بيديها معًا بشدة، كأنها تريد أن تحفظ هذه اللحظة في ذاكرتها، والطالبات أنصتن بتركيز نادرًا ما

رأيته من قبل.

رفعت الفتاة رأسها بعد أن انهمرت كلمات الطمأنينة في القاعة، وقالت بصوت لا يخلو من اندهاش:

دكتورة كنت أبحث عن هذا الشعور منذ رمضان. حتى أنني ظننت أنه شعور خاص بالشهر المبارك، لا يمكن أن يتكرر بعده!

ابتسمتُ وقلت:

رب رمضان هو رب سائر الشهور والأيام. الله تعالى يقول:

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ﴾ [١].

القرب ليس وعدًا مؤجَّلًا، بل هو استجابة عاجلة.

إذا صدق القلب في الدعاء، غمرته رحمة أرحم الراحمين؛ فلا تؤجلي طاعتك، ولا تؤخري توبتك، ولا تنتظري موسمًا آخر، فإن الله قريب في كل حين.

سكتت الفتاة لحظة، ثم قالت والدموع تترقرق في عينيها:

وقالت بعاميتها البسيطة: «الحمد لله دكتورة والله وايد علي!» تتعجب من كرم أكرم الأكرمين!

---

(١) سورة البقرة: ١٨٦

قالت:

جئت أبحث عن قاعة، فوجدت سعادتي، وجدت أخواتي في الله، ودللت دربي.

في تلك اللحظة، ارتفعت همهمات الطالبات، لكن همهمات مفعمة بالمحبة والامتنان.

التففن حولها يُشجعنها ويشكرنها، ويعبّرن لها عن حبهن وسعادتهن بوجودها.

كان المشهد أشبه بحديقة أرواح اجتمعت على طاعة الله، لا على مقاعد خشبية فحسب.

خرجت الفتاة من القاعة بخطوات مختلفة تمامًا عن خطواتها الأولى.

دخلت قلقة مرتعشة، وخرجت مرفوعة الرأس، وكأنها تحمل كنزًا خفيًا لا يراه غيرها.

كانت تحمل قلبًا جديدًا، قلبًا امتلأ بمعنى لم تعرفه من قبل: أن السعادة لا تُلتقط من الخارج، بل تُزرع في الداخل حين يجد المرء أنسه بالله.

أما الطالبات الأخريات، فقد بقيت كلماتها وكلامنا جميعًا يتردد في القاعة كأصداء لا تنطفئ. بعضهن نظر إلى

الأخرى بعين جديدة، وبعضهن أطرق رأسه وكأنه يعاهد الله على بداية صادقة، وبعضهن ربما أخفى دمعة تسللت بلا استئذان.

أما أنا، فبقيت وحدي بعد انصراف الجميع أتأمل في خلوتي:

«ما أعظم فضل الله، يرسل إلينا من خلال أبسط المواقف رسائل عظيمة!

- **ومضة:**

كم من مرة نظن أننا مَن يُعلّم طلابنا، فإذا بنا نتعلم منهم دروسًا لا تنسى».

تعلمت أن السعادة ليست في قاعة ولا جدران، بل في قلب وجد أنسه بالله.

وأن من يصدق في طلب الطمأنينة، يسوق الله له سبيلها من حيث لا يحتسب.

تعلمت أن السكينة لا تُنال بزخارف الدنيا ولا بصخبها؛ بل بطاعة الله وحده، فجنة المؤمن في صدره، وأنواره بين دعاءٍ صادقٍ وخطوةٍ إلى الله.

خرجت من القاعة بعد ذلك وأنا أتمتم بدعاء في داخلي:

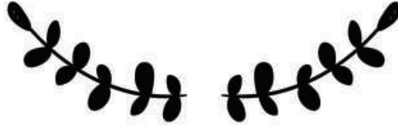
«اللهم اجعل قلوب طالباتي عامرة بذكرك، وارزقهن لذة الأنس بك، ولا تحرمهن نور الطاعة، ولا تتركهن لطريق يبعدهن عنك».

ومضيت في الممر نفسه الذي شهد اللقاء الأول، لكن الممر لم يعد كما كان؛ لقد أصبح في عينيّ طريقًا منيرًا، يذكّرني أن كل لحظة في الجامعة ليست مجرد تدريس أو شرح، بل هي فرصة لبناء جيل يذوق معنى القرب من الله، ويبحث عن سعادته الحقيقية في أنسه بربه.





طالبة من نور!



في زحمة الوجوه التي تمرّ بنا كل يوم، تظهر أحيانًا روحٌ مختلفة، لا تُعرف بكثرة الكلام، بل بسكونها العجيب، كأنّ الله اختصّها بنورٍ لا يُرى، لكنه يُحَسّ.

❐ في القاعة

لم تكن سارة أول طالبة تدخل القاعة؛ لكنّها كانت أول من شدّ انتباهي دون أن تنطق بكلمة.

كانت خطواتها واثقة رغم عصاها البيضاء التي تستند إليها بخفة، كأنها لا تحتاج إليها إلا رمزًا، لا عونًا.

جلَست في الصف الثالث إلى جهة اليمين، وضعت دفترها بلغة برايل على الطاولة أمامها، وأسندت عصاها إلى جانب المقعد في هدوء.

لم يكن الذي يلفتني في سارة شكلها الخارجي، ولا خصوصية حالها، بل ذلك السكون المهيب الذي يلفها.

سكون كله وقار، كأنها تحمل في داخلها عالَمًا أكبر من هذه القاعة الصغيرة.

كنت أراقبها خلسة كل مرة تدخل فيها.

لا تتعجل الحديث مع زميلاتها كما تفعل الأخريات، ولا تنشغل بما يملأ قلوب الطالبات عادة من تفاصيل الدنيا، كانت دائمًا منشغلة بشيء آخر شيء أسمى.

أحيانًا تضع سماعتها الصغيرة في أذنها، فتُحرك شفتيها في ترديد آيات تحفظها.

وأحيانًا تتحسس دفترها بأصابع مرتجفة كأنها تقرأ من كتاب مفتوح في قلبها قبل أن يكون بين يديها.

كان لها حضور خاص، لا يُشبه أحدًا.

مرحة حين تضحك، لكنها ليست خفيفة هزل؛ بل خفيفة الروح، ضحكتها نقية، تدخل القلب دون استئذان.

كنتُ أرى الطالبات إذا جلست سارة بينهن كأن الطمأنينة نزلت عليهن معها.

إن حضرَتْ القاعة بدت أوسع، وإن غابت أحسست أن شيئًا كبيرًا ينقص الجو.

أحسب أنها مباركة أينما حلّت؛ تعلّم هذه، وتخدم أخرى، وتنفّس عن ثالثة، وكأنها قطعة رحمة تمشي بين أروقة الجامعة.

كانت سارة مستودع أسرار كثير من الطالبات، يأتين إليها ليبحن بما يثقل صدورهن، فلا ترد إحداهن إلا بابتسامة مطمئنة، وكلمة دعاء، ووعد بالستر.

كم من زلة سترتها! وكم من خطأ غطّته! لم تكن عيناها تبصر، لكن قلبها كان يبصر بعمق ما يغيب عن الآخرين.

وأنا كذلك استفدت منها الكثير دون أن تدري؛ تعلّمت منها الصبر، تعلّمت الرضا، تعلّمت كيف يكون الإيمان حيًّا في حياة فتاة شابة فقدت نعمة البصر، لكنها لم تفقد نور البصيرة.

كلما جلست في زاوية القاعة في وقت الاستراحة، كنت أراها تضع سماعتها، وتردد الآيات بصوت خافت، كأنها لا تكلّم نفسها ولا الطالبات، بل كأنها تُناجي السماء.

سألتها ذات مرة:

سارة، هل تحفظين كتاب الله كاملًا؟

فأجابتني بابتسامة كلها سكينة:

أوشكت على ختمه، وأرجو أن يختم الله لي به حياتي.

يا الله! كم زلزلت قلبي هذه الكلمات.

كم من طالبة تبصر المصحف بعينيها، لكنها لا تفتحه إلا قليلًا، بينما هذه الفتاة العمياء جعلت من القرآن حياة كاملة تسكنها ويسكنها.

سارة كانت تعرف حقيقة الدنيا، تعيشها كما لو أنها ضيفة خفيفة الظل، لا تُثقل المكان ولا تُطيل المكث.

كانت تمشي بين زميلاتها كمن يذكّرهن بلطف أن الآخرة قريبة، وأن الدنيا مهما طالت قصيرة.

❐ جميل الأثر

لم تكن سارة مجرد طالبة تجلس في مقعد من مقاعد القاعة؛ كانت روحًا مميّزة، كأنها شعاع ضوء يتنقل بيننا، كل من عرفها لمس في شخصيتها شيئًا مختلفًا: لم تكن مشغولة بترف، ولا متلهفة وراء دنيا، بل كانت منشغلة دومًا بما يرفعها إلى السماء.

حين تضحك، يضحك معها المكان كله.

لم تكن ضحكتها عالية، ولا مثيرة للانتباه، لكنها ضحكة صافية نقية، تدخل القلب وتترك فيه طمأنينة لا توصف.

كنتُ أشعر أن في روحها خفة تجعل من يجلس بجوارها ينسى همومه، كأنها تملك سرًّا خفيًا يُنزل السكينة على من حولها.

كانت تزرع الأنس حيثما حلت.

إن سمِعَت بطالبة منكسرة عزّتها، أو أخرى في حيرة دلّتها، وإن شعرت بواحدة حزينة كانت تبادرها بكلمة دعاء أو تلمس كتفها لمسة حانية، لم تكن تنشغل بنفسها بقدر ما كانت تنشغل بغيرها،

حتى صرن زميلاتها يثقن بها ثقة لا يضعنها في أحد غيرها.

كانت بالفعل مستودع أسرارهن.

إحدى الطالبات أخبرتني يومًا: «دكتورة، إن كان لي أن أفضي بسرّ أثقلني، فلن أجد غير سارة». سألتها: لماذا سارة بالذات؟

قالت:

«لأنها تسمع بقلبها، تحفظ السرّ، ولا تكتفي بالصمت، بل تدعو لي، وأحيانًا تنصحني بكلمة واحدة تغيّر حياتي».

كم من خطأ سترته سارة على زميلاتها، وكم من زلة أخفتها!

لم تكن تتعامل معهن كناصحة متعالية؛ بل كأخت صادقة، تخاف عليهن مما تخاف على نفسها.

أما أنا، فقد وجدت في سارة مدرسة كاملة، وإن لم تكن تدري.

تعلّمت منها كيف يكون الصبر سلوكًا لا كلمات.

كثيرًا ما كنت أراها تتحسس طريقها بعصاها البيضاء، ومع ذلك تمضي بخطوات واثقة، كأنها تقول: «يكفيني أن الله يراني، ولو حجبت الدنيا عن عينيّ».

تعلّمت منها الرضا، ذلك الرضا العجيب الذي يجعلها تبتسم في وجه البلاء.

كم من مرة رأيتها تجلس وحدها، تضع سماعتها في أذنها وتردد الآيات بخشوع، ثم ترفع رأسها والسكينة تغمر وجهها.

كنتُ أتمتم في نفسي:

«يا رب، من أين لها بكل هذا الرضا؟»

أما العيش مع القرآن، فكان شعارها في حياتها. لم تكن تقدم على حفظ القرآن شيء،

كانت تحفظ القرآن لتحيا به، لا لأجل درجات أو اختبارات.

كانت تقول:

«القرآن موطني، إن ابتعدتُ عنه شعرتُ بالغربة، وإن عدتُ إليه أحسستُ أني عدتُ إلى رحمة الله التي لا تضيق».

كأنها أدركت أن السكن في ظلال القرآن أوسع من سكن البيوت، وأن الأنس بآياته أدفأ من أنس الأهل والأوطان.

فكانت كلما قرأت، ازداد قلبها يقينًا بأن الحياة الحقيقية ليست حيث يُقام الجسد، بل حيث يطمئن القلب بذكر الله.

كل استراحة في القاعة كانت تتحول معها إلى جلسة روحانية.

تضع سماعتها وتردد بصوت خافت بعض الآيات، فيسري صوتها في أرجاء المكان كنسيم لطيف. لم تكن تقرأ لنا، لكنها كانت تقرأ لنفسها، ومع ذلك كنا جميعًا نشعر أننا نستمع.

كنتُ أرمقها بين الحين والآخر، لا تحدّثني كثيرًا، ولكن كلّ سكونٍ منها كان نطقًا، وكلّ نظرةٍ كانت موعظة.

تعلّمت منها أن من عاش مع الله لا يضيق قلبه وإن ضاقت به الدنيا، وأن من أَنِسَ بالقرآن لم يَبْقَ له وحشةٌ مع الخلق.

كانت تجسّد معنى العبودية في أرقى صورها؛ تَفرح بالطاعة كمن وُهب الدنيا وما فيها، وتبكي في التلاوة كأنها تُبعث من جديد.

فعرفتُ أن القرب من الله ليس فكرةً تُقال، بل حالٌ يُعاش، وأن القرآن ليس كتابًا يُقرأ فحسب، بل طريقًا يُسلك إليه سبحانه.

❒ على غير عادتها

كان يومًا دراسيًّا عاديًّا، الشمس تسير في فلكها، والقاعة مكتظّةٌ كعادتها، والطالبات منهمكات في دفاترهن؛ لكنّ شيئًا في ذلك اليوم لم يكن عاديًا بالنسبة لي؛ فقد دخلت سارة متأخرة.

لم أعتد منها ذلك قط.

كانت دائمًا أول من يصل، تستقر في مقعدها المخصص قبل أن تبدأ الضوضاء، كأنها تحب أن تسبق العالم بخطوة.

أما اليوم، فقد خطت إلى القاعة ببطء، وجلست في مقعدها بصمت ثقيل.

نظَرتُ إليها.

لم تفتح دفترها بلغة برايل كما اعتادت.

لم تضع سماعتها الصغيرة التي لا تفارقها عادة.

لم تتحسس عصاها كأنها تؤنسها.

بدت ساكنة، لكن ليس سكون الطمأنينة الذي نعرفه عنها، بل سكونًا يثقل الروح، سكونًا يشي بأن قلبها مثقل بشيء عظيم.

لم أعلِّق أمام الطالبات.

واصلتُ المحاضرة، لكن عيني بين الحين والآخر كانت تسرق النظر إليها.

كانت تجلس مطرقة الرأس، وكأنها غارقة في بحر لا يُرى.

بعد انتهاء المحاضرة، وجدتني لا أستطيع مغادرة القاعة دون أن أعرف ما بها.

تقدّمت وجلست إلى جوارها بخطواتٍ هادئةٍ متردّدة، أخشى أن ألامس حزنها بكلمةٍ فتزيد جراحها عمقًا.

شَعَرَتْ بي قبل أن أنطق، كأن قلبها يسمع قبل أذنها، وكأنّ الله وهبها من صفاء الإدراك ما يُبصر به من حُجب عنه البصر.

كان سمعُها وإدراكها للأشياء يلفتان القلب قبل النظر؛ تسمع ما لا يُقال، وتفهم ما يعجز عن إدراكه كثيرٌ من المبصرين.

عندها فهمتُ أن الله لا يأخذ ليحرم، بل ليطهّر، ولا يبتلي ليكسر، بل ليهدي؛ فإذا سلب نعمة الجسد، عوّضها بنعمة الروح، وإذا أخذ من العين ضياءها، جعل في القلب ضوءًا لا ينطفئ. وضعت يدي على يدها وسألتها برفق:

سارة، ما بالك اليوم؟ لم أركِ هكذا من قبل.

رفعت رأسها قليلًا، ثم أمالته نحوي، وكأنها لا تريد أن يسمع أحد غيري.

همست بصوت مرتجف:

دكتورة اشتقتُ للقاء الله.

❐ توقفت اللحظة

جمدت اللحظة، وسكت كلُّ صوتٍ في القاعة إلا صدى كلماتها وهي تخترق القلب.

شعرت أن قلبي هو الذي ارتجف، لا صوتها. ما أعظم ما قالت!

لم تقل إنها حزينة على دنيا فاتتها، أو على نعمة افتقدتها، بل قالت إنها تشتاق إلى اللقاء مع الله.

سرحت بعيداً في قول رسول الله ﷺ: «**من أحبَّ لقاءَ الله أحبَّ اللهُ لقاءَه، ومن كره لقاءَ الله كره الله لقاءَه**»[١].

لم يكن في نبرتها حزنُ فاقد، ولا أنينُ متألّم، بل أنسُ مؤمنٍ ذاق حلاوة الرضا.

---

(١) أخرجه البخاري (٦٥٠٧)

كانت كلماتها صافيةً كأنها خرجت من قلبٍ رأى ما وعد الله به الصادقين.

اقتربت منها أكثر وهمست في أذنها:

سارة، كيف بكِ غدًا وأنت واقفة بين يدي الله، ويُؤذن لك بالدخول، فتدخلين الجنة؟

أغمضت عينيها، وارتسمت على محياها ابتسامة خفيفة، كأنها ترى ما لا يُرى.

فأكملتُ بصوت تغلبه العبرة:

«أتدرين يا سارة أن المؤمن إذا حضره الموت، بُشّر برحمة الله ورضوانه، فليس شيء أحبَّ إليه من أن يلقى الله، فأحب اللهُ لقاءَه»[1]، يا الله أتدركين معنى أن تشهد القلوب بعضَ بشائر الآخرة قبل أن تفارق الدنيا!

بعض الأرواح يا سارة تُهيَّأ بلُطف الله قبل رحيلها، فتسكن إلى وعده، وتطمئن إلى لقائه، وكأنها تعرف الطريق قبل أن تُدعَى إليه.

فابتَسَمَت ابتسامة وادعة وقالت:

اللهم اجعلنا منهم

---

(١) كما في الحديث الذي أخرجه مسلم (٢٦٨٤)

أكملتُ:

ثم الثواب الجزيل، والدار الأبدية التي أعدها الله تعالى لأوليائه المتقين،

نعيم كامل لا يشوبُه نقصٌ ولا يعكِّر صفوَه كَدَرٌ؛ يقول تعالى: ﴿وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞۚ وَلَنِعۡمَ دَارُ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾[1].

مهما تكلَّم المتكلِّمون عقولنا لا تدرك ذلك، وأبصارنا لم ترَ مثل ذلك؛ ففي الحديث القدسي: «**أعددتُ لعبادي الصالحين ما لا عينٌ رأت، ولا أذنٌ سمِعت، ولا خطَرَ على قلب بشر؛ فاقرؤوا إن شئتم: ﴿فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٞ مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٖ﴾**»[2].

ربنا الرحمن يعِدُنا ويُعِّدُ لنا، وهو الغني عنّا سبحانه!

لو كان في الجنة موت، لمات أهلها من شدّة فرحهم ببلوغها، أنهار تتدفق، قصور تلمع، أصوات تسبيح تملأ الأرجاء

قاطع سكون اللحظة صوت تسبيحها.

قلت لها:

في الجنة لن تحتاجي إلى عصاك يا سارة، فإن الله يبدلكِ نورًا تمشين به.

---

(١) سورة النحل: ٣٠

(٢) سورة السجدة: ١٧

تبصرين في ذلك اليوم ما لم تبصريه في الدنيا، ستتفتح عيناكِ، وترين وجه أبيكِ وأمكِ، يبتسمان لك في سعادة لم ترَي مثلها قط، ترتمين في أحضانهما، وتقولين: الحمد لله الذي جمعني بكما بعد طول فراق.

انزلقت دمعة خفيفة على خدّها، لكن الابتسامة لم تفارق شفتيها.

رفعت رأسها وكأنها تنظر إليّ، فأكملت:

ثم ترفعين نظرك، فإذا بنور يغمرك من كل جانب هنا اللحظة التي انتظرتها حياتك كلها:

رؤية وجه الله الكريم.

تسجدين وتقولين: ربي، حرمتني النظر في الدنيا، فأكرمتني بأعظم نظر في الآخرة. الجنة يا سارة هي الدار الجامعة لكل نعيم، وأعلى ما فيها النظر إلى وجه الله: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾[1].

أمسكت يدها وقلتُ:

يا سارة، قال رسول الله ﷺ: «**من ابتُلي بحبيبتيه - يعني عينيه - فصبر، فله الجنة**»[2].

---

(١) سورة القيامة: ٢٢-٢٣

(٢) أخرجه البخاري (٥٦٥٣)

هنيئًا لك إن صبرت واحتسبتِ.

أردفت قائلة:

ثم الجنة يا سارة نعيم دائمٌ، نعيم لا يَبِيد ولا يفنى ولا ينقطع؛

نعيم مختلف عما في الدنيا من النعيم؛ نعيم دائم، لا خوف فيه، ولا ألم ولا سقم، وفي الحديث عن النبي ﷺ قال: «**ينادي منادٍ: إنَّ لكم أن تصِحُّوا فلا تَسْقموا أبدًا، وإن لكم أن تَحْيَوا فلا تموتوا أبدًا، وإن لكم أن تشِبُّوا فلا تَهْرَموا أبدًا، وإن لكم أن تنعَموا فلا تبْأَسُوا أبدًا**»[1]؛ فذلك قوله ﷻ: ﴿وَنُودُوٓاْ أَن تِلۡكُمُ ٱلۡجَنَّةُ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾[2].

نظرت إليّ بطمأنينة غامرة، وقالت بهدوء:

إن العيش عيش الآخرة.

كان وقع كلماتها كالماء البارد على قلبي.

فتاة صغيرة تنطق بحكمة لا ينطق بها إلا من عرف الله حق المعرفة.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٨٣٧)، والترمذي (٣٢٤٦)، وأحمد (١١٩٠٥) باختلاف يسير.

(٢) سورة الأعراف: ٤٣

❑ وغادرت سارة

انتهى الفصل الدراسي، وغادرت سارة الجامعة كما يغادر كل طالب بعد انتهاء عامه؛ لكنّها لم تغادر قلبي.

غابت سارة عن مقعدها، لكنها لم تغب عن أثرها.

كل طالبة عرفتها حملت شيئًا من وصاياها، وكل سرّ أؤتمنت عليه ما زال محفوظًا في القلوب.

تركت وراءها مقعدًا فارغًا في الصف الثالث إلى اليمين، لكنه لم يكن فارغًا حقًا؛ كان ممتلئًا بالذكريات، بالبصيرة، بالنور الذي لا يُطفأ.

كلما دخلت القاعة، التفتُّ لا شعوريًا إلى الزاوية التي اعتادت أن تجلس فيها.

أراها أمامي كما لو أنها ما زالت موجودة: دفتر برايل مفتوح، سماعتها الصغيرة، وعصاها البيضاء مسندة بجانب الكرسي.

أسمع في خيالي ترديدها للآيات بصوت خافت، فأشعر أن المكان يضيء، ولو كان المقعد خاليًا.

سارة فقدت بصرها، نعم، لكن أسأل الله أن يرفعها بنور البصيرة.

لم تُبصر الدنيا بعيونها، لكنها رأت بوضوح ما لم يره كثير من المبصرين.

• **ومضة:**

لقد علّمتني سارة أن النقص في الجسد لا يعني نقصًا في الروح، بل هو أحيانًا تمامها وصفاؤها، وأن من حُجب بصره قد فُتح له باب بصيرة لا تُرى.

كنت أقول في نفسي: إن العمى الحقيقي ليس بفقد البصر، بل بفقد البصيرة، فكم من مبصرين لا يرون النور لأنهم غفلوا عن ذكر الله، وكم من فاقدي البصر يعيشون في نورٍ لا يغيب لأنهم جعلوا القرآن والإيمان رفيق دربهم.

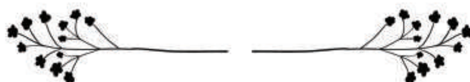
كم من مبصرين لا يرون النور لأنهم غفلوا عن ذكر الله! وكم من فاقدي البصر يعيشون في نور لا يغيب لأنهم جعلوا القرآن والإيمان رفيق دربهم!

تأملت حياتها فوجدت أن النور الحق لا يُستمد من الشمس، ولا من مصابيح الدنيا، بل من كتاب الله الذي يضيء القلب، ومن الإيمان الذي يُحيي الروح.

لقد كانت سارة مثالًا حيًا على أن الدنيا مهما عظمت فهي عابرة، وأن اللقاء الأعظم ليس في قاعات الجامعة ولا في مجالس الناس، بل عند الوقوف بين يدي الله، في اليوم الذي يُقال فيه: ﴿هَٰذَا يَوۡمُكُمُ ٱلَّذِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ﴾[1].

وهكذا علّمتني سارة أن البصر قد يُحجب، لكن البصيرة لا تُحجب إلا عن قلب أعرض عن الله. وأن السعادة ليست في أن ترى بعينيك، بل في أن ترى بنور الإيمان الذي يقذفه الله في قلب عبده.

وفي النهاية، تذكرت أن الدنيا وإن طالت دار ابتلاء، والآخرة هي دار القرار، حيث تزول الآلام، وتُرفع الحجب، وتبصر العيون أعظم مشهد: وجه الله الكريم.



(١) سورة الأنبياء: ١٠٣



رائحةٌ في الظلام



في زمنٍ صارت فيه المعاني تُغشى بالألوان، والجمال يُقاس بالمظهر لا بالجوهر، يبقى الحياء نفَسًا نادرًا، إذا فاح عطَره ملأ القلوب نورًا، لا الممرات عبيرًا.

❒ عطر نفاذ

كان المساء قد حلّ، وبدأت الممرات الجامعية تخلو شيئًا فشيئًا من ضجيج النهار.

انطفأت الأصوات العالية التي تملأ المكان عادة: ضحكات الطالبات، وقع أقدامهن السريعة، صرير الأبواب وهي تُفتح وتُغلق.

بقي الصمت سيدًا، لا يقطعه إلا خشخشة أوراقي وأنا أرتّبها بعد محاضرة طويلة، وجلوسي على الكرسي بضع دقائق أستعيد أنفاسي قبل المغادرة.

خرجت متأخرة كعادتي، وفي قلبي راحة عجيبة لتلك اللحظات الأخيرة من اليوم؛ لحظات أصفها بالـ«هدية»، إذ أكون فيها وحدي تقريبًا في الممر، أراجع أفكاري، وأتأمل

أثر ما ألقيتُه على الطالبات.

وفجأة هبّت رائحة قوية؛ عطر نفاذ يسبق صاحبته بخطوات، كأنه يريد أن يملأ المكان كله بإعلانه، لا أن يمر مرورًا عابرًا.

❐ بين غيرةِ الإيمان ورفق الدعوة

رأيتُها؛ إنها إحدى طالباتي التي كانت تجلس في القاعة قبل قليل! لم يكن في الأمر لبس.

كانت تمشي بخطوات واثقة، عيناها تلمعان بكبرياء ظاهر، وزينتها بادية للعيان.

لباسها مبالغ فيه لا يليق بجلال المكان، ولا بهيبة الجامعة التي نقف فيها على أبواب العلم.

شعرتُ للحظة أن كل الوقار الذي نسجته المحاضرة يمكن أن يتبعثر في لحظة أمام مبالغة في الزينة، وأمام أثر عطرٍ يسبق الجسد.

لم أنطق، لم أبادرها بكلمة، ظللت أمشي في صمت؛ ولكن قلبي لم يكن صامتًا؛ كان يتكلم، ويصرخ، بهدوء.

كانت معركةً بداخلي، بين غيرةِ الإيمان ورفق الدعوة؛ بين حِرص على صون الحياء، وخشية من أن يُقال ما يُغلق قلبًا

يحتاج إلى كلمةِ رحمة قبل عتابٍ أو لوم.

خشيت أن تخسر هذه الطالبة أكثر مما تَتَصور،

خشيت أن يكون الجمال الذي تفاخر به الآن سببًا في حجب نور أعظم يمكن أن يملأ قلبها لو صَدَقت وجهتها.

توقفت برهة عند باب الممر ثم مضيتُ في طريقي، ولسان حال قلبي:

«اللهم ألهمني كلمة لا تُحرجها، ولا تجرحها، واجعلني مفتاحًا لهدايتها، اللهم استعملني فيما يفتح لها باب النور بدل أن أغلق عليها باب الأمل».

وظلَّ عبير العطر يرافقني؛ خلفي وأمامي، كأنَّه يعاتبني برسالةٍ خفيّةٍ لا تحتمل التأجيل:

«لا تؤخّري النصح».

وفي داخلي قلتُ:

«لن أدع الموقف يمرّ دون كلمةٍ تُذكّر وتكون سببًا في الرحمة، لكن برفقٍ لا يُحرج ولا يفضح.

سأنتظر الغد، وأجعلها نصيحةً عامّة للطالبات، بلا أسماء، ولا إشارات، رجاء أن تصل إلى القلب دون أن تُؤذي

أحدًا، وترددت في قلبي الآية:

﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ﴾[1].

عدتُ إلى بيتي تلك الليلة، وصورتها لا تفارق خيالي؛ تمشي في ذاكرتي كلّما أغمضتُ عيني، كأن ملامحها استقرت بين قلبي ودعائي، وصوت في قلبي يردّد: كيف أجعلها تدرك أن جمالها الحقيقي ليس في الزينة ولا في العطر، بل في حياءٍ يُضيء الوجه، وإيمانٍ يُنير القلب؟

❒ من جمالٍ إلى فتنة!

دخلتُ القاعة في اليوم التالي، والطالبات كعادتهن بين همسٍ وضحكٍ وأوراقٍ متناثرة، ودفاترَ مفتوحةٍ تتهيأ لدرسٍ جديد.

ألقيتُ السلام وجلست، وبدأت المحاضرة في موضوعنا المقرّر،

غير أن في داخلي طارقًا يلحّ عليّ، يذكّرني أن حديثًا آخر ينتظرني...

❒ حديثَ القلب قبل اللسان.

وبينما كنت أشرح، توقفتُ عن الشرح برهة، ثم أغلقت

---

(١) سورة النحل: ١٢٥

الكتاب ونظرت إليهنّ بابتسامةٍ خفيفة، كمن يهمس بسرٍّ لطيف:

«قبل أن نكمل درسنا، هل لي أن أحدثكنّ عن حديثٍ آخر... ليس في المقرر، لكنه في مسار الحياة؟»

ساد السكون، وسكنت العيون بعد ضجيجها،

فقلت بهدوءٍ يلامس القلوب:

«بناتي، نحن في مكان للعلم، مكان للوقار، مكان للسمو.

وإن الجمال الذي أكرم الله به المرأة ليس زينةً تُعرض، بل أمانة تُصان.

صحيح أن الزينة ليست خطأ في ذاتها، بل قد تكون عبادة إذا وُضعت في موضعها الصحيح؛ لكن المبالغة فيها تُطفئ نور الحياء. ورائحة العطر حين تسبقنا إلى المكان قد تُغطي على رائحة العلم، وقد تُربك القلوب قبل أن تفتح العقول».

نظرت في وجوه الطالبات، فرأيت الدهشة تمتزج بالتأمل، والحياء يطرق بعض القلوب، تابعت حديثي:

«نحن لا نَدرُس علومًا فقط، بل نُربّي أنفسنا على الاعتدال؛ على أن نكون جميلات في الداخل قبل أن نكون

جميلات في الخارج. جمال القلب هو الأصل، والزينة الظاهرة إن لم يضبطها شرع الله تحولت من جمالٍ إلى فتنة».

ساد الصمت أكثر، ثم ارتفعت يد طالبة من الصف الثاني. قالت بتردد لكن بثقة:

دكتورة أليس الله جميلًا يحب الجمال كما صح عن النبي ﷺ؟[1] فلماذا يمنعنا إذن من التزيّن عند الخروج؟

ابتسمت، وأجبتها برفق:

سؤال جميل، لا جمال أعظم من جمال من خلق الجمال! فكلُّ ما نراه من حُسنٍ في الدنيا، يتلاشى أمام جماله سبحانه؛ فالجمال منه وإليه؛ جمالٌ لا تُحِيطه العقول، ولا تُدرِكه الفهوم، ولا يمكن أنْ يصفه الواصفون، أو أنْ يبلغ كنهه الناعتون، له المثل الأعلى؛ ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ﴾[2].

وأهل الجنة أنفسُهم، مع ما يغمرهم من النعيم والجمال، ينسون كل ذلك حين يرون جمال ربهم،

ويفرحون بيوم المزيد فرحًا تَكاد تطير له القلوب من أضلاعها.

---

(١) صحيح الجامع (٧٦٧٤).

(٢) سورة الشورى: ١١

توقفَتْ قليلًا، ثم تابعت:

الله جميل في ذاته، في أسمائه، في صفاته وأفعاله، فهو جميل في أسمائه الحسنى التي كلها كمال، وجميل في أفعاله التي لا تخرج عن العدل والإحسان والفضل، وجميل في صفاته التي تأسر القلوب وتُحيي الأرواح.

ومَن عرف ربَّه بصفة الجمال، ازداد إيمانه، ورسخت تقواه، وطابَت له العبوديَّة، واشتاقَ لربِّه، وسأله التلذُّذ برؤيته؛ كما قال أعبَدُ الخلق وأعرَفُ الخلق بالله ﷺ: «**وأسألك لذَّة النظَر إلى وَجهِك الكريم، والشوقَ إلى لقائك**»[1].

تأملتُ لحظة، ثم تابعت:

«واعلمي يا ابنتي أن الجمال الحقيقي ليس جمال الوجه، ولا نعومة الملامح، بل جمال القلب والخُلُق، فذاك ما يملك الإنسان تهذيبه، ويُثاب عليه، أما الصورة فهي قسمة من الله لا يد للمرء فيها».

سكتُّ قليلًا، ثم قلت وأنا أستعيد في ذهني سير أولئك العظماء:

---

(١) أخرجه النسائي (١٣٠٥)، وأحمد (١٨٣٥١).

«كم من رجلٍ لم يُعطَ حظًّا من الجمال، لكنه كان في ميزان الله جميلًا بعلمه وخلقه، هذا أسامة بن زيد لم تمنعه دمامةُ خلقه أن يكون حِبّ رسول الله ﷺ[1].

وهذا عطاء بن أبي رباح، كان أسودَ أعرجَ أعور، لكن الخلفاء كانوا يقفون على رأسه إجلالًا[2].

وهذا الأحنف بن قيس، قصيرٌ نحيلٌ غائر العينين، لكنه بلغ من الحِلم ما جعله سيّد قومه، يغضب فيغضب لغضبته مئة ألف رجل، لا يسألونه فيمَ غضب!»[3].

ابتسمتُ وقلت بخفوتٍ: هذا الجمال الحقيقي، وإن لم تتزين وجوههم، فإن أرواحهم كانت تتلألأ نورًا وجلالًا».

ثم دعوت الله وكلي رجاء:

«نسأل الله كما حسَّن خلقنا أن يُجمّل أخلاقنا، وأن يُصلح قلوبنا، وأن يجعل بواطننا خيرًا من ظواهرنا».

تابعت:

والنهي في الشرع ليس عن أصل التجمّل؛ التجمّل المشروع

---

(١) سير أعلام النبلاء (٢/ ٤٩٧).

(٢) المرجع السابق(٥/ ٧٩).

(٣) المرجع السابق (٤/ ٨٧).

أن تتزيّن المرأة لزوجها، أو في بيتها، أو بين محارمها ونسائها، هذا ليس فقط مباحًا بل محمودٌ شرعًا، أما إذا أظهرت زينتها أمام من لا يحلّ لهم النظر إليها، فهذا باب فتنة، والشرع سدّ الأبواب المؤدية إلى الفساد قبل أن تشتعل ناره.

رفعت طالبة أخرى يدها، وقالت بجدية:

عفوًا دكتورة، هل هناك دليل صريح من القرآن أو السنة على منع المرأة من التعطر عند الخروج؟

أجبتها بثبات: الله يقول: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾[1]، والعطر من الزينة بلا شك. وذكر سبحانه في موضع آخر: ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ﴾[2]. فإذا كان الشرع نهى عن مجرد صوت الخلخال، خشية أن يفتن الرجال بسماع صوت معدني، فما بالكن بعطرٍ يخترق الأرواح ويتغلغل في القلوب؟

ثم أتبعت ذلك بحديث النبي ﷺ:

«**أيما امرأة استعطرت فمرت على قوم ليجدوا من ريحها، فهي زانية**»[3].

---

(١) سورة النور: ٣١

(٢) سورة النور: ٣١

(٣) صحيح: أخرجه الحاكم في المستدرك، رقم (٣٤٩٧). وصححه =

ساد القاعة همسٌ وتعجب. رفعت إحداهن يدها مسرعة وقالت:

زانية؟! معقول دكتورة؟ هل المقصود الزنا الحقيقي؟

فابتسمتُ لأخفف من وطأة الاستغراب، وقلتُ بهدوء:

لا يا حبيباتي، ليس المقصود الزنا الحقيقي الذي يوجب الحد، وإنما هو زنا العين بنظر الرجال إليها، قال المناوي: (لأنها هيجت شهوة الرجال بعطرها وحملتهم على النظر إليها، ومن نظر إليها فقد زنى بعينه فهي سبب زنا العين فهي آثمة)[(١)].

هي ليست زانية بالفعل، لكنها تسبّبت في زنا دون زنا؛ زنا العيون، حين أيقظ العطرُ الغرائز، وهيّج النفوس، وفتح بابًا للفتنة.

وفي الحديث: «**إذا خرجتِ المرأةُ إلى المسجدِ، فلْتغتسلْ من الطِّيبِ، كما تغتسلُ من الجنابة**»[(٢)]، وجاء كما تغتسلُ من الجنابة! وليس ذلك لأنها جنب بل ليذهب الغسل أثر الطيب،

= الحاكم، والذهبي في التلخيص

(١) فضل القدير شرح الجامع الصغير، المناوي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م، (٥/ ٣٥).

(٢) السيوطي، الجامع الصغير (٥٧٣).

وإنما جاء التعبير النبوي قويًّا صارماً للتنفير من الفعل وليوقظ القلوب قبل أن تنزلق الخطوات.

رفعت طالبة ثالثة رأسها وقالت:

لكن يا دكتورة، لماذا يكون التركيز دائمًا على المرأة أكثر من الرجل؟ أليس الرجل أيضًا يُمكن أن يكون سببًا في فتنة النساء؟

أجبتها بحزم ممزوج بالرحمة:

نعم، الرجل مأمورٌ أيضًا بغضّ بصره وحفظ فرجه، ومُطالَبٌ بأن يتجنّب ما يثير قلوب النساء، لكن الفرق أن الله في حكمته جعل المرأة محلّ الفتنة في أصل الخلقة؛ هي موطن الجمال ومحلّ الزينة، والرجل مجبول على الانجذاب إليها. ولذلك كان أثرها عليه أعمق، وتأثيرها أسرع؛ والعطر في جسدها يُثير ما لا يُثيره في الرجل، إذ يحمل من الإيحاء ما يوقظ في النفوس ما لا يملك له كبحًا إلا من حفظه الله ومع ذلك، لو أن الرجل بالغ في إظهار زينته، أو قصد إثارة النساء، فهو آثم كذلك. فالأمر عدل، لكنه يراعي طبيعة كل جنس ودوره.

قاطعت حديثي طالبة في آخر القاعة:

«والله صعب يا دكتورة»

ابتسمت إليها وقلت:

نعم، هو صعب على النفس الأمّارة بالسوء، لكن من ترك شيئًا لله عوّضه الله خيرًا منه.

كيف لو تأملنا حال الصحابيات لما نزلت آية الحجاب، شققن نساءُ الأنصار مروطهنّ فاختمرن بها دون جدالٍ ولا تردّد، لأن لذة التسليم هوّنت عليهم مشقة التكليف[(١)].

ثم أكملت وأنا أصف عظمة الموقف:

الإيمان الحقّ أن نقدّم أمر الله على هوى النفس، وأن نثق بالغيب ثقةً تفوق ما نرى في عالم الشهادة، لأننا نوقن لثقتنا بقول الله ووعده.

فالمؤمنة لا تقول: لِمَ أُمنع؟ بل تقول: سمعنا وأطعنا.

ومن ذاق طعم التسليم، علم أن ما يتركه لله اليوم، يبدّله الله له غدًا بما هو خيرٌ وأبقى.

فلذّة الطاعة أصفى وأدوم من كل لذّةٍ زائلةٍ تُرضي العين

---

(١) أخرجه البخاري (٤٧٥٨)

وتُطفئ نور القلب».

ساد الصمت القاعة، كأن الهواء توقف هيبةً للكلام الذي قيل.

تلاشت الهمهمات، وانخفضت الأنظار، وبدأت القلوب تنصت قبل الآذان.

رأيت في العيون شيئًا من التأمل، وفي الوجوه ملامح حيرةٍ ممزوجةٍ بخشوع.

وأرجو أن تكون الكلمات قد وجدت طريقها، لا إلى الأسماع، بل إلى الأرواح.

رفعت بصري إلى الطالبات جميعًا وختمت قائلة:

بناتي، الإسلام لا يصادر الجمال، بل يوجّهه، أراد جمالكن عبادةً وسترًا، لا فتنة وعُريًا.

ختمت كلامي: جمالكن الحقيقي ليس فيما يراه الناس، بل فيما يراه الله في قلوبكن.

رفعت إحدى الطالبات سؤالًا آخر، قالت بصوت خافت:

عفواً دكتورة بصراحة ألا ترين أن هذه الأحكام فيها شيء من التشديد؟

أحيانًا نشعر أننا مقيدات أكثر مما نحتمل.

ابتسمت، وأجبتها:

ابنتي الحبيبة، التشديد الحقيقي هو أن يُترك الإنسان بلا ضابط فيقع في شهوة ثم يندم، أو ينجرف في طريق ثم لا يعود، الشريعة حين تمنع، فهي في الحقيقة تحمي، مثل الأم التي تمنع صغيرها من لمس النار، ليس لأنها تكره لذته، بل لأنها تخاف عليه من الهلاك. والله أرحم بنا من أمهاتنا، وأعلم بما يصلح قلوبنا.

تدخّلت طالبة أخرى، بلهجة واقعية:

لكن يا دكتورة، نحن نعيش في زمن يصعب الثبات فيه، وسائل التواصل الأهل، الصديقات، كل شيء حولنا يدعو للتبرج والتعطر، كيف نُقاوم؟

أطرقتُ قليلًا، ثم قلت بهدوءٍ يملؤه الثقة بفضل الله:

«نعم، نحن في زمن الفتن؛ لكن أتظنين أن الله يخفى عليه شيءٌ من أمرك؟

لا وربِّ الكعبة، بل الله أرحم بك من نفسك، ولم يتركك وحدك.

جعل لكِ الصلاة لتثبّت قلبك، والدعاء ليقوّي روحك، والصحبة الصالحة لتشدّ أزرك.

ثم أكملت بنبرةٍ أعمق:

كل حركةٍ تُجاهدين فيها هواك، وكل نظرةٍ تغضّينها، وكل زينةٍ تتركينها ابتغاء وجه الله هي عند الله مكتوبة لا تضيع.

فالله يعلم ضعفك وجهدك وصِدقك، ومن صدق مع الله صدقه الله.

واعلمي أن كل مقاومة لفتنة هي جهاد، وكل ترك لمحرمٍ خطوةٌ إلى الجنة، ومن ترك شيئًا لله، عوّضه الله نورًا في قلبه لا يجده عند غيره».

سكتُّ قليلًا، فعمّ الهدوء القاعة، وتبدّل ضجيجها سكينة.

❐ حين انتهى النقاش،

ساد القاعة صمت غريب، كانت الطالبات ينظرن إليّ، ثم ينظرن إلى بعضهن، وكأن الكلمات لم تترك مجالًا للهروب.

بعضهن غَضضن أبصارهن حياء، وبعضهن غرقن في التفكير؛ لكن أكثر ما شدّ انتباهي كانت تلك الطالبة نفسها صاحبة الرائحة.

كانت تجلس برأسٍ منحنٍ قليلًا، أصابعها تعبث بالقلم دون أن تخطّ شيئًا.

لم ترفع بصرها نحوي أبدًا، كانت تحدّق في الطاولة

أمامها، كأنها غابت عن كل ما حولها.

لم تكن تنشغل بما أقول، بل كانت تغوص في ما فهمت.

نظرتها تلك كانت كافية لأدرك أن الوعي بدأ يتشكّل، وأن في داخلها حديثًا لم يُنطَق بعد.

في داخلي قلت: «الحمد لله، لم أذكر اسمها ولم أشِر إليها، لكنها سمعت كل شيء، ووصلتها الرسالة. الآن، المعركة بينها وبين نفسها».

ثم قلت وأنا أختم الدرس:

«حبيباتي، تذكّرن دائمًا أن الامتثال لله هو الجمال الأعظم.

قد نُحرَم من زينةٍ عابرة، لكننا نُعطى نورًا باقياً.

جمال الطاعة يبقى في الوجوه حتى بعد أن يذبل الجسد، ويُشرق في القلوب حتى بعد أن تغيب الدنيا».

خرجت الطالبات من القاعة تتبادلن الأحاديث كعادتهن، إلا هي.

مشت بهدوء، خطواتها متزنة، تحمل في طياتها تفكرًا لا يراه أحد.

أما أنا، فبقيت واقفة عند المنصّة أرقبها حتى غابت عند الباب، وقلبي يهمس:

«اللهم اجعل كلماتي نورًا في دربها، واهدِ بها قلبها واحفظها بحفظك»

في تلك اللحظة شعرت أن حملًا ثقيلًا قد نزل عن عاتقي؛

فقد كنت أخشى أن يُكتب عليّ تقصيرٌ في البلاغ، أو أن أقف يوم القيامة فتقول إحداهن: يا رب، رأتني ولم تنصحني.

خشيت أن أكون كتمت علمًا أُمرت بتبليغه، أو رأيت منكرًا فسكتّ عنه حياءً أو ترددًا.

تذكّرت أن الدعوة أمانة، وأن العلم إذا لم يُبلَّغ ذاب أثره، وأن السكوت عن الحق قد يكون نوعًا من الخذلان.

❐ وصلت الرسالة!

في اليوم التالي، وبينما كنت أسير في الممر المؤدي إلى القاعة، شعرت بخطوات تتعجل خلفي.

كانت خطوات سريعة، مضطربة، لكنها مألوفة. التفتُّ، فإذا هي الطالبة نفسها، صاحبة الرائحة، تمشي نحوي.

لكن هذه المرة لم يسبقها العطر، بل سبقتها دموعها!

اقتربت حتى وقفت أمامي، ووجهها شاحب، وعيناها محمرتان.

حاولت أن تتكلم، لكن صوتها انكسر مع أول كلمة:

دكتورة وصلت الرسالة! لم أنم البارحة.

سكتت لحظة، ثم انفجرت تبكي بكاءً حارًا.

غطّت وجهها بكفيها، كأنها تخجل من نفسها أكثر مما تخجل مني.

كنت أنظر إليها وأشعر كأن أبواب السماء كلها انفتحت لها في تلك اللحظة.

قالت وهي تبكي:

فهمت أنكِ كنتِ تقصدينني.

شعرت كأن كلماتك أمسكت بقلبي من الداخل.

كنت أبحث عن لفت الأنظار، عن كلمة إعجاب من زميلة، أو نظرة امتداد من بعيد ونسيت أن الله يراني.

نسيت أن الجمال الحقيقي عنده، لا عند الناس.

مددت يدي، واحتضنتها كما تحتضن الأم ابنتها، وغمرتُها بكلمةٍ تشبه الحضن:

حبيبتي أنا لم أرد إلا أن أذكّرك بما فيك من خير.

أنت لستِ سيئة، بل عندك قلب حيّ، ولهذا تألمتِ لكلماتي، القلوب الميتة لا تبالي، أبشري ما دمتِ تبكين اليوم، فلن تبكي غدًا يوم القيامة.

أحسست حينها أن الكلمة الصادقة قد تفتح بابًا للهداية، وأن البلاغ ليس خيارًا نتطوع به، بل عهدٌ نحمله بين أيدينا إلى أن نلقى الله.

❐ إنابة قلب

رفعت رأسها قليلاً، وقالت بصوت متقطع:

دكتورة أشعر أنني كنت في ظلام واليوم فقط، شممتُ رائحة النور.

ابتسمت وقلت:

هنيئاً لك! أسأل أن تبدل سيئاتك حسنات، ففي الحديث أن شيخ كبير هرم أتى النبي ﷺ، سقط حاجباه على عينيه، فقال: أرأيت رجلاً عمل الذنوب كلها، لم يترك داجة ولا حاجة إلا أتاها، لو قسمت خطيئته على أهل الأرض لأوبقَتْهم - لأهلكَتْهم - أَلَهُ من توبة؟ فقال: «**هل أسلمت؟**»، قال: أشهد أن لا إله إلا الله، وأنك رسول الله، قال: «**تفعل الخيرات، وتترك السيئات، فيجعلهن الله لك كلهن خيرات**»،

قال: وغدراتي وفجراتي يا رسول الله؟ قال: «**نعم**»، فقال: الله أكبر، الله أكبر، فما زال يُكبِّرُ حتى تَوارَى»[(١)].

من تاب تاب الله عليه، وباب التوبة لا يُغلق ما دام في الصدر نَفَس، بل هو مفتوح ما لم تبلغ الروح الحلقوم.

أردفتُ قائلة:

التوبة رحلة وعيٍ ومراجعة، وانكسارٍ بين يدي الله وليست كلمة تُقال؛ بل هي عودة الروح إلى فطرتها الأولى، لتعرف ربها وتأنس بقربه.

وإن الله - برحمته - لم يجعل الخطأ نهاية الطريق، بل جعل منه بدايةً جديدة لكل ذنبٍ مهما عظم، يذوب حين يختلط بندمٍ صادقٍ ودمعةٍ خاشعة.

ذكرتها بقوله تعالى: ﴿قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ﴾[(٢)].

نبهتها بأن التوبة علم وعمل، علم بأن الله أرحم بعباده من أنفسهم، وعمل بالرجوع إليه بصدقٍ وتجديد العهد معه، ومن تاب لا يعود كما كان، بل يعود أنقى، وأقرب، وأعمق فهمًا

---

(١) رواه الطبراني وصححه الألباني،(٧/ ٣١٤) (٧٢٣٥)

(٢) سورة الزمر: ٥٣

لقيمة النور بعد ظلمةٍ تاه فيها.

قلتُ لها بلطف:

احمدي الله أن أيقظ قلبك الآن، فليس كل من أذنب أُتيح له أن يفيق، لا تؤجلي عودتك إلى الله؛ فالتوبة التي تُؤَخَّر، تُثقِل القلب وتُضعف العزم. ابدئي من اليوم، بخطوةٍ صادقةٍ، وسترين كيف يُبدّل الله خوفك أمنًا، وذنبك حسنات، وغفلتك قربًا منه سبحانه.

مسحت دموعها، وغادرت وهي مختلفة.

لم تحمل عطرًا في خطواتها، بل حملت سكينة في ملامحها. لم تعد تمشي بكبرياء، بل بخشوع.

ومن يومها تغيّرت، صارت أكثر حياءً، أكثر هدوءًا، وأكثر قربًا من الله.

كانت إذا جلست بين زميلاتها، جلست بهدوء ووقار، وإذا تحدثت، تحدثت برفق.

لم تعد تبحث عن نظرات الآخرين، بل عن رضا رب العالمين.

مرّت الأسابيع، وكلما رأيتها في القاعة، شعرت أنني أشهد ولادة قلب جديد، لم تعد الرائحة القوية تعلن عنها، بل صار

حياؤها أطيب من كل عطر، وصار دعاؤها أجمل من كل زينة.

ولم يكن أثرها محصورًا في نفسها، بل تعدّى إلى غيرها.

كثيرٌ من الطالبات لاحظن تغيّرها، تغيّر نظرتها، حديثها، سكونها، ووقارها.

كانت تمرّ بينهن بهدوء الواثق، وحياء من عرف الطريق بعد طول التيه.

سألتها إحداهن يوماً عن سرّ هذا التحوّل، فابتسمت تلك الابتسامة المطمئنة التي لا يعرفها إلا من ذاق لذة القرب من الله، وقالت:

«حين استشعرت أن الله يراني، علمت أن كل ما أريده موجود عنده، لا عند غيره.

كنت أبحث عن القبول في أعين الناس، فاكتشفت أن رضا الله وحده يكفيني عن الدنيا وما فيها».

ومنذ ذلك اليوم، صارت دعوتها صامتة لكنها أبلغ من الخطب، وسيرتها درسًا مفتوحًا في معنى التوبة الصادقة.

فالتائب الصادق لا يدعو بلسانه فقط، بل يشهد له وجهه وسكينته وخطواته، كأنها تقول لمن حوله: من ذاق عرف، ومن عرف اقترب.

● **ومضة:**

أيقنت يومها أن أعظم جمال هو جمال الطاعة، وأن التسليم لله زاد القلوب، وأن التربية الحقيقية ليست بالصرامة وحدها ولا باللين وحده، بل بمزيجٍ من الرحمة والحكمة.

رأيت أن النفوس الغضّة كأرضٍ خصبة؛ ما إن يُلقى فيها نور الوحي حتى تُورِق طاعةً، وما إن تُسقَ بماء الرحمة حتى تُزهِر إيمانًا، وأدركت أن في الناس خيرًا كثيرًا، وأن القلوب مهما ابتعدت يبقى فيها من نور الفطرة ما ينتظر من يسقيه بكلمةٍ صادقة، أو يحييه بنظرةِ رحمةٍ وحنان.

وأنا أرى أثر الهداية، ذكّرت نفسي قبل غيري، كم مرّت بنا مواقف تستحق أن نُبلّغ فيها، فسكتنا! وكم لاحت فرصٌ للدعوة، فترددنا!

يا الله! أيُّ عذرٍ لنا ونحن نحمل علمًا أو كلمة حق ثم نُقصر في تبليغها؟

أين نحن من أولئك الذين سبقونا بالإيمان، فبذلوا أرواحهم، وصبروا على الأذى، واحتملوا العذاب في سبيل أن يصلنا هذا النور؟

ألم يُقتل في سبيل الله من هو خيرٌ منا؟ ألم يُسجن ويُحرَم

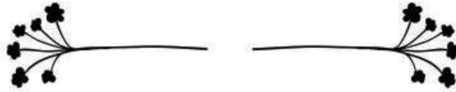
ويُمتحَن من لا يحصيهم إلا الله؟

فأيّ يأسٍ يبقى بعد أن نرى ما بذله أولئك العظماء؟ وأيّ فتورٍ يليق بمن يدّعي حبّ الدعوة؟

الناظر في سير السلف الصالح والعلماء العاملين، يستحيي من الله أن يقعد، ويُدرك أن البلاغ ليس تفضّلًا بل أمانةً نحملها، ومسؤوليةً سنُسأل عنها يوم نلقاه.

«**ولئن يهدي الله بنا رجلًا واحدًا، فهو خيرٌ لنا من حمر النعم**»[(١)]، كما قال الحبيب ﷺ

خرجت من القاعة في ذلك اليوم، وأنا استغفر الله على تقصيري، ولسان حالي: اللهم الهمني صدق الدعوة وحُسن البلاغ وبثّ النور في زمنٍ كثرت فيه الظلمة، وارزقني الثبات والإخلاص في القول والعمل.



---

(١) أخرجه البخاري في كتاب أصحاب النبي ﷺ باب مناقب علي بن أبي طالب القرشي الهاشمي أبي الحسن رضي الله عنه برقم (٣٧٠١) ومسلم في كتاب فضائل الصحابة رضي الله عنهم، باب من فضائل علي بن أبي طالب رضي الله عنه برقم (٢٤٠٦).

نور الهداية



ليس كلُّ داعيةٍ يخطب؛ فمن الناس من يدعو بخلقِه قبل لسانه، وبصدقِ عمله قبل كلماته،

ولربّ موقفٍ صغيرٍ في زاويةٍ من زوايا الحياة، يُوقظُ قلبًا كان نائمًا على حافة النور.

❐ ركن القهوة

كان صباحُ الكلية مختلفًا في ذلك اليوم.

لم تشرق الشمس وحدها من الأفق، بل أشرقت معها نوايا قلوبٍ خرجت طلبًا للعلم، وأقدام حملت نفسها من البيوت إلى رحاب الكلية، لتجلس بين آيات الله وأحاديث نبيه ﷺ.

الممرات تعجّ بخُطا الطالبات، والكتب بين أيديهن، لكن شيئًا آخر كان يسبق الجميع: رائحة القهوة العربية.

هناك، عند مدخل كلية الشريعة، كان الركن يقف شامخًا كأنه حارسٌ للعلم، يفتح بابه بالابتسامة قبل أن تفتح القاعة أبوابها بالدروس.

ركنٌ صغير في حجمه، لكنه عظيم في معناه؛

على طاولته تنتظم كتبٌ صغيرة وكتيباتٌ دعوية ومطوياتٌ تربوية، مكتوبة بعباراتٍ رقيقةٍ، لكنها منبثقةٌ من نور الوحي.

وبجانبها مكينةُ قهوةٍ تبثُّ أنفاسها في المكان، ودِلالٌ تفور بالبخار، وأكوابٌ مصطفّة كأنها عقودُ لؤلؤٍ منسقة، تنتظر ضيوفها.

وصحونُ التمر كأنها تُشارك في الدعوة، تقول بلسان حالها: مرحبًا بوصية النبي ﷺ.

كنت أقف عند الركن بين الحين والآخر، وأقول لبناتي الطالبات:

يا بناتي، هذا الركن ليس للضيافة وحدها، إنما هو تربيةٌ وتزكية، وتذكيرٌ بأنَّ لطالب العلم منزلةً عظيمةً عند الله.

كما في قوله ﷺ: «**من سلك طريقا يطلب فيه علما سلك الله به طريقا من طرق الجنة وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضا لطالب العلم**»[1].

---

(١) أخرجه أبو داود (٣٦٤١)، والترمذي (٢٦٨٢)، وابن ماجه (٢٢٣)، وأحمد (٢١٧١٥).

ثم أُتبع الحديث بوصيةٍ الحبيب ﷺ: «**سيأتيكم أقوامٌ يطلبون العلم، فإذا رأيتموهم فقولوا لهم مرحبًا مرحبًا بوصية رسول الله، واقنوهم؟**»[1].

فتأمَّلن - رعاكن الله - الطالباتُ الداخلات اليوم لسن مجرّد حاضراتٍ لمحاضرة، بل هنَّ وصيةٌ من وصايا رسول الله ﷺ.

أفلا نستقبل الوصية بكرم؟

أفلا نقول بألسنتنا وقلوبنا: مرحبًا وأهلًا؟

كنت أرى تعجباً في نفوس، كانت وجوههن تشرق عند سماع الحديث، كأنهن لأول مرة يدركن قدرهن عند الله، ومكانتهن عند رسول الله.

فكنت أزيدهن تذكيرًا فأقول: لو جاءتكِ وصية من والدك أو أمك، لأحطتِها بكل رعاية وعناية، فكيف والوصية من رسول الله؟!

ألا ترين أن الوفاء له أن نفتح قلوبنا لطالبات العلم الداخلات، وأن نكرم كل طالبةٍ بعلمها وطلبها، حتى وإن لم تُدرِك بعدُ قدر نفسها؟

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٢٤٩)، والترمذي (٢٦٥٠)، والحاكم (٢٩٨).

ولمّا تركت الركن لطالباتي، رأيتهن يتناوبن على سكب القهوة وتقديم الكتب، ويبتسمن بوجه كل طالبةٍ تدخل الكلية.

فقلت في نفسي:

الحمد لله الذي جعل من هذا الركن مدرسةً قبل المدرسة، ودعوةً قبل الدرس، وعبادةً تُقدَّم مع كل فنجان قهوة بنية صادقةٍ وقلب محبّ للعلم.

وكانت ترافقني في بعض الأيام العاملة المنزلية لوسي، تساعد في حمل الأباريق وترتيب الأكواب.

لم يكن لها دور الدعوة أو الكلام، بل كانت يدًا حانية مساعدة لبناتي، ترفع عنهن ثِقل الخدمة، ليصفو لهن وقت الترحيب والكلمة الطيبة.

غير أن وجودها في المشهد كان يثير في نفسي شعورًا غريبًا؛ فهي من بيئةٍ بعيدةٍ عن الإسلام، ومع ذلك تعيش بين أجواءٍ يملؤها ذكرُ الله، وتُحيط بها كلمات القرآن والحديث.

كانت تبتسم بهدوء، وإن لم تفهم كل ما يُقال، وكأنّ في قلبها شيئًا من الطمأنينة يتسلّل دون استئذان.

كنت أنظر أليها وأقول في نفسي: «لعل الله يجعل هذا الركن سببًا لهدايتها، وإن لم نعلم متى وكيف»

وبينما كانت الطالبات يلتقطن الكتب ويأخذن القهوة، كنت أراها تنظر إليهن بنظرات عجيبة: فيها تساؤل، وفيها دهشة، وفيها شيء من الإعجاب.

لم تتكلم يومها، لكنها بدت كأنها تحفظ المشهد في ذاكرتها، وكأن شيئًا في قلبها بدأ يتحرك دون أن تدري.

❐ بين خدمة الأجساد وخدمة القلوب

كانت لوسي تقف بجانبي في ركن القهوة، تحمل الأكواب بخفة تدهش الناظرين، وتوزّع ابتسامتها على المارّات كأنّها تبذر السعادة في الوجوه، كانت تناوب الطالبات على ترتيب المكان وتنظيفه، وهي تعمل بصمتٍ فيه طهارةُ النيّة وإن لم تعِ معناها بعد.

لم تكن تدرك أن وقوفها في ذلك الركن لم يكن خدمة دنيوية وحسب، بل كان بداية طريق يقودها إلى أنوار لم تخطر لها على بال.

كنت أراها أحيانًا واقفة في صمت، تحدّق في الطالبات، لا تفهم أكثر كلماتهنّ بالعربية، لكنّ العيون لا تكذب، والقلوب تهتف بما تعجز عنه الألسن.

كانت تتأمل وجوههنّ المشرقة بالحياء، وتستمع إلى

ضحكاتٍ عفيفةٍ تفيض طهرًا، وتلمح بينهنّ من تمسك كتاباً صغيرًا، وأخرى تتخلّق بأدب الحبيب

لم تكن لوسي تفهم العربية، ولكنّها كانت تفهم ما لا يُقال، وتشعر بما لا يُترجم، فالعين لها لغتها، والروح تعرف طريقها إلى الحق ولو من وراء الحروف.

كنتُ أتأملها وهي تراقبنا من بعيد، تقف على هامش المجلس ولكنّ قلبها في المركز من حيث لا ندري.

لعلها لا تفهم الكلمات، لكن ألم يقل الله تعالى: ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ﴾[1].

فربما سمع قلبها ما لم تسمعه أذنها.

كنت أحيانًا أحدث نفسي وأقول:

نحن نظن أننا نقيم ركنًا بسيطًا للضيافة، نوزع فيه قهوة وكتبًا، لكن الحقيقة أن هذا الركن يشبه البذرة التي تُلقى في الأرض، لا ندري متى تُنبت ولا أين تُثمر.

وقد قال النبي ﷺ «**إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى**»[2]، اللهم اصلح نياتنا وأعمالنا واهدنا واهد بنا يا رب.

---

(١) سورة الأنفال: ٢٣

(٢) أخرجه مسلم (١٩٠٧)

❐ حديث لم يُترجم بعد

كان عجيبًا أنني رأيتها أكثر من مرة وهي تمسك أحد الكتيبات الصغيرة، تقلّبه بين يديها، ثم تعيده إلى مكانه بهدوء، لا تقرأ العربية، لكن الفضول كان يشدّها.

كنت أقول لبناتي الطالبات:

بناتي، الإخلاص سرّ القبول، وما خرج من القلب وصل إلى القلب، ولو لم يَلفظه اللسان.

قد تضع إحداكنَّ كتابًا في يد غافلة فتُفتح به أبواب السماء، أو تُهدي كلمةً بسيطة فيجعلها الله مفاتيحَ هدايةٍ لأهل بيتٍ بأكمله.

ثم أقرأ عليهنّ قوله تعالى: ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ﴾(١).

وكانت الخادمة تسمعني وأنا أردد هذه الكلمات، فترفع بصرها نحوي، لا تفهم النص كله، لكنّها تفهم إشارات الرحمة التي تحفّ الكلام، وتلتقط من نبرات الدعاء دفء الإيمان.

ابتسامتها البسيطة، وحرصها على خدمة الطالبات، كان يحمل في طياته سؤالًا غير منطوق:

---

(١) سورة المزمل: ٢٠

«ما الذي يجعل هؤلاء مختلفات؟ ما الذي يجعل قلوبهن مليئة بهذا السلام؟»

لقد رأيتها مرارًا تبتهج حين تطلب منها إحدى الطالبات المساعدة، وكأنها وجدت لنفسها مكانًا بينهن.

بل إنني مرة سمعتها تضحك ضحكة خافتة وهي تردّ على طالبة بكلمة عربية مكسّرة: «مرحبا».

تأملت ذلك الموقف وقلت في نفسي: سبحان الله، ربما تكون هذه «المرحبا» التي قالتها بداية مرحب أكبر: مرحب بالإيمان، مرحب بالقرآن، مرحب بالنور الذي يبدد ظلمة قلبها.

وكنت كثيرًا ما أردد على مسامع الطالبات قول النبي ﷺ «**لأن يهدي الله بك رجلاً واحدًا خيرٌ لك من حُمر النَّعم**»[1]، وقد يكون هذا الرجل أو هذه المرأة ممن لا نحتسب لهم شأنًا، عاملًا بسيطًا، أو خادمة لا تفهم لغتنا؛ لكن عند الله، إذا هداها بيدك أو بسببك، كان ذلك خيرًا من الدنيا وما فيها.

وكنت أقولها وأنا ألقي نظرة على لوسي، وأقول في نفسي علّ الله يجعل إسلامها تأثراً بحسن خلق إحدى الطالبات.

---

(١) سبق تخريجه

❐ وشيء ما تغيّر في المساء

ومضت الأيام والأشهر إلى أن جاء ذلك اليوم وكان مزدحمًا أكثر من المعتاد.

طالبات الشريعة بين آخذةٍ لفنجان قهوة، وأخرى تتصفّح الكتيبات المصفوفة بعناية على الرفوف، وثالثة تستمع لنصيحة قصيرة من زميلتها.

وكانت لوسي - كعادتها - تتحرّك بهدوء، تساعد هنا، ترتّب هناك، توزّع النظام والابتسامة في آنٍ واحد، وكأنها تلتقط من الجو المحيط بها أنفاسًا جديدة لا تعرف تفسيرها.

تركتُها وذهبت لمحاضراتي وكنت أتابعها وأتابع الطالبات بين الحين والحين، ثم عدتُ في نهاية اليوم لآخذها كعادتي إلى البيت، لكنني لاحظت شيئاً لوسي كانت تحمل كتاباً صغيراً معها، سألتها ما هذا قالت أهدته لي إحدى الطالبات

One student give me... gift.

ابتسمتُ ولم أزد، ثم رافقتني للبيت ونسينا الأمر.

مرت الأيام، ولم أرَ جديدًا.

تضعه في حقيبتها الصغيرة، تُخرجه أحيانًا في أوقات الاستراحة، تقرأ بعض صفحاته، ثم تعيده بهدوءٍ إلى مكانه.

وسبحان الله، كم مرة أخذتها لمركز التعريف بالإسلام معي، وكم مرة قدّمت لها كتبًا وكتيبات، لكنها لم تُبدِ اهتمامًا.

كنت أتساءل: ما الذي يحمله هذا الكتاب؟! لكني لم أشأ أن أتدخل؛ فالهداية من الله، وقلوب العباد بين إصبعين من أصابع الرحمن[1].

بعد أسبوع، عدت من الكلية، فإذا بالخادمة تنتظرني على غير عادتها، عيناها تلمعان، ملامحها مترددة، لكنها تحمل يقينًا في أعماقها.

قالت لي بصوت متقطع:

Madam I want to go Islamic center.

توقفتُ مذهولة.

سألتها: لماذا اليوم؟ لماذا الآن؟

أجابت:

This book I read I feel something my heart peace I want to be Muslim.

سبحان الله لم أتمالك نفسي من الدموع.

في تلك اللحظة، شعرتُ أن الجو كلّه تغيّر.

---

(١) صحيح مسلم (٢٦٥٤).

تذكرت حديث النبي ﷺ «**لا تحقرن من المعروف شيئًا ولو أن تلقى أخاك بوجه طلق**»[1].

قلت في نفسي: هذه الطالبة ما حسبت أن كتابًا صغيرًا قد يكون جسرًا بين الكفر والإيمان، لكن لعل الإخلاص هو سرّ الأثر.

لعل هذه الطالبة لم تُهْدِ كتابًا فقط، بل أهدت معه قلبًا مخلصًا، ودعاءً صادقًا في جوف الليل أن يهدي الله به أحدًا.

تذكرت قول الله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾[2].

كم دعوتُ لها! كم ألححت عليها! كم حاولت أن أقنعها! لكنها لم تستجب.

أخذتها مرات إلى مركز التعريف بالإسلام فلم تقتنع، وكنت أرجع مكسورة الخاطر.

ثم يأتي كتاب صغير من يد طالبة، فيفتح الله به قلبها!

❐ ثم كان النور!

أخذتها في الحال إلى مركز التعريف بالإسلام، وحين

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦٢٦).

(٢) سورة القصص: ٥٦

وصلنا، استقبلتنا الأخوات في المركز بوجهٍ طلقٍ ونورٍ يملأ المكان. جلست لوسي بينهم، وكنتُ أراها كمن يُولَد من جديد.

وهناك نطقت الشهادتين، وارتجّ المكان بالتكبير.

كانت تبكي وهي تردد:

«Ash-hadu an la ilaha illa Allah... wa ash-hadu anna Muhammadan rasool Allah».

خرجت من المركز بوجه جديد، كأنها لم تعد هي نفسها.

كانت تقول لي:

Now I feel clean، I feel new.

وتذكرت حينها قول النبي ﷺ «**الإسلام يهدم ما قبله**»[(١)].

كأنّها وُلدت لتوّها من رحم النور، تخلّصت من ماضيها كما يتطهّر الغصن بالمطر.

❐ صفحة بيضاء

وكأنها صفحة بيضاء تنتظر أن تُملأ بالحسنات!

لم يمر شهر على إسلام لوسي، حتى بدأت ملامح التغيير

(١) أخرجه ابن خزيمة (٢٥١٥) واللفظ له، ومسلم (١٢١)

تظهر عليها بوضوح.

كانت تسابقني لتعلّم الوضوء، تحفظ الأدعية القصيرة، وتكرر كلمات عربية مكسّرة وهي تحاول أن تصلي.

كنت أسمعها تقول:

«Bismillah... Alhamdulillah... SubhanAllah...»

بصوت متردّد، لكن قلبها كان يسبق لسانها.

❐ سبحان الله!

كنت أقول في نفسي: ليتني أجد تلك الطالبة المباركة التي وضعت الكتاب بين يدي لوسي، لأبشّرها بإسلام لوسي، وأحدّثها عن القلب الذي أضاء الله به على يديها.

غير أنّي لم أجدها، لا اسمٌ أعرفه، ولا وصفٌ يهديني إليها، ولكن يكفي أنّ الله الذي لا تخفى عليه خافية يعرفها، ومن عرفها الله فلن يضيع لها أثر، ولن يحجب عنها أجر.

دعوتُ لها كثيرًا، أن يُكرمها الله بعطائه ما يُبهِج قلبها، وأن يُنزل عليها من عطائه ما يُسعدها في الدارين.

آمنت لوسي، فانقلب حالها إلى سكونٍ لا يُشبهه إلا سلامُ من عاد إلى موطنه بعد غربةٍ طويلة.

كانت لا تملّ من السؤال:

Madam، how to pray?

What to say in sujood?

Can you write for me?

وكنت أكتب لها الأوراق بخط كبير، بالإنجليزية والعربية، وأحيانًا بالترجمة الفلبينية، حتى يسهل عليها الحفظ، تضعها في جيبها، وتخرجها عند أول فرصة لترددها.

❐ فرحة مضاعفة

وذات مساء، عدتُ من عملي فإذا بها تنتظرني في مدخل البيت، وجهها يشرق ببشارةٍ لا تُخفى، وعيناها تلمعان كما لو حملتا نورًا من السماء.

ابتسمتْ ابتسامةً عريضة وقالت بصوتٍ متقطّعٍ من شدّة الفرح:

Madam my husband become Muslim!

زوجها أسلم بعد أن دعته للإسلام!

تجمّدتُ مكاني لحظة، ثم فاضت الدموع من عينيّ كما تفور العيون بالماء العذب بعد جدبٍ طويل!

سبحان من يهدي القلوب متى شاء وكيف شاء!

كنت أقول في سري:

قد يُسلم رجل بخطبة تهزّ المنابر، أو بكتاب يفتح آفاق الفكر، لكن قد يُسلم أيضًا بحنوّ قلب زوجة!

❒ ولادة الإيمان

أعلن زوجها الشهادتين، وأسلم بيت كامل في ليلة واحدة!

خرجتُ تلك الليلة وقلبي يغمره شعورٌ لا يُوصف.

كنت أقول في نفسي: يا الله، كم نبذل ونسعى، ونتعب ونجتهد، فلا نرى الثمرة!

ثم تأتي لمسةٌ صغيرة، أو نيةٌ خفيّة، فيفتح الله بها أبوابًا من الهداية ما كنا نظنّها قريبة.

كتابٌ وُضع بصدق، وكلمةٌ خرجت بنور، فإذا بها تُثمر بيتًا مؤمنًا بأكمله.

تذكرت حديث النبي ﷺ «**من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئًا**»[(١)].

حدثتُ نفسي قائلةً:

لعلّ تلك الطالبة لا تدري إلى اليوم أن بيتًا كاملًا دخل

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦٧٤)

الإسلام بسببها، وأنّ جبالًا من الحسنات تُكتب في ميزانها وهي لا تشعر!

ولعلها حين تقف بين يدي الله يوم القيامة، تجد أمامها جبالًا من الحسنات لم تعملها بيدها، لكنها كُتبت باسمها لأنها غرست بذرة صادقة، فأنبتها الله.

أدركت حينها أن ما نزرعه من قيم وعمل قد يتجاوز حدود المكان، ليصل إلى البيوت، ويوقظ القلوب الغافلة، ويُهدي الأرواح التائهة، وربما يعبر القارات مع عاملةٍ بسيطةٍ تحمل النور في صدرها وتنقله دون أن تدري!

- **ومضة:**

تعلمتُ يومها أن الدعوة ليست بكثرة الكلام ولا بطول الحديث، ولا بكبر الكتب ولا شهرة المحاضرات؛ بل هي صدقُ نيةٍ يبارك الله فيه، ونورُ قلب خفي يمتد أثره حتى يبلغ الآفاق.

فربّ كلمةٍ خرجت من قلبٍ مخلص، ففتحت باب الهداية لقلبٍ بعيدٍ في أقصى الأرض،

وربّ عملٍ صغيرٍ رفعه الله في عليّين، فصار نوره لا ينطفئ إلى يوم الدين.

تعلمتُ أن لا أتعجّل الثمرة، بل أزرعها بصدقٍ، وأدع السقي لله، فقد تخرج من بذرةٍ صغيرةٍ شجرةٌ أصلها في الأرض وفرعها في الجنة.

وأيقنتُ أن الطريق إلى القلوب ليس دائمًا عبر الدروس الطويلة ولا الحجج القاطعة،

بل ربما عبر كتابٍ بسيط، أو موقفٍ عابر، أو ركنِ قهوةٍ تفوح منه بساطةٌ وصدق،

فالله لا يضيع عملاً خالصًا، ولو خفي على أهل الأرض جميعًا.





صبر امرأة



في زحمة الحياة، هناك نساءٌ يسرن على الشوك بأقدامٍ حافية، لكنّ مَن يراهن لا يرى الجراح، بل يلمح على وجوههن نورًا يشبه الرضا.

تُخفي كل واحدةٍ منهن خلف ابتسامتها فصلاً من حكايةٍ طويلة، كتبها الصبر بحبرٍ لا يُرى، وعلِمها الله وحده.

❒ في أروقة الحملة

كنا في حجّ ذلك العام، والحملة تضجّ بالحجيج من كل فجٍّ عميق، تتعالى التكبيرات، وتختلط أنفاس الشوق بأنين التعب.

في صالة النساء اجتمعنا نرتّب أغراضنا ونستظلّ من حرارة النهار، والقلوب بين الخوف والرجاء. كنت أتأمل الوجوه من حولي، كلّ وجه يحمل حكايةً مختلفة مع الله.

دخلت تلك المرأة بخطواتٍ هادئةٍ كأن الأرض تفرش تحت قدميها سكينة.

ثوبها أسود بسيط، لا زينة فيه، ولا بريق يلفت النظر، ولا

ملامح لافتة تسرق الأبصار؛ لكن في وجهها نورٌ يسرق القلب.

كان تتلفت تبحث عن مكانٍ لتجلس، وكنت أشعر أن لهذه المرأة قصة لم تُروَ بعد.

جلست بجوارنا، وكانت في يدها حقيبة صغيرة، تضعها على حجرها، وتشدّ على أطرافها كأنها تخفي فيها أسرارًا.

بدأنا نتجاذب أطراف الحديث، حديثًا يليق بمقام الحج: المشاعر في الحج، عن الخشوع، عن الدعاء في عرفات، وعن لحظات البكاء حين يختلط فيها الذنب بالأمل.

كانت تستمع أكثر مما تتكلم، تبتسم بصمتٍ فيه وقار، كأنها تسمع صوتاً من داخلها لا من أفواهنا.

ثم لمحتُ رجلًا يقف عند باب الرجال المقابل، يرفع يده بابتسامةٍ عريضة، وعيناه تتعلقان بها بحنانٍ مدهش ثم يرفع يده وكأنه يطمئن أنها بخير.

التفَتَ نحوه، فأجابت ابتسامته بخجلٍ وطمأنينة.

كان لافتًا أن يقف رجلٌ على باب النساء مراتٍ في اليوم، فقط ليسأل عن زوجته أو يضحكها أو يناولها شيئًا بيده

همست هي: «سبحان الله، لا أحد في الحملة يلحّ

بالسؤال عني مثل هذا الرجل».

ضحكت الأخوات من حولها، وبعضهن غمزت بخفةٍ وقالت ممازحة:

«علمينا السر!»

خفضت رأسها حياءً وقالت كلماتٍ كانت كالمفتاح لقلبها:

«الربّ حكيم يوزّع الأرزاق بحكمته وأنا ربّي الرزّاق أكرمني بهذا الزوج».

كأن هذه الجملة لم تكن مجرد عبارة عابرة، بل كانت مفتاحًا فتح أبواب الحكاية.

❐ لحظة البوح

ظننت أن القصة انتهت عند هذا الحد؛ لكن حين أقبل الليل وسكن الضجيج، رأيتها تقترب بخطواتٍ مترددة، كأنها تخشى أن تُخرج من صدرها ما أثقله الدهر، رأيت في عينيها تردّدًا يشبه ذلك الذي يسبق البوح.

كانت عيناها تحملان شيئًا لا يُقال، فيهما بريق الحياء ووهج الحزن في آنٍ واحد.

جلست قربي بصمتٍ عميق، فشعرت أن بين يديّ قلبًا يطلب الأمان قبل أن يتكلم.

وفي داخلي ارتفع صوتٌ خافت يقول:

ما أشدّ الصبر حين يكون صامتًا! فكم من امرأةٍ تُخفي خلف ابتسامتها حربًا لا يراها إلا الله.

تذكّرت قول الله تعالى: ﴿وَٱصۡبِرۡ وَمَا صَبۡرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ﴾(١)،

فعلمت أن الصبر ليس مجرد احتمال للوجع؛ بل هو مدرسةٌ تُربّي القلوب على الرضا، وعلى تسليم القلب لله بأن الخير فيما يختاره هو، لا فيما نريده نحن، هو جسر تعبر به من الضيق إلى الفرج، ومن الضعف إلى القوة، وأن جمال الصبر ليس في لحظة احتماله، بل في الجبر الذي يتبعه؛ حين يبدّل الله دمعك ابتسامة، ووجعك طمأنينة، وانتظارك بشارة لم تكن في الحسبان!

جلست بقربي وقالت بصوتٍ خافت تمازجه الرجفة:

أريد أن أسرّ لك بشيء دعيني أروي لك قصتي منذ

---

(١) سورة النحل: ١٢٧

البداية، من يوم لبست فيه الأبيض.

ابتسمتُ مشجّعة، ووضعتُ كفّي على كفّها برفقٍ أُشعرها فيه بالأمان،

ساد صمتٌ قصير، لم يقطعه إلا أنفاسها المتقطّعة، ثم بدأ صوتها ينساب كالماء الرقراق، يحمل في طيّاته دفين السنين وثقلها، كأنها لا تروي حكايةً فحسب، بل تُخرج من قلبها قطعةً منه.

❐ اللباس الأبيض

قالت: كنت كأي فتاة، أحلم باليوم الذي أرتدي فيه فستان الزفاف.

وكأن الملائكة تكتب لي صفحةً جديدة في دفتر العمر.

شعرتُ كأنّ الدنيا توقفت.

وعندما جاء ذلك اليوم، يوم أن زُففتُ إليه، شعرت أن الدنيا كلها توقفت في تلك اللحظة لتبارك لي فرحتي.

كنتُ أرى الناس من حولي، لكن عيني لا تقع إلا عليه، هو زوجي، نصيبي، دعائي المجاب.

كانت كلماتها تصنع في ذهني مشهدًا من نور؛ عروسًا ببساطةٍ طاهرةٍ، لا تبحث عن أن تُرى، بل تبحث عن أن

تُرضي ربها وتُسعد زوجها.

تصف تلك اللحظة فتقول:

«عم الفرح القاعة، وعم قلبي السرور، ما كنتُ أجمل الحاضرات، لكني كنت أكثرهنّ سعادةً، وكنت ألهج بالدعاء: (اللهم بارك لي فيه، وبارك له فيّ، واجمع بيننا في خير).

ثم ابتسمت والدمعة تلمع في عينيها وهي تضيف:

في تلك الليلة أحسست أنني ملكت الدنيا، وأن الفستان الأبيض ليس مجرد قماش، بل كان إعلانًا أنني بدأت حياة جديدة».

وأنا أراها تستعيد أيامها الأولى همستُ في سرّي:

ما أصفى تلك البدايات التي تُبنى على الطهر والدعاء ويُظلّلها ستر الله ورحمته!

إنها النعمة التي تغيب عن أبصارنا حين نألفها، نعمة الستر والمودة والعفاف، حين يجمع الله بين قلبين بالحلال، فيظلان على صفاء النية وعلى ذكر الله لا على زينة الدنيا.

❏ بداية بيت جديد

كانت تروي الحكاية بروح نقية، حتى كأنني أعيش معها

تلك اللحظات، أرى العروس بثوبها الأبيض، وأسمع ضحكاتها الأولى في عش الزوجية.

قالت:

«دخلنا بيتنا الصغير، كان أثاثه متواضعًا، لكنه في عيني كان قصراً منيفًا، كنت أنظر إلى الجدران وأقول: هذه الأماكن ستشهد على قصة حبنا، وسأجعلها بإذن الله تشهد على سجداتي ودعواتي.

كان زوجي يضحك مني عندما أقول له: (أحب أن أزين البيت بدعائي أكثر من الأثاث)».

ابتسمتُ وأنا أستمع إليها، وقلت: ما أجمل ما قلتِ!

إن الدعاء هو أجمل الزينة، هو عطر البيوت الذي لا يزول، ونورها الذي لا يخبو.

كم من بيتٍ زيّنته النساء بالذهب والزخارف فبهت لونه مع الأيام،

أما بيتكِ فقد زيّنته بذكر الله، فازداد إشراقًا في السماء قبل الأرض.

تذكّرت قول الله تعالى: ﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُاْ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ﴾[1].

(١) سورة الفرقان: ٧٧

تحدّث قلبي قائلاً:

واللهِ ما خسرتِ بدعواتكِ،

فكل ركعةٍ في بيتكِ كانت حارسًا له، وكل دعوةٍ أطلقتها في زواياه كانت أمانًا يُظِلّكِ يوم اشتدّ عليك البلاء.

❒ حنين وألم

ابتَسَمت وهي تكمل روايتها لي، وصوتها يحمل خليطًا من الحنين والألم قالت: «في الأيام الأولى بعد الزواج، كنت أستيقظ قبله لأُعِد له الفطور.

لم يكن بيتنا كبيرًا، لكنه كان يمتلئ برائحة القهوة كل صباح، تلك القهوة التي كنت أظن أنها مفتاح السعادة، كنت أضعها بجانبه وأنتظر ابتسامته، فإذا ابتسم شعرت أنني ملكة متوجة».

كانت تضحك وتقول:

«قد يظن البعض أن السعادة في الذهب والقصور، لكنني وجدتها في كوب شاي بسيط نشربه معًا ونحن نخطط لغدنا، كنا نتحدث عن مستقبل أولادنا الذين لم يولدوا بعد، وعن رحلات نحلم بها، وعن أسماء نختارها لأطفالنا».

قلت سبحان القائل: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾.

سبحان من جعل الزواج ميثاقًا غليظًا، آية من آياته، وسكنًا تُروى به الأرواح بالمودّة والرحمة،

ومن جعل البيوت العامرة بالإيمان رياضًا للسكينة، تُغسل فيها الهموم بالصبر، وتُسقى فيها المودة برضا الله.

❐ تفاصيل صغيرة وحب كبير

أكملت: «كنتُ أفرح إذا مدح طعامي، أو إذا سألني عن رأيي في أمر من أموره، كنت أجد سعادتي في أن أُرضيه، ولأنه كان كريمًا بطبعه، كان يبادلني هذا الشعور، فيُشعرني أنني أهم إنسانة في حياته. حتى إنه كان يقول لي: (أنتِ بيتي وراحتي)».

صمتَتَ قليلًا ثم قالت:

«كنت أظن أن هذا الحب متين لا يهتز، وأن الأيام ستزيده قوة، فلم يخطر ببالي أن القدر يُخبئ لي امتحانًا عظيمًا».

أكمَلَت: كنت أراقب الله في كل شيء، لم يكن همي أن أظهر أمام الناس أجمل النساء، بل همي أن أكون عند ربي زوجة صالحة، خدمتُه بصدق، حفظتُ سره، لم أترك له مجالًا ليشعر بنقص، وكنت أحمد الله كل ليلة أن وهبني هذا الرجل.

❑ لمّا انخفض صوتها

ثم خفضت رأسها قليلًا، وسكن صوتها حتى كدت لا أسمعه. ثم قالت:

«ظننتُ أن أيامي ستبقى على صفائها، وأنني سأعيش في جنةٍ من المودّة لا يعكرها شيء، حتى جاء اليوم الذي بدّل يقيني دهشةً وقلبي وجعًا»

كانت تتحدث ببطءٍ شديد، كمن يَستحضر مشهدًا مؤلمًا لا يريد أن يراه، لكنه لا يملك أن يغضّ بصره عنه.

وأنا أستمع، شعرت أن الفصل القادم سيكون أعمق، أشد تأثيرًا، وأشد امتحانًا لإيمانها وصبرها.

❑ يوم الابتلاء

ثم تنهدت بعمق، وقالت:

«ظننت أن أيامي كلها ستظل بيضاء ناصعة مثل ثوبي الأبيض، وأن الحب سيكبر بلا شوائب؛ لكن الامتحان لم يتأخر، بل جاء سريعًا، سريعاً جداً في لحظة لم أكن أتصورها،

لم أكن أعلم أن أول امتحان سيكون قاسيًا إلى هذا الحد!»

قالت: «كان يومًا عاديًا، لكنه سيظل محفورًا في ذاكرتي، على الرغم من محاولاتي المتكررة لنسيانه.

دخلت الغرفة لأرتب ثيابه، كما أفعل كل صباح. كنتُ سعيدة لأننا كنا على موعدٍ للخروج معًا مساءً. حملتُ ثوبه الأبيض لأغسله، فوقع من جيبه شيءٌ صغير.

فوجدت شيئًا لم يخطر لي على بال!

توقَفَت هنا، وقد اغرورقت عيناها بالدموع.

كأنها عادت لتعيش تلك اللحظة أمامي!»

❐ ألم الصدمة

تردّدَت في إكمال الحديث، ثم تابَعَت بصوتٍ خافتٍ يتكسر عند أطراف الكلمات:

«التقطت ما وقع فإذا هي صور، نعم صور لنساء!

نساء جميلات، متزيِّنات كأنهن خرجن للتو من عالم آخر.

وقفت جامدة، يداي ترتجفان، قلبي كاد ينخلع من مكانه.

نظرت إلى الصور ثم إلى نفسي في المرآة».

أكمَلَت بحرقة:

«رأيتُ وجهي العادي، ملامحي البسيطة، لا جمال

صارخ، لا فتنة تُذكر.

فبكيت، نعم بكيت بحرقة، حتى كادت روحي تخرج مع دموعي.

لم أتمالك نفسي، فتحت هاتفه لأتأكد. فإذا برسائل، وأرقام، وعلاقات متفرقة. آه يا دكتورة!

شعرت أن الأرض تميد من تحتي. لم أعد أرى شيئًا. كنت أصرخ في داخلي ولا يخرج صوتي.

في تلك اللحظة، جرى في قلبي حديث أم سلمة رضي الله عنها، حين مات زوجها فقال لها النبي صلى الله عليه وسلم: «**ما من مسلم تصيبه مصيبة فيقول ما أمر الله: إنا لله وإنا إليه راجعون، اللهم أجرني في مصيبتي وأخلف لي خيرًا منها، إلا أخلف الله له خيرًا منها**»[1].

فقلتُ والدموع تخنقني: «إنا لله وإنا إليه راجعون اللهم أجرني في مصيبتي واخلفني خيرًا منها».

كنتُ أستمع إليها وقلبي يضطرب بخشوعٍ أمام هذا الصبر النقيّ.

لقد كانت امرأةً تصبر لا بلسانها، بل بقلبٍ يوقن أن الله لا يبتلي إلا ليطهّر، ولا يأخذ إلا ليُعطي.

---

(١) صحيح مسلم (٩١٨).

❑ كأن شيئًا لم يحدث!

قالت:

«أعدتُ الصور إلى مكانها، وأغلقت الهاتف كأن شيئًا لم يكن، دخل زوجي بعدها بدقائق، يضحك، يحدثني، ينتظر مني أن أستقبله كعادتي، كنت أستطيع أن أصرخ، أن أفضحه، أن أجعلها نهاية كل شيء؛ لكنه وجدني ساكنة هادئة».

قالت:

«تعجّب من صمتي، لكنه لم يسأل، وأنا رفعتُ همّي إلى الله، لم أُحدّث أحدًا، لم أجرح كرامته، لم أُعرِّيه أمام نفسه ولا أمام الناس.

عاهدت ربي: لن أفضحه، لن أصرخ، سأتركه بين يدي الله، هو الذي يرى قلبي الآن، ومنذ تلك الليلة، ما شكا قلبي إلا إلى ربي.

أقسم لك تلك الليلة صليت وأنا أبكي، دعوت الله بحرقة:

يا رب، اهده لي، أصلحه لي، ارزقني صبرًا يعينني على هذا البلاء.

كنتُ امرأة مستقيمة، لا أعرف الحرام ولا الخيانة، لكن

قلبي تحطم، ومع ذلك قلت: اللهم لا تكلني إلى نفسي طرفة عين.

ومضت الأيام لم أمد يدي إلى هاتفه بعدها، تركت الأمر بينه وبين الله، أردت أن أعيش أمة لله،

لا شرط عندي إلا أن يرضى الله عني».

نظرتُ إليها طويلاً، وامتلأ قلبي بتأثر عميق أمام صبرها.

يا الله... كم في الأرض من نساءٍ مكلوماتٍ يتوجهن بقلوبهنّ إليك في صمت،

يحسبهنّ الناس ساكناتٍ مطمئنات، وما في صدورهنّ إلا عواصف من الصبر الجميل،

يستودعنك أنينهنّ، ويرفعن إليك حاجاتهنّ دون شكوى لغيرك.

تذكّرت قول الله تعالى:

﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾﴾[١].

وسألت الله أن يجعل هذه المرأة من أولئك الخفيّات

---

(١) البقرة: ١٥٥-١٥٦

اللواتي لا تُعرف أسماؤهنّ في الأرض،

لكنّ الله يرفع ذِكرهنّ في السماء بصبرٍ لا يراه أحدٌ سواه، ولا يثيب عليه غيره.

❑ مواجهة الصدمة

قالت وهي تحبس أنفاسها، وكأنها تعيش تلك الليلة من جديد:

«لم أنم تلك الليلة، كانت الأفكار تتقافز في رأسي، والدموع لا تهدأ.

كنت بين نارين: نار الغضب ونار الخوف من أن أقول ما أندم عليه.

كنت أُحدّث نفسي: لا بد أن أواجهه لكن كيف؟ أأصرخ؟ أواجهه؟ هل أفضحه؟

أم أضع الأمر بيني وبين الله وأصمت؟» هل أضع الصور والهاتف أمام عينيه وأقول له: هذا أنت؟

تصف حالها قائلة:

بكيت حتى غفلت عيناي من شدة التعب.

سكَتَت قليلًا، ثم تابعت:

«وفي الصباح استيقظتُ، على قرارٍ واحدٍ، أن أواجهه

بصدقٍ دون صراخ، وأن أترك الحكم لله.

وهي تُشبك أصابعها كأنها تمسك نفسها عن الارتجاف قالت:

«حين دخل الغرفة، ترددت، نظرتُ إليه طويلاً، ثم قلت له بصوت خافت: «أريد أن أحدثك في شيء نظر إليّ بدهشةٍ وحذرٍ في آنٍ واحد.

فتحت يدي وأخرجت الصور التي وجدتها في ثوبه، وضعتُها أمامه، لم أقل شيئًا. لم أصرخ، لم أبكِ أمامه. فقط وضعتها على الطاولة، وجلست صامتة»

❐ جمد في مكانه

قالت:

«تغير لون زوجي فجأة، جمد في مكانه، ارتبك، أخذ الصور بيد مرتعشة، ثم رفع رأسه إليّ بعينين تملؤهما الخشية، كان يتوقع أن أثور، أن أجمع حقائبي وأذهب إلى أهلي.

قلتُ له بهدوء يقتل: «رأيت الصور وفتحت هاتفك وعرفت كل شيء».

سكت لحظة، ثم قال بصوت مبحوح: «كنتِ تبحثين في هاتفي؟»

قلت: «لم أكن أبحث، الله أظهر لي ما كنت تخفيه، ولعله يختبرني».

❐ أطرق رأسه، لم يجد جوابًا

قلت: «كنتُ أظن أني ملكتُ قلبك وحدي؛ فهل قصّرت في حقي من حقوقك؟

هل قصّرت في خدمتك؟ هل أهملت بيتك؟»

لم يجد ما يقول.

ظل ساكتًا، والعرق يتصبب من جبينه.

فقلت له: «أنا لا أخشى خيانتك بقدر ما أخشى أن تخون الله، وأن يفضحك الله على رؤوس الأشهاد».

يا الله كانت كلماتها تنفذ إلى القلب كسكينٍ مغموسٍ في الإيمان،

لم يكن في صوتها صراخ، بل وقارٌ يُشبه السكينة التي ينزلها الله على من صدق.

قالت:

«كنتُ أريد أن أبين له أن القضية ليست قضية كرامة امرأة فقط، بل قضية دين، قضية مصير.

وبكيت، لكنني لم أرفع صوتي. دموعي انحدرت أمامه

لأول مرة.

قلت: «يا فلان، سأستر عليك، كما ستر الله عليّ وعلى كل مؤمن؛ ولكن عد إلى الله، ارجع إلى ربك، قبل أن يفاجئك الموت وأنت على هذه الحال».

تقول:

«هو كان يتوقع أنني سأغادره في تلك اللحظة؛ لكنه فوجئ أنني بقيت؛ بل بقيت على عهدي: أخدمه، أهيئ له البيت، أبتسم في وجهه، وأصلي بالليل أدعو له.

وفي داخلي نار تأكلني لكن فوقها غطاء الرضا بقضاء الله، كنتُ أردد: إنا لله وإنا إليه راجعون، اللهم أجرني في مصيبتي واخلف لي خيرًا منها.

والله يا دكتورة، لولا أن الله أنزل عليّ سكينة ما كنت أستطيع أن أتحمل.

كل ليلة كنت أردد قول رسول الله ﷺ:

«**إن عِظم الجزاء مع عِظم البلاء، وإن الله إذا أحب قومًا ابتلاهم، فمن رضي فله الرضا، ومن سخط فله السخط**»[(١)].

كنت أقول: يا رب، إن كنت أحببتني فابتليتني، فارزقني

(١) أخرجه الترمذي بعد حديث (٢٣٩٦)، وابن ماجه (٤٠٣١).

الرضا حتى أرضى، ولا تجعل في قلبي سخطًا على قدرك."

كنتُ أنصت إليها، والدموع تتجمع في عيني.

أيُّ امرأةٍ هذه التي تغفر وهي الموجوعة، وتستر وهي القادرة على الفضيحة؟

لقد ارتقت إلى مقامٍ لا يبلغه إلا من أحبّ الله أكثر مما أحبّ نفسه.

تذكّرت قول النبي ﷺ: «**من ستر مسلمًا سترهُ اللهُ يومَ القيامةِ**»[1].

فقلت في نفسي:

«لعلها سترتْ فسترها الله، وأخفت الألم فرفعها الله».

❐ نقطة التحول

كانت تمضي في بيتها بصمتٍ عميقٍ لا يُشبه الهجر، بل يُشبه الوقار الذي يسبق الفجر.

لم ترفع صوتها، ولم تُكثر عتابًا، كانت كلما ضاق صدرها توضأت وصلت ركعتين،

تغسل بدموعها ما عجزت الكلمات عن قوله.

---

(١) أخرجه البخاري (٢٤٤٢)، ومسلم (٢٥٨٠)

تقول المرأة:

«مرّت أيام ثقيلة بعد تلك المواجهة وكأنها دهور، كنتُ أرى تقصيره فأبتسم،

وأرى بروده فأستغفر، حتى غدوتُ أشعر أنني لا أتعامل معه، بل أتعامل مع الله في كل خطوةٍ أخطوها نحوه».

قالت هذه الجملة ووجهها يشرق بهدوءٍ غريب، كأنها اكتشفت في البلاء ما لم تكتشفه في الرخاء.

ثم تابعت بصوتٍ تملؤه السكينة:

«كنت أظن أن حياتي ستنقلب رأساً على عقب، أو أنه سيتمادى أكثر في غيّه، أو أنني سأكون مجرد ظل في حياته؛ **لكن ما حدث كان عجيبًا!**

دخل عليّ ذات ليلةٍ، وهو متردد الخطى، جلس عند الباب ولم يتكلم.

جاءني بهدية بسيطة، ساعة يد، ووضعها أمامي دون كلام.

ابتسمتُ ابتسامة هادئة، وقلت: «جزاك الله خيرًا».

لم أُبالغ في فرحتي حتى لا أجعله يظن أنني غفرت سريعًا، لكنني في داخلي شكرت الله أن قلبه بدأ يلين.

في البداية صار يتجنب النظر إليّ، وكأن عينيه تخافان من مواجهة عينيّ. لم يكن يرفع صوته عليّ، بل صار أكثر هدوءًا، كنتُ أعلم أن في داخله شعورًا بالذنب، لكنه لم يعبّر بعد».

بعدها بيومين، دخل البيت مبكرًا على غير عادته، وجلس بجانبي رفع بصره إليّ وقال: أنا لا أستحقكِ، لا أعلم كيف تحملتِني، لا أعلم لماذا لم تفضحيني. كنت أستحق أن تتركي البيت. لكنكِ صبرتِ وسترْتِ وها أنا أقولها لكِ: سامحيني».

سكتت، وأطرقت رأسها، ثم قالت بهدوءٍ مؤمن:

«حينها علمت أن الله لم يبتلني ليكسرني، بل ليطهّرنا معًا.

كان البلاء طريقًا للرجوع، لا طريقًا للفقد».

قالت:

«كانت تلك أول مرة يقولها، ولم أتمالك نفسي، بكيت، لكن دموعي هذه المرة كانت أقرب لدموع الراحة من دموع القهر، تقول قلت له أسأل الله أن يغفر لك وطلبت منه طلبا واحداً أن يأخذني لبيت الله للعمرة.

كانت كلماتها تسقط في قلبي كالمطر على أرضٍ عطشى.

تأملت وجهها، فإذا فيه نورٌ لا تصنعه زينة، ولا تمنحه الدنيا،

نورُ من عرف الله في الشدة فأنار له الطريق في الرخاء.

تذكّرت قول الله تعالى: ﴿إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦﴾[1].

وكنتُ أراها مثالًا حيًّا لهذا الوعد، امرأةً خرجت من رحم الألم وفي يدها وردة الرضا.

❐ غسلت قلبي

تقول: «ذهبت وغسلت قلبي ودعوت ربي ففرج الله عني، ومنذ ذلك اليوم، بدأت أرى تغيرًا حقيقيًا في تصرفاته، صار يهتم بأدق تفاصيل حياتي: يسألني إن أكلتُ، يضحكني بمواقف صغيرة، يضع لي الرسائل القصيرة على الطاولة: «سامحيني أحبك».

وكانت كلمته التي لا أنساها كلما غضبت أو طال حديثنا:

«سُحت وأحبك!»[2].

كنت أضحك من هذه الكلمة الغريبة، لكنها كانت بالنسبة لي إعلانًا عن خضوعه لقلبي، واعترافًا أنني ملكت روحه رغم أنني لا أملك جمال غيري.

---

(١) سورة الشرح: ٦

(٢) كلمة سحت في اللهجة الكويتية، تُقال لوصف القباحة الشكلية لشخصٍ ما؛ فيقال عنه بأنه فلانٌ سحت: أي بشع ودميم الخلقة.

كنتُ أعلم أن الله وحده هو الذي قلّب قلبه.

كنتُ أستحضر قول الله تعالى:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾﴾[1].

فأقول في نفسي: هذا الودّ لم أصنعه أنا بيدي، إنما هو رزق ساقه الله لي جزاء صدقي وصبري.

وصرت أرى في عينيه أن محبته لي لم تعد مجرد عادة زوجية، بل صارت امتنانًا عميقًا. كلما تذكر موقفي يوم كشفت خيانته، زاد حبه، وزاد قربه».

❑ ملامح التغير

قالت المرأة:

«بعد تلك المواجهة، كأني بدأت حياة جديدة، لم أعد أنظر إلى نفسي على أنني مجرد زوجة خانها زوجها، بل نظرت إلى نفسي كعبدٍ ابتلاه الله ثم وفقه للصبر، وستر، وانتظار الفرج. كنتُ أردد كثيرًا: اللهم أجرني في مصيبتي وأخلف لي خيرًا منها.

وبالفعل، أحسست أن الله أبدلني خيرًا من المصيبة ذاتها

---

(١) مريم: ٩٦

لا بزوج آخر، بل بزوجي نفسه وقد تغير.

صار لا يطيق أن يتركني طويلًا، يعود سريعًا من عمله، كأن قلبه يشده إلى البيت.

كثيرًا ما يمازحني، حتى أمام الناس، ليكسر عني الحرج: يضحكني بكلمة، أو يكتب لي ورقة صغيرة، أو يتصل بي من جواله ونحن في نفس الفندق فقط ليقول: اشتقت لكِ.

كنتُ أبتسم، لكن داخلي كنت أبكي؛ أبكي فرحًا أن الله جعل من ضعفي قوة، ومن دموعي محبة، ومن صبري حياة جديدة.»

❑ الاعتراف الأخير

انتهى حديثها، وبقي أثره يتردّد في أعماقي كصدى لا يخبو.

كانت كلماتها تسري في قلبي كنسمةٍ من يقينٍ قديم، تُذكّرني أن الله لا يبتلي عبده ليؤلمه، بل ليهديه من طريقٍ لا يراه سواه.

أطرقتُ برأسي، وأدركتُ أنني أنا من كان بحاجةٍ إلى هذه الحكاية أكثر منها.

● **ومضة:**

تعلمتُ منها أن الصبر ليس سكوتًا، بل عبادةٌ تُقال بالقلب حين تعجز الشفاه.

وأن الستر ليس ضعفًا، بل قمة القوة حين تختار أن تصون من أساء إليك، طلبًا لرضا الله لا خوفًا من الناس.

أدركتُ أن الرزق لا يكون في المال ولا الجمال، بل في الطمأنينة التي ينزلها الله على قلب المؤمن.

وأن الله إذا رأى في قلب عبده صدق النية، جعل له من بعد الانكسار فتحًا، ومن بعد الظلمة نورًا، ومن بعد الخيانة وُدًّا.

تذكّرت قول الله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ﴾[1].

فهمتُ يومها أن التقوى هي الباب الذي لا يُغلق، وأن من جعل الله غايته رزقه من حيث لا يحتسب عزًّا بعد ذل، وسعادةً بعد ألم.

---

(١) سورة الطلاق: ٢-٣

❐ تمتمتُ بعد الرحيل

تمتمتُ وأنا أودّعها: يا رب، اجعلنا من الذين إذا ابتُلوا لم يجزعوا، وإذا مُدحوا لم يغترّوا، وإذا أُوذوا قالوا: حسبنا الله ونعم الوكيل.

اللهم ارزق نساء المؤمنين صبرها، ورجاحة عقلها، وصدق توكّلها.

حين غادرتْ المكان، ظلّ عطرُ قصّتها عالقًا في زوايا المجلس،

أدركت أن قصص الصابرين لا تُروى للعظة فقط،

بل لتذكّرنا أن وراء كل وجعٍ رحمة، وأن الله لا يخذل من توكّل عليه

وإن الصبر لا يضيع عند ربٍّ وعد بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾[1].

سرتُ في أروقة الحملة، والليل يغشى مكة بسكينته،

وناجيتُ ربي في صمتٍ لا يسمعه أحد:

---

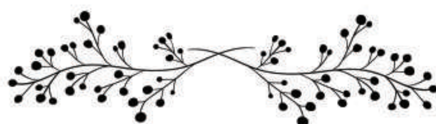
(١) سورة البقرة: ١٥٣

يا رب، ما أكرمك! تبتلي لتقرّب، وتكسر لتجبر، وتخفي في طيّ البلاء عطايا لا تُدركها الأبصار.

أدركتُ أن تلك المرأة ما كانت تحكي قصتها لتُدهشنا،

بل لتُعلّمنا أن القرب من الله لا يُنال باليسر،

بل بالانكسار الذي يُعيد ترتيب القلب على نهج الرضا.





هيبة الكلية ومهابة العلم



في رحاب العلم تُختبر النيات قبل الإجابات، وفي قاعات الشريعة قد يكون الامتحانُ أعمقَ من ورقةٍ وسؤال.

❐ جلال المكان

كانت شمس الصباح تتسلّل بخيوطها الذهبية الرقيقة إلى أروقة الكلية، وكأنها تكتب على جدرانها آياتٍ من نور.

تلمس النوافذ برفق، وتغمر الساحات بصفاءٍ لا يشبه إلا صفاء القلوب التي قصدت هذا المكان. كل شعاع ينعكس على النخلة البيضاء في فناء الكلية، يذكّرني بأن هذاً الموضع ليس كسائر الأمكنة، بل هو ميدان عبادةٍ قبل أن يكون مكان علم، ومنبر هدايةٍ قبل أن يكون صرحًا دراسيًا.

هنا، في كلية الشريعة، يختلف الإحساس منذ الخطوة الأولى. كأنك تعبر من الدنيا إلى عالمٍ آخر، عالم يُذكر فيه الله في كل ركن، وتتنزّل فيه السكينة معٍ كل همسة ذكرٍ. ما إن تطأ الأقدامُ العتبةَ الأولى حتى يسبقها شعورٌ غامر بالخشوع؛ وكأنك لم تدخل مبنى من الإسمنت والجدران، بل ساحة عظيمة تُصفّى فيها النفوس وتُربّى الأرواح.

الممرات هنا لها طابعها الخاص، مهيبة كأنها تهمس بالسكينة.

خطوات الطالبات تسير في نظامٍ مهيب، لا يُسمع فيها إلا السلام يتردّد بين جدرانها، ولا تُرى إلا وجوهٌ أضاءها الذكر وقلوبٌ مُعلّقة بكتاب الله.

هنا العلمُ الشرعي ليس منهجًا يُدرَّس، بل حياةٌ تُعاش.

قاعاتها تفوح بتلاواتٍ عطرة، وجدرانها تحفظ أنفاس الداعيات، وأركانها تروي قصصًا عن إخلاصٍ ودموعٍ ومجاهداتٍ لا تُنسى.

كم سمعتُ من نساءٍ كبيراتٍ في العمر، وهنّ يقفن عند سور الكلية رافعاتٍ أكفّهن بالدعاء ودموع الشوق في أعينهنّ: «اللهم اجعل لي فيها نصيبًا، ولو مقعدًا بين مقاعد العلم!»

إنه الشوق القديم إلى النور، والرغبة الصادقة في الفقه في دين الله.

وهنا، في هذا المكان المبارك، أشعر أن كل طالبةٍ كُتِب لها أن تجلس على هذه المقاعد إنما نالت اصطفاءً ربانيًا لا يُشبهه شيء.

تأملتُ الطالبات وهن يدخلن القاعات في الصباحٍ، تحدّث قلبي قائلاً:

هنيئًا لمن اختارها الله لتحمل ميراث النبوة، إن أبواب الرزق كثيرة؛

لكن فقه العلم الشرعي اصطفاء لمن أراد الله بهم خيرًا.

وأنا أقف في رحاب الكلية، أستشعر نعمة المكان، وأهمس في داخلي:

هنا تُرفع الدرجات، وهنا سلوك طريق الجنان.

❐ رهبة الامتحان

كان ذلك اليوم مختلفًا عن سائر الأيام؛ يوم امتحان.

ويوم الامتحان ليس مجرد أسئلة تُطرح وإجابات تُكتب، بل هو يوم تمايز بين الصادق والكاذب، وبين من جعل علمه لله ومن طلبه لغير الله.

هو اليوم الذي تُوزن فيه القلوب قبل الأقلام.

دخلت الطالبات القاعة بخطوات متأنية، تسبقها رهبة المكان.

حين كنتُ أدخل القاعة، تملّكني شعورٌ بالفخر والطمأنينة، الطالبات هنا لسن مجرّد دارسات يبحثن عن شهادة؛ هنَّ شرف الأمة وأملها، ينهلن من معين الوحي، ويحملن همّ الدين .

كانت القاعة واسعة، مقاعدها مصطفة في نظام دقيق، والجدران صامتة تشهد على كل من جلس فيها وكتب.

بدا كل مقعد كأنه أمانة وميثاق، فمن جلس عليه حُمّل مسؤولية، ليس فقط مسؤولية الإجابة الصحيحة، بل مسؤولية النية الصافية.

كل طالبة تحمل أدواتها ودفاترها الأخيرة، تراجع ما تيسر لها من المعلومات.

بعضهن يدخلن وقد علا وجوههن نور الطاعة، تهمس شفاههن بأدعية قصيرة: «اللهم افتح عليّ فتوح العارفين»، وأخريات ترتجف أيديهن من التوتر، فتشد إحداهن على حقيبتها كما يشد الغريق على خشبة النجاة.

جلست طالبة في الصف الأول، ترتب أوراقها بعناية وتتنفس بعمق كأنها تستحضر نيةً جديدة «اللهم اجعل عملي كله صالحًا، ولوجهك خالصًا، ولا تجعل لأحدٍ فيه شيئًا».

إلى جانبها طالبة أخرى أطبقت كفيها على قلمها، تستغفر وتصلى على النبي ﷺ.

ومضت عيني نحو الخلف، فإذا بي أرى طالبة تكتب وتهمس بصوت خافت : «اللهم لا تكلني إلى نفسي طرفة عين».

كم كان ذلك المنظر عظيمًا!

جعلني أستحضر حديث النبي ﷺ «**من سلك طريقًا يلتمس فيه علمًا سهّل الله له به طريقًا إلى الجنة**»[1].

يا الله، ما أكرم هذا الطريق!

طالبات في عمر الزهور يسلكن طريقًا يبدأ بالورقة والقلم، وينتهي إن أخلصن بالجنة.

❑ بدأت بتوزيع أوراق الامتحان.

ست صفحات، رتّبت بعناية، تحتوي على أسئلة متنوعة: في الفقه وشروح الحديث وأصول الفقه،

أسئلة تحتاج إلى حفظٍ راسخ، وأخرى تحتاج إلى فهمٍ عميق، وأخرى إلى ملكة فقهية تربط بين النصوص والواقع، كل ورقة كانت ميزانًا دقيقًا يزن علم الطالبة وصدقها وإخلاصها.

وضعت الورقة أمام الطالبات مع ابتسامة خفيفة مطمئنة.

لم أكن أرى هذه الأوراق مجرد أوراق وأسطر، بل كنت أراها أمانةً عظيمة سنُسأل عنها أنا والفتيات بين يدي الله.

---

(١) أخرجه أبو داود (٣٦٤١)، والترمذي (٢٦٨٢)، وابن ماجه (٢٢٣)، وأحمد (٢١٧١٥).

ساد القاعة صمت بديع، لا يُسمع إلا صوت الأوراق حين تُقلب، وخطوط الأقلام وهي تسطر الإجابات.

في تلك السكينة وأنا أرقب المشهد في وسط القاعة، شعرتُ أنني لستُ مراقِبة امتحان، بل شاهدة على لحظة من لحظات الطهر العلمي، حيث يُختبر الصدق في أبهى صوره.

وبكل فخر قلت في نفسي: ما أجمل أن يكون المرء في مكانٍ يُخرّج الحافظات وطالبات العلم الشرعي.

دعوت لهن من قلبي، وكنت أغبطهن على انشغالهن في العلم الشرعي، ما أشرف هذا المشهد!

بنات في عمر الزهور يكتبن في دين الله، يتنافسن في فقه كتاب الله وسنة رسوله .

تذكرت قوله تعالى: ﴿يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖۚ﴾[1].

ومر في خاطري قول النبي ﷺ: «**إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى**»[2].

فقلت: هذا الامتحان لن يزن الإجابات فقط، بل سيزن

---

(١) سورة المجادلة: ١١

(٢) أخرجه البخاري (١)، ومسلم (١٩٠٧).

القلوب، قد تُخطئ طالبة في الإجابة لكنها صادقة في نيتها، فيكون لها عند الله من القبول ما لا يخطر على بال، وقد تصيب أخرى في الإجابة لكن قلبها أراد بها الدنيا، فتكون من الخاسرين.

كنت أطمئن إلى أن القاعة مطمئنة، وأن الطالبات كل واحدة منهن تراقب الله قبل أن تراقب المراقب. وللحظة تردّد في أعماقي سؤال: ما حاجتنا لكثرة المراقبات في قاعة يملؤها خشية الله!

لم أكن أعلم حينها أن الله يدخر لي مشهدًا في آخر القاعة، سيهز كياني، ويوقظ قلبي، ويذكرني بأن الفتنة قد تدخل حتى أقدس الأماكن، وأن الخذلان قد يسري حتى بين طلاب العلم.

لم يكن يخطر ببالي، ولو للحظة، أن يُكدَّر هذا الصفاء بصوتٍ غريب، أو أن يُجرَح هذا المشهد المهيب بخيانةٍ صغيرة، لكنها كبيرة عند الله، خيانةٍ ما كان ينبغي أن تُذكر بين طالبات الشريعة.

❐ الشرخ في الصمت

وفجأة تسلّل إلى أذني صوتٌ خافت غريب.

حسبته في البداية مجرد هواءٍ يتسرّب من نافذة، أو ضجيج من خارج القاعة.

لكن كلما أنصتُّ أكثر، ازداد يقيني أنه ليس صوت هواء، ولا صدى بعيد؛ بل همسٌ متقطّع يأتي من آخر القاعة.

ثم أصبح الصوت يطرق سمعي كتنبيهٍ لا يُتجاهل.

رفعت بصري نحو آخر القاعة، فرأيت طالبةً تنحني أكثر مما يليق، يديها تتحركان بخفّةٍ مريبة، وعيناها تتلفتان بخوفٍ صامت.

دقات قلبي بدأت تتسابق، حاولت أن أطرد الوساوس: «لا، ليست طالبة في كلية الشريعة، لا يمكن!» لكن الصوت لم يترك لي مهربًا.

يا الله! أهو غش؟ غش في كليةٍ تُقام فيها حلقات الذكر؟

غش في قاعة يتدارس في فصولها "قال الله، قال رسول الله ؟

غش في امتحان يُختبر فيه علم الدين، لا مجرد قواعد رياضية أو مسائل فيزياء؟

تجمّدتُ لحظةً في مكاني، شعرتُ أن الأرض تميد تحت قدميّ.

لم يكن خوفي من الموقف، بل من الخذلان؛ من أن تمتدّ يدُ الغشّ إلى مكانٍ يُفترض أن تُغسل فيه القلوب قبل الأقلام.

أي خذلانٍ هذا؟ أي بلاءٍ أن تكون طالبة علم شرعي، تُمنح شرفًا يتمنّاه كثيرون، ثم تلوّث هذه النعمة بخيانةٍ تظنها صغيرة، لكنها عند الله كبيرة؟!

اقتربت منها بخطواتٍ ثابتة لكن ثقيلة، كأن كل خطوة كانت كالسيف تقطّع في قلبي مسافةً من الألم.

استنجدت بإحدى المراقبات لترافقني، خشية أن يخذلني قلبي في آخر لحظة.

وقفتُ عندها، رفعتُ نظري إليها، فارتبكت، وارتجفت يداها، حاولت أن تُخفي شيئًا بين أصابعها، لكنّ الأوان فات.

مددتُ يدي فأمسكتُ بالسماعة الصغيرة التي كانت تخفيها، وشعرتُ بحرارتها في كفيّ، كأنها جمرةٌ لا أداة. رفعتها عاليًا، ومن دون صوت صرخ قلبي: «أعوذ بالله من الخذلان!»

لم أصرخ، ولم أُعنّف، لكنّ نظرتي كانت أبلغ من الكلام؛

نظرةٌ تحمل الألم والشفقة، وتحمل معها خوفًا عليها من مصيرٍ لا يُحتمل.

رجعت إلى مكاني بخطواتٍ مثقلة، وأنا أتمتم في داخلي:

«أيّ بلاءٍ هذا يا رب؟ أن يُبتلى طالبُ علم بخيانة الأمانة، وهو الذي يتعلّم كيف يُزكّي النفس ويطهّر القلب!»

كان الصمت بعد الحادثة أثقل من أيّ ضجيج.

كدت أن أسمع نبضي أكثر من أيّ صوتٍ في القاعة.

أحسستُ أن شيئًا من جلال المكان قد انكسر، كأن شرخًا صغيرًا أصاب جدار الطهر، فاهتزّ له قلبي قبل أن تهتزّ القاعة.

دعوتُ الله في سري أن يردها إليه رداً جميلاً، وأن لا يفتن غيرها.

لم أكن أعلم حينها أن ما حدث لم يكن مجرد مخالفة تعليمية؛ بل درسًا عميقًا يقودني إلى مواجهةٍ مؤلمةٍ بعد حين، مواجهة من نوع آخر؛ مع نفسي، مع الطالبة، مع الأمانة التي أحملها، حتى مع معنى العلم الذي أُدرّسه!

❐ مواجهة الاعتذار وثِقَل الرسالة

انتهى وقت الامتحان، وبدأت الطالبات يسلّمن أوراقهنّ واحدةً تلو الأخرى، بعض الوجوه كانت تحمل ارتياحًا، وأخرى يكسوها القلق، وأخرى تتنهّد بحمد الله بعد جهدٍ طويل، وأخريات يراجعن إجاباتٍ في الطريق وكأن الوقت لا يزال يسمح لهن بالتصحيح.

وامتلأ الجو بحفيف الأوراق وصوت المقاعد وهي تتحرك استعدادًا للمغادرة

كان المشهد طبيعيًا

إلا قلبي، فلم يكن طبيعيًا أبدًا!

جلست في مقعدي بعد أن جمعت الأوراق، وبين يدي ورقة تلك الطالبة التي أثبتُّ عليها حالتها. وضعت بجوارها السماعة الصغيرة التي كانت وسيلتها إلى الغش. تأملتُها طويلًا، وشعرت بمرارةٍ في قلبي. لم يكن الأمر مجرد ورقة أو جهاز، بل كان جرحًا في مكانٍ طاهر، خيانةً لأمانة العلم، وخذلانًا للثقة التي كنت أضعها في طالباتي.

خَلَت القاعة إلا من المقاعد الصامتة، والأوراق المتناثرة على الطاولة، والهواء الثقيل الذي يحمل أثر الحدث.

جلستُ على المقعد متعبة الجسد، مثقلة الروح.

وبينما أنا أرتّب الأوراق، سمعت طرقٌ خفيف على الباب.

رفعت رأسي فإذا بها هي.

دخلت بخطوات مترددة كأنها تمشي فوق الزجاج، رأسها منخفض، تنظر إلى الأرض وكأنها تبحث عن كلمات تسعفها.

اقتربت ببطء، ووقفت أمامي ثم قالت بصوت خافت يكاد

لا يسمع: «دكتورة أريد أن أعتذر».

نظرتُ إليها مطوّلًا، في وجهها ملامح انكسارٍ حقيقي، وعيناها تتهرّبان من نظري كمن يخشى الحكم قبل السماع.

وضعتُ الأوراق جانبًا، وقلت بهدوءٍ يحمل في طيّاته الحزم:

«اعتذري لنفسكِ أولًا، وتوبي لربكِ، فذنْبكِ ليس لي، بل بينكِ وبين الله».

سكتت، واهتزّت شفتاها ثم قالت متلعثمة: «لكنني معذورة ظروفي صعبة، وأحتاج أن أتخرج، لولا الظروف ما فعلت».

تنهّدتُ بعمقٍ وقلتُ: «وهل الشهادة تُبنى على الحرام؟! وهل النجاح الحقيقي هو أن تحصلي على ورقةٍ من غير حق؟!

كيف تبررين لنفسك أن تنالي شيئًا يغضب الله ثم تتمنين أن يبارك لك فيه؟»

جلست على المقعد أمامي، وضمت يديها بشدة، كأنها تتمسك بحبلٍ أخير. لم تجب، بل تركت صمتها يتحدث عنها.

لم أُرد أن أزيد قسوة الموقف، فخفضت صوتي وقلت:

«أتدركين خطورة الغش؟ أتدرين أن رسول الله قال: «**من غشّ فليس منا**»[(١)]. ؟ أتعلمين معنى هذا الحديث؟

ما فعلتِ ليس من هدي الأمة، ولا من أخلاقها، ولا من ميراث نبيها.

إنها جريمةٌ لا تُسجَّل على الورق، بل في صحائف الأعمال، شاهدة علينا يوم القيامة».

رفعت نظرها بخوفٍ صامت، فتابعت قائلةً بصوتٍ يختلط فيه الألم بالرجاء:

القضية ليست ورقة امتحان، بل نيةُ قلب.

كم من طالبةٍ أخطأت في الإجابة لكن نيتها صادقة، فقبلها الله.

وكم من أخرى أصابت، لكن قصدت بها الدنيا، فكانت من الخاسرين

ألم يقل النبي ﷺ «**من تعلم علمًا مما يُبتغى به وجه الله لا يتعلمه إلا ليصيب به عرضًا من الدنيا لم يجد عَرْفَ الجنة يوم القيامة**»[(٢)].

---

(١) أخرجه الطبراني في (الأوسط) (٩٩٣).

(٢) أخرجه أبو داود (٣٦٦٤)، وابن ماجه (٢٥٢)، وأحمد (٨٤٥٧)

يا الله، ما أشد هذا الوعيد! ليست القضية درجات في ورقة امتحان، ولا نجاحًا في مادة دراسية. القضية أكبر: قضية نية، قضية إخلاص، قضية صلة بين العبد وربه.

أما سمعت بحديث رسول الله ﷺ الذي تتقطّع القلوب عند سماعه: «**إن أول الناس يُقضى يوم القيامة عليه رجلٌ استُشهد، فأُتي به فعرّفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: قاتلتُ فيك حتى استُشهدت. قال: كذبت، ولكنك قاتلت ليقال جريء، فقد قيل. ثم أمر به فسُحب على وجهه حتى أُلقي في النار. ورجلٌ تعلم العلم وعلّمه وقرأ القرآن، فأُتي به فعرّفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: تعلمت العلم وعلّمته، وقرأت فيك القرآن. قال: كذبت، ولكنك تعلمت ليقال عالم، وقرأت القرآن ليقال قارئ، فقد قيل. ثم أمر به فسُحب على وجهه حتى أُلقي في النار**»[1].

أول من تسعر بهم النار يوم القيامة ليس زانٍ ولا سارق؟ بل مجاهد وقارئ للقرآن! لأنه لم يرد به وجه الله! تسعّر النار بأهل العلم والقرآن، حين لم يُخلصوا لله! فكيف بمن يبدأ طريقه بالغش والخيانة؟

---

(١) أخرجه مسلم (١٩٠٥)

رفعت رأسها قليلًا، كأنها تبحث عن عذر جديد.

قلت لها:

«أنتِ طالبة شريعة، من المفترض أن تكوني قدوة لغيرك، تحفظين القرآن، وتروين الأحاديث، وتتعلمين الفقه، ما فائدة العلم إذا لم يمنعك من الوقوع في هذا؟ أما سمعتِ قول الله تعالى:

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾[١].

يا ابنتي، أخوف ما أخاف عليك أن تكوني ممن يعملون بالعلم لأجل الدنيا، لا لأجل الله.

هنا بدأت كلماتي تثقل على مسامعها.

كانت تضع يدها على وجهها بين الحين والآخر، وتهز رأسها ببطء.

ثم سكتُّ قليلًا، وقلت بصدقٍ خافت:

إنني لم أفضحك، ولم أرفع صوتي عليكِ، لأن الله سَتَر، لكن اعلمي أني لو تغاضيتُ عن أمانتي، لخنتُ العلم الذي أحمله.

---

(١) سورة هود: ١٥-١٦

رفعت نظرها وقالت برجاء يائس:

«لكنني أحتاج هذه الشهادة حياتي كلها معلقة بها».

أجبتها وأنا أنظر في عينيها بثباتٍ:

«حياتكِ كلّها متوقفة على رضا الله قبل كل شيء.

ما قيمة شهادةٍ بلا بركة؟ وما جدوى نجاحٍ يُغضِب الله؟

النجاة ليست بدرجاتٍ مكتوبة، بل بصدقٍ مكتوبٍ في القلب.

❐ الدرس الباقي في القلوب

غمر المكان صمتٌ ثقيل، سكتنا قليلًا، والقاعة ساكنة، كأن الجدران تسمع وتشهد.

غادرت القاعة بخطواتٍ بطيئة، وتركت خلفها أثرًا من الأسى في قلبي.

بقيتُ وحدي أحدّث نفسي «هل أعفو عنها؟ أم أرفع أمرها؟ هل أعطيها فرصة؟»

لعلّها تمر، بظرف صعب.

لكنّ جوفي كان يردّد قوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾﴾[1].

---

(١) سورة الأحزاب ٧٢

تأملت في الآية : أشفَقَت السماوات والأرض والجبال من حمل هذه الأمانة خوفًا من عواقب حملها، ولما ينشأ عن التساهل بها من عذاب الله وسخطه وعقابه، وإيثارًا للعافية والسلامة، وبُعْدًا عن التَّبعة، وحملها الإنسان على ضعفه وظلمه وجهله!

وقلت لنفسي: هذه أمانة مسؤوليةٌ عظيمةٌ، وعِبْءٌ ثقيلٌ، إلا على مَن خفَّفه الله عليه، وقد تحملتِ هذه الأمانة، وحملتيها على عاتقك، والتزمتِ بمسؤوليتها، وستُسألين عنها يوم القيامة.

جاءت في مخيلتي الآيات والأحاديث وكأنها رسالة من الله وقفت عند قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمۡ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٢٧﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ وَعَهۡدِهِمۡ رَٰعُونَ ٨﴾[2]، وتذكّرت أن من أشراط الساعة رفع الأمانة من الناس، حتى يبقى الناس لا أمينَ فيهم!

توجّهت لنفسي قائلة: الأمانة هي خشيتك لله بالسر والعلن، هي حفظ حقوق من استُؤمنت عليه، هي عدم التفريق

(١) سورة الأنفال: ٢٧

(٢) سورة المؤمنون: ٨.

بين الطالبات، هي إعطاء كل ذي حق حقه .

وقد أخبر النبي ﷺ «**أن الأمانة والرحم تقومان على جنبتي الصراط، فقال: وترسل الأمانة والرحم، فتقومان جنبتي الصراط يميناً وشمالاً. . . قال: وفي حافتي الصراط كلاليب معلقة مأمورة بأخذ من أمرت به، فمخدوش ناج، ومكدوس في النار، والذي نفس أبي هريرة بيده إن قعر جهنم لسبعون خريفاً**»[(١)] .

وقفت عند هذا الحديث كثيرًا : يا الله تقف الأمانة على الصراط فتكبكب في نار جنهم كل من خانها، وأنا أمينة على ما تحت يدي، ويجب علي أن أقوم بحفظ تلك الأمانة، فإذا فرّطت في الحفظ، فقد خنت الأمانة!

التفتُ إلى نفسي، وقلت: هذه رسالة لك أيضًا، هذه ليست أوراق امتحان فقط، هذه أمانة؛ فكما أن الغش خطر على الطالبات، فإن التساهل في الأمانة خطر على الأساتذة، لو أنني تغاضيت، أو تهاونت، لكنت شريكة في الغش، شاهدة زور على شهادة باطلة.

حينها أدركتُ أن الأمانة لا تُجزّأ، وأن التغاضي عن الغش خيانةٌ بقدر الوقوع فيه.

---

(١) صحيح مسلم (١٩٥).

تذكرتُ قول النبي ﷺ «**لاَ إِيمَانَ لِمَنْ لاَ أَمَانَةَ لَهُ**»[1]، وشعرتُ أن كل أستاذٍ ومعلّمٍ على ثغرةٍ عظيمة، فإن فرّط، ضاع الجيل معه.

رفعتُ الورقة أمامي، كتبت عليها بخطٍ ثابتٍ:

«**حالة غش**»

ثم أغلقت الملفّ، ودمعةٌ ثقيلة تحاول أن تجد طريقها إلى الورق.

رفعتُ الأوراق أمامي استعذت بالله من الشيطان وسألت الله أن يعينني أن أقف الموقف الذي يرضيه، اللهم لا تجعل علمنا وبالًا علينا، ولا تجعلنا من الذين يقولون ما لا يفعلون».

دعوت لها من قلبي: «اللهم تب عليها، وأصلح شأنها، واهدها سواء السبيل».

«يا الله، ما أشد فتنة هذا الزمان! إذا كان الغش يتسلل حتى إلى قاعة العلم الشرعي، فما بال بقية القاعات؟ وإذا كانت طالبة الشريعة، التي تتلو آياتك وتروي حديث نبيك، قد تقع في الغش، فكيف بغيرها ممن لا يعرفون من العلم إلا اسمه؟!»

---

(١) أخرجه أحمد (١٢٥٦٧)، والبزار (٧١٩٦)، وأبو يعلى (٢٨٦٣).

كنت أستحضر النصوص الشرعية التي تعلمتها وأعلمها لبناتي الطالبات. وأقول: نعم، الأمر خطير. فالعلم الشرعي أمانة عظيمة، والله لا يقبل من عباده إلا ما كان خالصًا له.

أخذتُ القلم وكتبت على ورقتها «حالة غش»، وأغلقت الملف، لكن قلبي بقي مفتوحًا على جرح لا يندمل.

خرجت من القاعة متثاقلة، واسيت نفسي: هي صورة منفردة لا تمثل إلا نفسها، لا ينبغي أن تطغى على الصور الجميلة لبقية الطالبات، استحضرت منظر تلك الطالبة التي كنت أسمعها تهمس بالاستغفار، وتلك التي رفعت يديها إلى السماء وهي تدعو الله أن يفتح عليها، وتلك التي كانت ترتجف من رهبة الورقة لكنها لم تفرّط في الأمانة.

وفي الممر عندما كانت الطالبات يتحدثن عن الامتحان، بعضهن يراجعن الأسئلة، وبعضهن يضحكن بخفة بعد توتر الساعات الماضية. نظرت إليهن وقلت: «يا رب، اجعل قلوبهن عامرة بالإخلاص، واحفظهن من فتنة الغش، واجعل شهاداتهن نورًا لهن ولأهلهن يوم القيامة».

ركبت سيارتي، وأخذت نفسًا طويلًا، وغالبت دمعًا أراد أن ينزل، لكنه لم ينزل.

❒ لم أبكِ، لكن قلبي بكى.

لم أظهر ضعفي، لكنني شعرت أنني خرجت من معركة روحية؛ معركة بين الأمانة والخيانة، بين إيثار الدنيا، وتقديم الآخرة، بين العلم الذي يقود إلى الجنة، والعلم الذي قد يسحب إلى النار.

ومنذ ذلك اليوم، كنت كلما دخلت قاعة الامتحان، سألت الله: «اللهم ارزقني وطالباتي الإخلاص والتوفيق، واجعل علمنا حجة لنا لا علينا»، وأصبحت أكرر للطالبات في المحاضرات: يا بناتي، العلم ميراث الأنبياء، لا يناله إلا الصادقون .

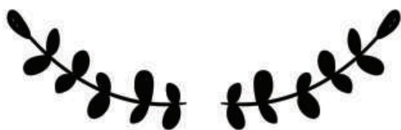
والشهادة التي تُبنى على الغش شهادة باطلة، كبيتٍ بُني على الرمال. قد ينهض يومًا، لكنه سرعان ما يسقط، فلا يبقى منه إلا الخزي والندامة.

ذلك المشهد لم ينسحب من ذاكرتي؛ بل بقي درسًا عميقًا، أحمله كأمانة، وأعيد روايته لطالباتي، وأسأل الله أن يكون فيه تذكرة لهم، ولقلبي قبلهن.





أمي عقتني!



في دروس الفقه، لا تُفتَح الكتب فحسب، بل تُفتَح القلوب على أسرار التشريع،

حيث تتجلّى رحمة الله في أحكامه، ويظهر العدل في أدق تفاصيل الحياة.

❐ درس الفقه

دخلتُ إلى قاعتي الدراسية بخطواتٍ هادئة، وقلبي كان يسبقني بمشاعر مختلفة: مهابة العلم، ورهبة المسؤولية، وحرص على أن يكون هذا اليوم مختلفًا في أثره على قلوب الطالبات.

القاعة واسعة، مقاعدها مرتبة، تتدلى من سقفها مصابيح بيضاء تضيء المكان، وكأنها تريد أن تذكّر كل من يدخلها بأن النور لا يُستمدّ إلا من العلم، وأن العلم الشرعي على وجه الخصوص هو النور الأعظم الذي يُخرج الناس من الظلمات إلى النور.

جلست الطالبات في أماكنهنّ، بعضهنّ يحملن دفاتر ملوّنة

كُتبت على أطرافها آيات وأحاديث، يمسكن أقلامًا بإياديهن، وقلوباً ترتجف شوقًا للعلم.

كنّ يستمعن بأذن القلب قبل أذن الرأس، وكأن كل واحدة منهنّ تقول: «اللهم علّمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، وزدنا علماً».

بدأتُ الدرس، وكان موضوعه دقيقًا، لكنه قريب من واقع الحياة اليومية: النفقة الزوجية، تكلمنا عن حفظ الإسلام للمرأة ومكانة المرأة في الإسلام، قرأت عليهن قوله تعالى:

﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِۚ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [(١)].

قلت: «النفقة حقّ واجب للزوجة على زوجها، إذا بذلت نفسها له في طاعة الله، وأقامت حدود الله في بيتها، وهذا ما دلّ عليه الكتاب والسنة والإجماع».

تلوت عليهن قوله تعالى:

﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُوا۟ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْۚ﴾ [(٢)].

---

(١) سورة النساء: ١٩

(٢) سورة النساء: ٣٤

ثم وقفت عندها قليلًا لأشرح أن القوامة ليست تسلّطًا ولا استبدادًا، بل هي رعاية ومسؤولية، وإنفاق وعطف، وقبل كل شيء أمانة يسأل الله عنها.

ثم أتبعت ذلك بحديث رسول الله ﷺ:

«**اتقوا الله في النساء، فإنكم أخذتموهن بأمان الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله، ولهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف**»[1].

كانت الطالبات يكتبن بتركيز، لكنني كنت ألمح في عيونهنّ أسئلة لم تُكتب بعد، بل تُخزّن في القلب بانتظار لحظة البوح.

انتقلت للحديث عن معنى النفقة المشروطة: فهي واجبة ما دامت الزوجة تبذل نفسها في طاعة الله مع زوجها، تقيم معه البيت على أساس المودة والرحمة،

وبيَّنت لهن أن خير النساء هي التي قال عنها النبي ﷺ «**خير النساء التي إذا نظرت إليها سرَّتك، وإذا أمرتها أطاعتك، وإذا غبت عنها حفِظتك في نفسها ومالها**»[2].

---

(١) أخرجه أبو داود (١٩٠٥)، وابن خزيمة (٢٨٠٩)

(٢) أخرجه النسائي (٣٢٣١)، وأحمد (٧٤٢١).

أما إذا نشزت المرأة بتمردها وترفعها على زوجها، أو امتنعت عن حق زوجها ، فقد أخلّت بما أوجبه الله عليها، وأسقطت حقها في النفقة.

أحسست أن القاعة ازدادت صمتًا، كل واحدة تفكر: كيف يمكن لهذا الحكم أن يُطبّق في الواقع؟ كيف أن كلمة «نشوز» قد تهدم أسرة بأكملها؟

كنت أشرح أن النشوز ليس فقط خروجًا عن طاعة الزوج، بل هو خروج عن طاعة الله أولًا والبيت الذي تُطفأ فيه المودة، ويُستبدل بالكبر والعناد، بيت يعبث به الشيطان، ولذلك جاء الشرع بحزم ورحمة ليصون البيوت من التصدّع ويحفظها من الضياع.

رفعت بصري إليهنّ، ونطقتُ برجاءٍ يملأ صوتي:

«أرجوكن، لا تجعلن هذه المسائل مجرد كلمات تُكتب في دفاتركنّ، بل اجعلنها نبراسًا لحياتكنّ. فالله لم يفرض الأحكام عبثًا، بل فرضها رحمةً بنا، وحمايةً لأسرنا، وصيانةً لقلوبنا».

كانت الوجوه أمامي مختلفة: طالبة تدقق بصرها في السطور، وأخرى ترفع رأسها تفكر في بيتها، وثالثة تسند خدّها بكفها كأنها تغرق في بحر من الذكريات، وكلما نطقتُ

بآية أو حديث، كنت أشعر أن سهامًا من الحق تلامس قلوبًا هنا وهناك.

مع مرور الوقت، امتلأت القاعة بمزيج من العلم والروح. لحظةٌ كانت تمهّد لشيء لم أكن أعلمه: أن الدرس لن ينتهي بانتهاء الشرح، بل سيبدأ بعد خروج الطالبات، مع سؤالٍ سيهزّ قلبي، ويبكي روحي، ويكشف لي عن بيتٍ يتداعى تحت ثقل النشوز والأنانية.

❐ سؤال غير متوقع

انتهى الدرس، وأغلقتُ كتابي، ثم رفعت بصري نحو الطالبات، وجوه تلمع بضياء الفهم، وأيادٍ تُمسك بالأقلام كأنها تتمنّى أن لا ينتهي الدرس، ألقيت عليهم السلام، ودعوت لهنّ بالتوفيق، وبدأت الطالبات بالخروج من القاعة في هدوء، تتبادلن الهمسات، وبعضهنّ يراجعن في دفاترهنّ ما كتبن من الفوائد.

كنت أرتّب حقيبتي للخروج، حين شعرت بخطوات مترددة تقترب مني، التفتُّ فإذا هي طالبة بوجهٍ شاحبٍ، وعينين يلوح فيهما الاضطراب، نظَرَت إليّ نظرة مترددة، ثم قالت بصوتٍ خافتٍ كأنه يستجدي الأمان: «يا دكتورة عندي سؤال».

ابتسمتُ لأشجعها، وأشرت لها أن تقترب.

قالت وهي تحاول أن تخفي ارتجاف صوتها:

«ماذا لو لم تبذل الزوجة نفسها لزوجها؟ ماذا لو كانت ناشزًا؟ هل تسقط نفقتها؟»

كأن السؤال اخترق سكون القاعة، وألقى في صدري حجراً من الحزن.

نظرت إليها، وتأملت ملامحها، فإذا بعينيها تضجّان بدموع محبوسة، وقلبها يخفق بسرعة كأنها تحمل همًّا أثقل من عمرها.

قلتُها بنبرة هادئة لا تخلو من الحزم:

«نعم يا ابنتي، إذا نشزت الزوجة وامتنعت عن طاعة زوجها بالمعروف، فإنها تُحرم من النفقة، لأنها أسقطت حقها بنفسها، والله ﷻ عادل لا يظلم أحدًا. وقد قال تعالى: ﴿فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا۟ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا﴾[1].

وما إن أنهيت كلماتي حتى انفجرت باكية بكاءً مريرًا؛ بكاء لم يكن كسائر بكاء الطالبات حين يتأثرن بكلمة أو

(١) سورة النساء: ٣٤

مشهد، بل بكاء يخرج من أعماق الجرح، من قلب مكسور.

اقتربتُ منها بسرعة، ووضعت يدي على كتفها وقررت أن آخذها معي إلى مكتبي.

سرنا معًا بخطوات بطيئة، وهي تمسح دموعها بطرف حجابها، وأنا أشعر أن قلبي يشتعل بالقلق عليها. أي سرّ وراء دموعها؟ أي وجع أخفته طويلاً حتى فضحه هذا السؤال؟

دخلنا المكتب، وجلستُ بجوارها، وقدمت لها ماءً لتشرب.

هدَأَت قليلًا، ثم رفعت رأسها وقالت بصوتٍ متقطع:

«دكتورة أنا لم أسألك عن حكم فقهي بعيد كنت أسألك عن واقعي، عن حياتي، عن بيتي الذي تحطّم بسبب نشوز أمي».

تجمدت الكلمات على لساني، وشعرت أنني أمام قصة مؤلمة ستفتح بابًا من الدموع لم يُغلق بعد. أمسكتُ بيدها، وأشرت إليها أن تبوح بما في صدرها، فقالت وهي تغالب عبراتها:

«أمي نعم أمي يا دكتورة، هي التي أضاعت بيتنا، أمي ناشز لم تعرف يومًا معنى الطاعة ولا معنى التضحية، كانت

أنانية تحب نفسها فقط، تتكبر على أبي، وتسافر دون إذن، وتنشغل بصديقاتها أكثر من أهلها، حتى نحن بناتها لم ترعنا كما ينبغي، كانت سببًا في طلاقي وأنا في ريعان شبابي».

ثم توقفت لتأخذ نفسًا عميقًا، وكأنها تطعن نفسها بكلماتها، قبل أن تكمل:

«كنت أظن أنني سأتعلّم البر من أمي، وأن أرى في بيتنا معنى الزوجية والرحمة لكنني رأيت العناد، ورأيت الأنانية، أبي يا دكتورة إنسان عظيم، يحاول أن يرضيها بأي شيء، لكنها لا ترضى، بل تزداد غلظة، وتزداد قسوة، لقد علمتني أنتِ في هذا المقرر ما لم تعلمني أمي في سنوات طويلة».

توقفت، وانحنت برأسها على الطاولة، وانفجرت باكية من جديد، حتى شعرت أن المكتب كله يهتز من قوة ألمها.

في تلك اللحظة، أدركت أنني لا أواجه مجرد طالبة تبحث عن معلومة، بل أواجه قلبًا محطمًا يبحث عن دواء، كنت أستمع إليها، ودموعي تكاد تسبقها، لكنني تماسكت وتنفستُ بهدوءٍ

وهمستُ بصوت خافت يملؤه الحنان:

«يا ابنتي أعلم أن الوجع حين يأتي من الأم، يكون أوجع من أي وجعٍ في الدنيا، فالأم مأمن القلب، فإذا اهتزّ هذا

المأمن ضاع التوازن؛ لكن لا تجعلي خطأها يُنبت فيكِ قسوة، بل اجعليه درسًا تنبت به رحمة.

اصبري، واحتسبي، واذكري أن الله لا يضيع أجر الصابرين، أمّك، مهما بدت لك بعيدةً أو قاسية، فهي لا تزال أمك، بابك إلى الجنة، ومن أغلقت بابها على خطأ، فباب الدعاء ما زال مفتوحًا لها.

ادعي لها لا عليها، وناجي ربك أن يُلين قلبها ويهديها، فربّ كلمةٍ منكِ صادقةٍ خرجت من قلبٍ نقيّ، كانت سببًا في هدايتها.

وتذكّري، أنك قادرة أن تكوني نقيض ما رأيتِ، أن تبني بيتًا يملؤه الرفق والسكينة، أن تكوني زوجةً صالحةً وأمًّا حنونًا تعبُد ربّها في بيتها قبل أن تعبده في محرابها.

واجعلي من ألمكِ سلّمًا نحو نضجك، ومن دموعكِ وضوءًا يطهّر روحك، فالله يبتلينا لا ليكسرنا، بل ليُخرج منّا أجمل ما فينا».

كانت تسمعني، لكن دموعها لم تتوقف، فزاد يقيني أن قصتها أعمق مما روت، وأن خلفها فصولًا ستكشف مع الأيام.

❒ بوح الأسرار

كان الجو في المكتب ثقيلًا، والصمت ممتزجًا بصوت بكائها المتقطع، كأن كل دمعة تحمل تاريخًا من الألم لم يعرف له دواء.

جلستُ بجوارها، أترك لها مساحة لتتنفّس، وأصغي بقلبٍ قبل الأذن.

رفعت رأسها بعد لحظات، وقد احمرّت عيناها من شدّة البكاء، ثم قالت بصوتٍ مبحوح:

«دكتورة أنتِ لا تتصورين ما عشته في بيتٍ تقوده امرأة ناشز أمي قتلت في داخلي معنى الأمان».

قلت برفق:

أدرك حجم الألم، وأسأل الله أن يصلح والدتك ويجبر قلبك.

تنهدت تنهيدة طويلة، كأنها تُسقط عن صدرها حملًا ثقيلاً، ثم بدأت:

«كنت صغيرة أراقب والدي، رجل طيب، حنون، يحاول أن يرضيها بكل ما يملك، يشتري لها ما تريد، يسافر معها حيث تحب، يتغاضى عن كثير من أخطائها، لكنه كان دومًا

يلقى صدًّا وجفاءً. أمي كانت لا ترى إلا نفسها همها صديقاتها، ملابسها، سفراتها، لم تكن ترى في أبي إلا خادمًا لرغباتها».

سكتت قليلًا ومسحت دموعها، ثم أضافت:

«كنت أتألم وأنا أرى أبي ينكسر صامتًا، كبرتُ وأنا أشعر أنني أعيش في بيتٍ بلا قدوة، بلا حنان أم، أمي لا تهتم بنا نحن بناتها، كل ما يهمها كيف تبدو أمام الناس، كيف تتفاخر أمام صديقاتها».

ثم نظرت إليّ بعينين دامعتين وقالت:

«وحين كبرتُ وتزوجت حملت في داخلي جرحًا لم أُدرك حجمه إلا يوم اصطدمت بواقع زواجي. كنت أبحث عن الحنان في زوجي الذي حُرمت منه عند أمي، لكنني لم أجد ما أبحث عنه كنت ضعيفة في مواجهة مشاكل الزواج، وأمي لم تكن سندًا لي؛ بل كانت هي السبب في طلاقي».

شهقتُ دهشة: «كيف؟»

قالت بحزن:

«كنت أعود إليها أبثها همومي، فأجدها تزيد النار اشتعالًا، لم تكن تنصحني بالصبر ولا بالحكمة، بل تقول: دافعي عن نفسك، لا تتركي له الكلمة، أنتِ أولى بالراحة،

لا ترضي بالقليل، حتى دفعني كلامها لأتشاجر مع زوجي في كل صغيرة وكبيرة، حتى وصلنا إلى الانفصال».

غصّت الكلمات في حلقها، ثم أكملت:

«طُلِقت وأنا في ريعان عمري وكنت أظن أن أمي ستحتويني، ستخفف عني؛ لكنني وجدت أنانيتها تحيط بي من جديد، كل ما يهمها هو مظهرها بين صديقاتها، لم تفكر يومًا كيف أعيش، كيف أتحمّل، كيف أبدأ من جديد".

وضعتُ كفّي على يدها، كانت باردةً كقلبٍ أرهقته الخيبات، ونظرتُ إليها بعطف يمزج الحنان بالألم، ثم نطقتُ بكلمات تجمع بين دفء الأم وهيبة المعلّمة:

«أدرك يا حبيبتي أن ليس هناك أشدَّ وجعًا من أن ينكسر القلب في حضنٍ خُلق ليكون مأمنه. الأم حين تخطئ، لا تدرك أحيانًا حجم ما تزرعه من ندوب، لكنها تبقى أمًّا، يبقى فيها خيطٌ من الرحمة لا ينقطع، مهما غطّاه الغبار.

ربما لم تتعلم كيف تحب، أو لم تجد من يعلّمها كيف تكون أمًّا كما ينبغي، فلا تحاسبيها بقسوة،

اغفري لها يا حبيبتي، فالعفو شفاءٌ للروح، والدعاء جسرٌ يصل ما انقطع.

كوني أنتِ امتدادًا أنقى، نموذجًا أصلح، الأم التي تحتضن حين تُخطئ، والزوجة التي تبني بالرفق لا بالعناد.

تذكّري دائمًا: الجراح التي تصبرين عليها اليوم، هي التي تصنع فيكِ غدًا امرأةً تعرف كيف تداوي لا كيف تجرح».

انفجرت تبكي مرة أخرى وهي تقول:

«والله يا دكتورة تعلمت منك في مقرر واحد ما لم أتعلّمه من أمي في سنوات! أمي لم تعلمني معنى البر، ولا معنى الصبر، ولا معنى الزوجية أمي عقّتني يا دكتورة! عقّتني وهي لا تدري، أليست الأم أحق الناس برعاية ابنتها؟! أليست هي المدرسة الأولى؟! لقد خذلتني».

كان قلبي يتمزّق وأنا أسمع كلماتها.

لأول مرة أرى طالبة بهذا الانهيار أمامي، تحمل في صدرها جراحًا صنعتها يد أقرب الناس إليها. شعرت أن عليّ أن أقول شيئًا يطفئ نارها، أو على الأقل يخفف من لهيبها.

فقلت:

«يا ابنتي، أعلم أن ما مررتِ به ليس هيّنًا، لكن تذكري قول الله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾[1]. البر واجب ولو قصّرت هي أمك وإن أخطأت،

---

(١) سورة الإسراء: ٢٣

فلها حق الدعاء والرحمة، لا تحملي حقدًا عليها، بل اجعلي من ألمك دافعًا لأن تكوني مختلفة عنها».

نظرت إليّ بدهشة، وقالت بانكسار:

«لكنها دمرت حياتي!»

أجبتها:

«قد تكون دمرت شيئًا من دنياك، لكن لا تجعليها تدمر آخرتك. برّك بها عبادة، وصبرك عليها رفعة، واحتسابك أجر عند الله لا يضيع. قال رسول الله ﷺ «**ليس الواصل بالمكافئ، ولكن الواصل من إذا قُطعت رحمه وصلها**»[1]، فكيف بالوالدة؟»

سكتت، وأخذت نفسًا عميقًا، كأن كلامي لامس شيئًا في قلبها، لكنها لم تُجب.

في داخلي، كنتُ أقول:

ما أقسى أن تجرح الأم ابنتها، وما أصعب أن تكون القدوة سببًا في الانكسار! لكن الله رحيم، يبدل الألم قوة، والجراح عبرًا، والدموع تربية لا تنسى.

---

(١) ا أخرجه البخاري (٥٩٩١)

❑ دروس من الألم

ظلّت الطالبة تجلس أمامي، والدموع تلمع في عينيها، كأنها لا تعرف إن كانت هذه الدموع ستمحو شيئًا من أحزانها، أو ستزيد قلبها وجعًا، كان الصمت بيننا ثقيلًا، حتى قطعتُه بصوتٍ هادئ، محمّلٍ بالشفقة:

«يا ابنتي، نحن لا نختار أهلنا، ولا نصنع أقدارنا، لكننا نُختبر فيهم، قد يبتليك الله بوالدةٍ مقصّرة، أو أبٍ عاجز، أو بيتٍ مكسور، لتكوني أنتِ الشاهدة على الصبر، والقدوة في البر».

مسحت دموعها وقالت: «لكنني يا دكتورة أحس أنني احترقت من الداخل، أحيانًا أبغضها أقول في نفسي: لماذا كانت أمي هكذا؟ لماذا لم تُربّني على الصلاح؟ لماذا لم تصن بيتها وزوجها؟»

ابتسمتُ بحزنٍ وقلت:

«هذا السؤال الطبيعي من قلب مجروح لكن الجواب ليس في (لماذا)، بل في (كيف أتعامل الآن). الله تعالى يقول: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَـٰنًا﴾ [1]، لم يقل إن كانا صالحين،

---

(١) سورة الأحقاف: ١٥

أو بارّين، أو قائمين بحقوقك... بل أطلق الأمر بالإحسان، لأن البر عبادة لكِ أنتِ، يُرفع بها عملك، ويُزكّى بها قلبك».

أطرقتْ برأسها، فأكملت:

«انظري إلى أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها، جاءتها أمها قُتيلة وهي مشركة، تسألها الرفد والصلة، فاستفهمت أسماء من النبي يا رسول الله، إن أمي قدمت وهي راغبة، أفأصِلُها؟ فقال: «**نعم، صلي أمك**»[1]، هذه أم مشركة، ومع ذلك وصلت أمها، فما بالك بأمك المسلمة، وإن قصّرت أو ظلمت؟»

شهقت الطالبة، كأن النص هزّ قلبها.

ربّتُّ على كتفها وقلتُ بنبرة هادئة:

«قد تخطئ أمك، وقد تسيء، وقد تدمرك بعنادها وأنانيتها؛ لكن طريقك إلى الله لا يمر إلا من بوابة البر، لعل الله أن يجعل دموعك اليوم كفارة، وأن يرفع بها درجتك غدًا».

ساد صمتٌ قصير، قبل أن أتابع حديثي قائلة:

«ولا تنسي أباكِ، يا ابنتي، ذاك الرجل الذي وصفته

---

(١) أخرجه البخاري (٢٦٢٠)، ومسلم (١٠٠٣)

بالعظيم، الذي حاول بكل جهده أن يحافظ على بيته، لكنه اصطدم بأنانية زوجته، أليس أولى بالبر والدعاء؟ أليس أولى بأن تكوني له سندًا بعد أن خذلته شريكة العمر؟»

أطرقت برأسها وبدأت دموعها تنزل في هدوء، هذه المرة بلا شهقة ولا نحيب، بل دموعًا أقرب إلى الاستسلام والسكينة.

همست لها:

«أتدرين يا ابنتي؟ ربما قدّر الله أن تُحرمِي من برّ أم صالحة، لتكوني أنتِ الأم الصالحة يومًا ما، ولتكوني الزوجة التي تحفظ بيتها وزوجها، فلا يتكرر الألم في جيل جديد».

رفعت رأسها إليّ، وقالت بصوتٍ مرتجف: «أيمكن أن يكتب الله لي بركة جديدة بعد كل ما خسرته؟»

ابتسمتُ وقلت:

«بل هذا وعد الله .﴿إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦﴾[1]. وقد يكون طلاقك بداية حياة أنقى، وقد يكون ألمك سببًا لهداية غيرك، وقد تكون دموعك اليوم شفيعة لك غدًا».

---

(١) سورة الشرح: ٦

عندها انفجرت تبكي مرة أخرى، لكن هذه المرة كان بكاءً من نوع آخر... بكاءُ توبةٍ وقرار.

خرجت من مكتبي ذلك اليوم، وأنا أشعر أن المحاضرة لم تكن مجرد درس في النفقة الزوجية، بل امتحان حقيقي في النفقة العاطفية، في الوفاء، في معنى البر، في تحويل العلم إلى حياة.

أيقنتُ أن القاعة ليست دائمًا مكانًا للشرح فقط، بل قد تتحول إلى محراب تربية، وإلى عيادة للقلوب، وإلى نقطة تحوّل في مصير إنسان.

• **ومضة:**

خرجت الطالبة من مكتبي، وما زالت كلماتها تطرق قلبي طرقًا شديدًا.

كنتُ أستعيد تفاصيل حديثها: أمٌّ ضيّعت بيتها، وأضاعت زوجها وأولادها، وانبهرت بزخارف زائفة، فضاعت الأسرة كلها. كانت تلك القصة بمثابة صفعةٍ توقظني وتوقظ كل من يسمعها: كم من بيوتٍ تهدمت، وقلوبٍ تحطمت، وأبناءٍ تشردوا لا بسبب الفقر ولا المرض؛ بل بسبب أنانية امرأة، أو كبرياء رجل، أو غياب الوعي بحقوق الله وحقوق العباد.

جلستُ أراجع نفسي وأقول:

«كم نحتاج أن نصرخ في وجه هذا الواقع: اتقوا الله في بيوتكم، اتقوا الله في أزواجكم وأولادكم، اتقوا الله في الأمانة التي استودعكم الله إياها!».

❑ رسالة إلى الزوجات والأمهات

يا أيتها الزوجة يا من زُففتِ يومًا بثوبٍ أبيض، ورفع الناس أكفهم لك بالدعاء، أتُراكِ نسيتِ أن الله جعلك سكنًا لزوجك، ورحمةً لأبنائك؟! أتراكِ استبدلت نعيم البيت بزخارف الأسواق، وصديقات السوء، وسفرٍ لا يُثمر إلا قسوةً في القلب؟!

إنكِ إن أهملتِ بيتك، فلن يهدم بيتك وحدك، بل ستُهدم معه قلوب أطفالك، وستُدفن معه أحلامهم الصغيرة. أتدرين أن النبي ﷺ قال: «**كلكم راعٍ وكلكم مسؤول عن رعيته، والمرأة راعية في بيت زوجها ومسؤولة عن رعيتها**»[(١)].

فيا أيتها الزوجة إياكِ أن تكوني سببًا في ضياع زوجٍ صالح، أو كسر قلب ابنٍ بار، أو تشريد بنتٍ غضة طرية تحتاج حنانك. واعلمي أن الله سيسألك عن كل تقصير، كما

---

(١) أخرجه البخاري (٢٥٥٤)، ومسلم (١٨٢٩)

قال تعالى: ﴿وَقِفُوهُمْۖ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ۝٢٤﴾[1].

❒ رسالة إلى الأزواج والآباء

ثم يا أيها الأزواج كم من بيوت انهارت لأن الرجل لم يكن حازمًا في قيادة سفينته! جعل زوجته تتحكم في البيت بما تشتهي، أو تتركه يعصف بها الهوى، ثم يظن أن الصبر على الانكسار فضيلة.

الرجل قوام على أهله، ومسؤول عن رعيته. قال الله تعالى: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْۚ﴾[2].

فلا قوامة بظلم، ولا تهاون في الحقوق، ولا ضعف أمام نزوات الآخرين.

❒ رسالة إلى الأبناء والبنات

أما أنتن يا بناتي، وأبنائي إن البيوت قد تُبتلى بأمٍّ مقصّرة أو أبٍ عاصٍ، لكن هذا لا يعفيكم من البر. قال الله تعالى: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَاۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًاۖ﴾[3] هذا في حال الشرك، فكيف إذا

---

(١) الصافات: ٢٤

(٢) النساء: ٣٤

(٣) سورة لقمان: ١٥

كان تقصيرًا أو ظلمًا أو أنانية؟!

لا تسمحوا لأنانية أحد أن تُورثكم قطيعة أو عقوقًا، ولا تكرروا أخطاء آبائكم وأمهاتكم في حياتكم الجديدة، تعلموا من التجارب، واصنعوا بيوتًا تقوم على التقوى، والرحمة، والعدل.

❐ جرح في القلب

قصة تلك الطالبة كانت جرحًا في القلب، لكنها أيضًا كانت درسًا بليغًا. علّمتني أن الشريعة ليست أوراقًا في الكتب، بل واقعًا في البيوت. وأن علم الفقه الذي ندرسه عن النفقة والحقوق الزوجية، ليس نظريات جافة، بل حياة ومصائر وأقدار.

وذكّرتني بقول الله تعالى:

﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ ٣٠﴾[1].

فما يحدث في البيوت من فتن ونزاعات، إنما هو أثر تقصيرنا في حق الله، وبعدنا عن هديه.

خرجتُ من هذا الدرس، وأنا أهمس لكل من يسمع هذه

---

(١) سورة الشورى: ٣٠

القصة، لا تنتظروا أن ينهار بيتكم لتتعلموا، لا تنتظروا أن تبكي ابنتكم في حضن غريب لتبوح بأسراركم. عودوا إلى بيوتكم، أصلحوا ما بينكم وبين الله، يصلح الله ما بينكم وبين خلقه، واعلموا أن من ضيّع الأمانة، سيقف يومًا أمام الواحد الديان، ليسأله عن الزوج الذي أهمله، والولد الذي قهره، والبيت الذي خذله.

ثم تذكرت حديث النبي ﷺ «**إن الله سائلٌ كل راعٍ عما استرعاه: أحفظ أم ضيّع؟ حتى يسأل الرجل عن أهل بيته**»[1]، فيا الله أي قلب ينجو يومئذ إلا من اتقى؟! «**اللهم أصلح بيوت المسلمين، وألّف بين قلوب الأزواج والزوجات، واجعل أبناءنا قرة أعين لنا**».



(١) أخرجه النسائي في «السنن الكبرى» (٩١٧٥).

في دار القرآن



عض القصص لا تبدأ بخطوةٍ سريعة، بل بزحفٍ بطيءٍ على طريقٍ من نور، تمشيه القلوب لا الأقدام، حتى تصل بعد سنين إلى فرحة تُشبه الحلم.

❐ المرحلة التمهيدية

لم تكن تلك الخطوة سهلة عليّ في بدايتها، حين أخبرتني المشرفة في دار القرآن أنني سأُكلَّف بتدريس فصلٌ المرحلة التمهيدية لكبيرات السن، شعرت بشيء من التردد في داخلي.

لم أعتد أن أشرح لنساء كبيرات في العمر؛ اعتدت أن يكون حديثي موجَّهًا للشابات، ممن يسايرن سرعة الشرح ويستوعبن دقائق المعاني، كنت أرى أن ما أحمله من معلومات وأسلوب يناسب عقولًا فتية، لا قلوبًا قد شاخت وأرهقها الزمان.

لكن مشرفة الدار ألحّت علي:

«هذا هو المقرر المخصص لك، ونحتاجك فيه» حتى لم أجد مجالًا للاعتذار.

حملت كتبي ودفاتري، وتهيأت للدخول إلى الفصل.

❐ بساطة تذيب القلب

دخلت بخطوات ثقيلة، وفي نفسي شيء من الضيق، كأنني مقبلة على مهمة لا تليق بي ولا أليق بها.

غير أني ما إن فتحت الباب، حتى وقعت عيني على وجوه وضاءة، فيها من البساطة ما يذيب القلب، وفيها من الهيبة ما يجبرك على التقدير.

مسنّات في العقد السادس والسابع، وبعضهن تخطين السبعين، وهن جالسات بأدب جمّ، يتهيأن للدرس كأنهن بنات في مقتبل العمر ينتظرن معلمتهن، قلت في نفسي: «اللهم أعني، وبارك لي في هذا اللقاء».

بدأت أشرح مترددة، أختار كلماتي بعناية، أراقب ملامحهن لأتأكد: هل تصل المعلومة؟ هل تفهمها عقول أثقلها الزمان؟ لكن سرعان ما وجدت تجاوبًا لم أتوقعه.

كنّ يملن برؤوسهن موافقة، يبتسمن بإشراق، يتلقين كل جملة بشغف، حتى كأن كلماتي تنزل على قلوب عطشى.

مرّت أيام معدودة، وإذا بي أجد نفسي متعلّقة بهنّ، أنتظر اللقاء بشوق، وأطلب من المشرفة أن تجعل لي نصيبًا ثابتًا من تدريسهن كل فصل!

لم أعد أراها مهمة ثقيلة، بل صارت هدية من الله.

كيف لا؟ ودعوات المسنات أثمن من الذهب، وأغلى من كل متاع الدنيا.

كم من مرة رفعت إحداهن يديها في وسط الدرس وقالت: «الله يفتح عليكِ يا بنتي، الله يبارك في علمك»؛ فتسري الدعوة في قلبي كالنور، تبهجني بقية يومي، وتزيدني إصرارًا أن أبذل لهن ما استطعت.

كنّ يختلفن عن الشابات في كل شيء.

حديثهنّ بطيء، أسئلتهنّ بريئة، تضحكك أحيانًا وتبكيك أحيانًا أخرى.

ذات يوم كنت مندمجة في الشرح، وإذا بإحداهن ترفع يدها مقاطعة:

«يا بنتي كم رقم هاتف والدتك؟ عندي ولد ناوي يخطب!»

ابتسمت بارتباك وقلت لها: «بارك الله فيكِ يا خالة، لكني متزوجة وعندي طفلان».

ضحكت النسوة في القاعة ضحكة صافية، وارتفعت الهمسات والدعوات، وانكسر الحاجز بيننا أكثر.

صرت أشعر أنني بين أمهاتي وجدّاتي، لا بين طالبات ومعلمة.

كنت أرى فيهنّ صورة عجيبة من الزهد والبساطة.

لم يعد يغرهن من الدنيا شيء، لكنهن مجاهدات في طلب العلم، لا يفوتهن درس ولا يتأخرن عن الحفظ.

تحمل الواحدة منهن مصحفها القديم البالي، وقد التصقت أوراقه ببعضها من كثرة التلاوة، وتجلس الساعات الطوال تردد الآيات بصوت متهدج.

كنت أحيانًا أتأمل: كيف لهؤلاء النسوة، وقد شابت رؤوسهن، أن ينافسن على ميراث النبوة؟! كيف لقلوبٍ أثقلها الزمان، أن تبقى مشتعلةً بحب القرآن؟! حينها أدركت أن فضل الله لا يُقاس بالعمر، ولا يُحدّ بالسنين، بل هو عطاء يرزقه الله من شاء من عباده.

❒ زاد روحي

يوماً بعد يوم، تغيرت مشاعري تمامًا.

لم أعد أستصعب الدرس، بل صرت أراه متنفَّسًا لي.

كانت مواقفهنّ تمر عليّ مثل الماء البارد على قلبٍ عطشان.

لم تكن دروسًا عادية، بل كانت حياةً جديدة أتعلمها من بساطتهنّ، من صبرهنّ، ومن إصرارهنّ على التعلّم.

كنت أعود إلى بيتي وأتذكر كلماتهنّ وضحكاتهنّ ودعواتهنّ، فأشعر أنني خرجت من الدار محمَّلة بزاد روحي لا يوازيه زاد، كل دعوة منهنّ كانت كالمصباح يُضيء طريقي، وكل ابتسامة كانت كالبلسم يداوي مشقة التعليم وتعب الأيام.

ومن بين تلك القلوب الطيبة، كانت هناك حكاية فريدة ستبقى محفورة في ذاكرتي ما حييت.

❑ بركة القرآن

لم يكن درسي لهن مجرد تلقين آيات أو شرح أحكام تجويد، بل كان مجلسًا من مجالس الذكر، كنت كلما جلست بينهنّ أشعر أني في رحاب جنة صغيرة، محفوفة بالملائكة، تظللها سكينة عجيبة.

القرآن كان يضفي على وجوههن نورًا لا يخفى، نورًا ليس من زينة الدنيا، بل من أثر الوصال بكتاب الله.

كنت أرى المسنات وهن يتلعثمن أحيانًا في القراءة، يحاولن نطق الكلمة الصحيحة بجهد، فأتذكر حديث النبي ﷺ «**الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة، والذي يقرأ القرآن**

ويتعتع فيه وهو عليه شاق له أجران»[1]، أقول في نفسي: هؤلاء هنّ أهل الأجرين، جاهدن أنفسهن على كبر سنهن، فكتب الله لهن ثواب المجاهدين.

إحدى الجدّات كانت تعاني من ضعف بصرها، ومع ذلك ترفض أن تفوّت درسًا واحدًا.

كانت تأتي ومعها حفيدتها الصغيرة لتقرأ لها بصوت عالٍ، وهي تردد وراءها ببطء شديد.

مشهدها يعلّمني درسًا في أن حب القرآن لا يعرف عذرًا، ولا يشيخ مع السنين.

وأخرى، كانت تأتي متكئة على عصاها، كل خطوة تُشبه مجاهدة، ومع ذلك تجلس أول الحاضرات، وتقول لي كل مرة: «يا بنتي، القرآن حياتي وقوتي».

كلماتها كانت كالسهم يخترق قلبي، أي إيمان هذا؟ أي يقين هذا؟!

❐ أثر القرآن

كنت أرى كيف غيّر القرآن حياتهن، قبل الدار كنّ نساءً

---

(١) أخرجه البخاري (٤٩٣٧) بلفظ مقارب، ومسلم (٧٩٨) باختلاف يسير.

عاديات، يقضين أيامهن بين بيوتهن وأحفادهن. لكن بعد أن دخلن رحاب القرآن، صرن كأنهن وُلدن من جديد.

انشغلت قلوبهن بآيات الله، وصارت ألسنتهن لا تفتر عن التسبيح.

❑ ما أروع أثر القرآن!

كان يمحو من قلوبهن وحشة الوحدة، ويبدد عن صدورهن غبار الهموم. كنّ يأتين إلى الدار بوجوه يعلوها التعب، ويخرجن بوجوهٍ مشرقة، كأن القرآن غسل قلوبهن من كل كدر.

كنت أحيانًا أسألهن في وسط الدرس: «ما الذي جعلكن تصبرن على الحفظ مع هذا الكبر؟» فتجيب إحداهن: «الآخرة يا بنتي، نحن نريد أن نلقى الله بكلامه».

وتقول أخرى: «أحب أن أتقرب إلى الله بكلامه».

تلك الكلمات البسيطة، الخارجة من أفواهٍ صادقة، كانت تربي قلبي قبل أن تربي عقلي.

لقد أيقنت أن بركة القرآن لا تُنال بكثرة المعلومات، بل بصدق التوجه، وبالعمل بما نتعلم.

ومن المواقف التي لا أنساها: أنني كنت أشرح يومًا

تفسير آية: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ﴾[1]. فإذا بإحداهن ترفع يديها وتقول: «اللهم ارزق بنتي هذه سعادة الدنيا والآخرة». فغلبني البكاء من حرارة الدعوة، وأحسست كأن أبواب السماء فُتحت لتدخل منها تلك الكلمات الطاهرة.

هكذا كانت دروس القرآن معهن، لم تكن مجرد حفظ أو مراجعة، بل كانت حياة متجددة، كانت لي مدرسة في الصبر والرضا والزهد. كنت أخرج من الدرس وقد امتلأ قلبي يقينًا بأن هذا الكتاب المبارك لا يترك أثرًا في النفوس إلا وزادها نورًا وطمأنينة.

❑ حين يشيخ الجسد ويزهر القلب

وفي غمرة تلك البركات التي كانت تتنزّل كالغيث على دور القرآن، لاحت في الأفق قصةٌ تُضيء القلوب قبل العيون؛ قصةُ امرأةٍ مسنّة بلغت الثانية والثمانين من عمرها، لتُعلّمنا أن الهمة لا تشيخ، وأن الطريق إلى الله لا يُقاس بالأعمار، بل بصدق النية وتوفيق الرحمن.

كنت أدرّس كعادتي في قاعةٍ تضجّ بأصوات المسنات اللواتي تعلّقن بكلام الله، فإذا بالباب يُفتح فجأة، وتعالت أصوات التكبير والتهليل، وكأنني أمام مشهد تاريخي لن أنساه.

---

(١) سورة غافر: ٦٠

رفعتُ رأسي أترقّب، فإذا بامرأةٍ مسنّةٍ تدخل بخطى بطيئة، تستند إلى عصاها، وكان وجهها تكسوه التجاعيد، لكنّه يشرق بنور الطاعة، كأنّ كلّ آيةٍ حفظتها تركت أثرًا في ملامحها.

همست إحداهن بجانبي: «اليوم نحتفل بها لقد ختمت القرآن».

توقفت يدي عن ترتيب الأوراق، وسألت بدهشة:

«ختَمَت القرآن؟!»

قالت أخرى:

«نعم بعد تسع سنوات كاملة من الحفظ المتواصل».

اقتربت منها أسلّم، فإذا بها أمّ كبيرة تجاوزت الثانية والثمانين من عمرها، ضعيفة البنية، ظهرها محني؛ لكن قلبها كالجبل قوة وثباتًا.

سألتها:

«كيف ختمتِ؟»

فابتسمت وقالت:

«يا بنتي تسع سنوات مضت كأنها تسع ليالٍ، كنت أجلس كل يوم مع حفيدي الصغير، يشغّل لي الراديو على سورة من القرآن، فأردد خلفه حتى أثبت الحفظ، لم يكن بصري يعينني

كثيرًا، ولا سمعي قويًا، لكن كان عندي قلب يريد الله، ولسان لا يشبع من ترديد آياته».

وقفت مذهولة أمامها. أي عزيمة هذه؟! امرأة هذا العمر، ومع ذلك ختمت القرآن بعد تسع سنوات من المثابرة.

تسع سنوات وهي تردّد وتراجع، لا لشيء إلا لتلقى الله وقد ختمت كتابه في صدرها.

كانت تتحدث بلهجة البسطاء، لكنها تحمل معاني العارفين. قالت:

«كلما ضاق صدري من الدنيا، أفتح المصحف وأردد الآيات، فإذا قلبي يصفو كالماء الزلال. القرآن أهون عليّ من الطعام والشراب»

ثم دمعت عيناها وهي تضيف:

«أنا ما أردت شهادة ولا سمعة، أردت فقط أن ألقى الله بكلامه، وأقول يوم القيامة: ربي، هذا كلامك تعلمته في كبر سني فاغفر لي به».

❐ سر التوفيق

تلك الكلمات التي قالتها: «ما أردت شهادة ولا سمعة، أردت أن ألقى الله بكلامه» لا تزال ترن في أذني. لقد بينت لي

أن الإخلاص هو مفتاح كل خير. وصدق رسول الله ﷺ إذ قال: «**من تعلم علمًا مما يُبتغى به وجه الله لا يتعلمه إلا ليصيب به عرضًا من الدنيا، لم يجد عَرْف الجنة يوم القيامة**»[(١)].

كان المشهد أكبر من أن يُوصف، نظرت إلى الطالبات وإلى المسنات حولها، فإذا الدموع تنحدر من أعينهن.

كأنّ كل واحدة منهن وجدت في كلماتها رسالةً خاصة إليها، تفتح في داخلها بابًا من نور.

ذلك النور الذي لا يمنحه الله إلا لمن أخلص في حفظ القرآن وتلاوة القرآن والانشغال بالقرآن، ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ۝٤٠﴾[(٢)]. نورٌ يحيي القلوب بعد موتها.

أدركتُ حينها أن الحياة لا تُقاس بطول السنين، بل بما عُمّر منها بالقرآن، فمن جعل القرآن رفيق عمره، أحياه الله به في الدنيا قبل الآخرة، كما قال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾[(٣)].

---

(١) أخرجه أبو داود (٣٦٦٤)، وابن ماجه (٢٥٢)، وأحمد (٨٤٥٧)

(٢) سورة النور: ٤٠

(٣) سورة الأنعام: ١٢٢

ذلك النور هو تلاوةٌ تُحيي القلب، وتغرس في النفس معنى الربح الحقيقي، لا ربح المال ولا المدح، بل ربح القرب من الله.

تلك التلاوة هي التجارة التي لا تعرف الخسارة، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ يَرۡجُونَ تِجَٰرَةٗ لَّن تَبُورَ ٢٩﴾[١].

هي تجارةٌ مع الله، تجارةُ القلوب التي لا تُقاس بالأرقام، بل تُوزَن بصدق الإيمان؛ رأسُ مالها الإخلاص، وربحُها العاجلُ سكينةُ القلب ورضا الرب.

ولذلك كان ابن مسعود رضي الله عنه يقول: «من أراد العلم فَلْيُثَوِّرِ القرآن، فإن فيه علم الأولين والآخرين»[٢].

فهي لم تحفظه لتنال به مكانة بين الناس، ولا لتُقال عنها حافظة، وإنما لتجد فيه حياتها ومعناها في هذه الدنيا.

في تلك اللحظة، تذكرت حديث النبي ﷺ:

«**يقال لصاحب القرآن: اقرأ وارتق ورتل كما كنت ترتل في**

---

(١) سورة فاطر: ٢٩

(٢) أخرجه الطبراني (٩/ ١٣٦) (٨٦٦٦)، وأحمد في (الزهد) (٨٥٦)، والخطيب في (الفقيه والمتفقه) (١/ ١٩٦) بلفظه.

الدنيا، فإن منزلك عند آخر آية تقرؤها»[1].

فقلت في نفسي: سبحان الله! هذه المسنّة لم تكتفِ بأن تحفظ بعض السور لتتلوها في الصلاة، بل صبرت تسع سنوات حتى أتمت القرآن كله، لتُدعى يوم القيامة فتصعد في منازل الجنة مع كل آية.

إنها همة لا يعرفها إلا من ذاق لذة القرآن.

لو كانت همتها للدنيا لقالت: «لقد كبرتُ، والوقت فات، والعمر انتهى». لكنها آمنت أن الوقت مع القرآن لا يضيع أبدًا، وأن من أقبل على الله صادقًا عوّضه الله من حيث لا يحتسب.

ثم أخبرتني أنها كانت تحفظ في الليل، عندما ينام أهل البيت، تسمع الآية وترددها عشرات المرات حتى تثبت في قلبها. أحيانًا تعيدها وهي تغسل أو تطبخ أو تخيط ثوبًا. قالت: «كنت أردد السورة حتى وأنا أضع رأسي على الوسادة، فأحلم بها في نومي».

---

(١) أخرجه أبو داود (١٤٦٤)، والترمذي (٢٩١٤)، والنسائي في (السنن الكبرى) (٨٠٥٦)، وأحمد (٦٧٩٩)

تلك الكلمات جعلتني أشعر أني أمام مدرسة حقيقية؛ مدرسة اسمها: «الإخلاص والمجاهدة».

لم تكن تحمل شهادات عليا، ولم تدرس في الجامعات، لكن عندها من الصدق ما يجعل قلوبنا جميعًا تتعلم.

ولم يكن حفظها للقرآن مجرد إنجازٍ شخصي، بل صار بركة على بيتها وأحفادها. قالت لي حفيدتها الصغيرة: «يا دكتورة، نحن إذا أخطأنا في البيت تقول لنا جدتي: لا، هذا خطأ، هكذا قال الله في كتابه».، حفيدها الصغير صار يقرأ القرآن معها، وأبناؤها صاروا يفتخرون بها، وجاراتها يتحدثن عن قصتها.

لقد تحولت إلى قدوة حيّة تقول للناس جميعًا:

«القرآن لا يعرف عُذر الكبر ولا ضيق الوقت، إنما يعرف الصدق والمجاهدة».

في ختام الاحتفال، طلبتُ منها كلمة تنصح بها زميلاتها من الحافظات والمبتدئات، فرفعت يدها المرتجفة وقالت:

«يا بناتي، القرآن لا يطلب إلا قلبًا صادقًا. لا تقولوا كبرت أعمارنا، ولا تقولوا ضاع وقتنا. والله لو بقي في العمر يوم واحد، فاحفظوا فيه آية تكون حجة لكم لا عليكم».

كان في صوتها المتهدّج دفءٌ لا يشبه صوتًا سواه، دفءُ من ذاق حلاوة القرب من الله بعد طول مجاهدة، كان كالرعد يطرق القلوب، وكالنور يضيء الدروب.

شعرت أن كل ما قلته من دروس طوال سنواتي التدريسية لا يساوي جملة من جملها.

❑ حياة الأرواح

حين خرجت من دار القرآن ذلك اليوم، لم يكن خيالي يبارح صورة تلك المسنّة ذات الاثنين والثمانين عامًا. كنتُ أستعيد ملامحها، ابتسامتها المشرقة، ودموعها وهي تحكي رحلتها مع كتاب الله.

وكنتُ أهمس داخلي: «سبحان من جعل كلامه حياةً للقلوب، ونورًا في الظلمات، وبركةً تمحو عناء السنين».

لقد علمتني قصتها أن القرآن ليس مجرد كتاب نقرأه، بل حياةٌ تُسكب في الأرواح.

أليس الله تعالى يقول:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾[1].

---

(١) سورة الأنفال: ٢٤

نعم، القرآن يُحيي من جفّت أرواحهم، ويُعيد للقلوب نبضها حين تكلّفها الحياة.

هذه المرأة بلغت من العمر عتيًّا، جسدها وهن، وسمعها ضعف، لكن قلبها حيّ بالقرآن.

تأملتُ في حالها كانت أقوى من كثيرٍ من الأصحّاء؛ قلبها ممتلئٌ بالعزيمة، وروحها معلّقةٌ بالسماء، لا تفتر عن التلاوة، ولا تملّ من الذكر.

فتذكرت حديث النبي ﷺ «**خير الناس من طال عمره وحسن عمله**»[(١)].

فقلت: هذه المسنّة لم يطل عمرها فحسب، بل زيّنته بما هو أبهى من الزينة؛ عمرٌ مملوءٌ بآياتٍ تُتلى، ودعواتٍ تُرفع، وساعاتٍ تُعاش في ظلّ الطاعة والأنس بالله. فما أجملها من حياة!

ثم نظرت في حال كثيرٍ من الناس إذا بلغوا الكِبَر، غلبهم الملل والشكوى، ووهنت عزائمهم عن الثبات على الطاعة.

---

(١) أخرجه الترمذي، أبواب الزهد عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء في طول العمر للمؤمن (٤/ ٥٦٥)، رقم: (٢٣٢٩)، وأحمد (٢٩/ ٢٢٦)، رقم: (١٧٦٨٠).

إن البقاء على عهد الله، والوفاء بالعقود التي بين العبد وربّه، والثبات على الإيمان إلى آخر العمر، أمرٌ لا يبلغه إلا من صبر وثبت، وصدق مع الله في سيره إليه.

أما هي، فكلما داهمها الحزن لجأت إلى القرآن، وكلما أحسّت بالوحدة استعانت بصوت التلاوة. كان القرآن أنيسها في الوحشة، ودواءها عند الضيق، كما قال عثمان بن عفان رضي الله عنه: «لو طهرت قلوبنا ما شبعت من كلام ربنا»(١).

قال ابن القيم رحمه الله معلِّقاً-: «فالقلب الطاهر لكمال حياته ونوره وتخلّصه من الادران والخبائث لا يشبع من القرآن، ولا يتغذى إلا بحقائقه، ولا يتداوى إلا بأدويته»(٢).

كنت أستحضر في كل ذلك قول النبي ﷺ «**يجيء صاحب القرآن يوم القيامة، فيقول: يا رب حلّه، فيلبس تاج الكرامة. ثم يقول: يا رب زده، فيلبس حُلّة الكرامة. ثم يقول: يا رب ارض عنه، فيرضى عنه فيقال له: اقرأ وارق، ويزاد بكل آية حسنة**»(٣).

---

(١) فضائل الصحابة للإمام أحمد (٧٧٥).

(٢) إغاثة اللهفان (١/ ٥٢).

(٣) أخرجه الترمذي (٢٩١٥) باختلاف يسير، وأحمد (١٠٠٨٧) مختصراً.

• ومضة:

هذه المسنّة لم تكن في أعين الناس سوى امرأةٍ طاعنةٍ في العمر، تمضي أيامها بين مصحفٍ مفتوح وسُجادةٍ مطوية. لكن من عرف سرّها علم أن روحها تعيش في عالمٍ آخر، عالمٍ يأنس فيه القلب بكلام الله، وتذوب فيه الهموم مع كل تلاوة.

هنيئًا لهذه الغالية ما كُتب لها من الحسنات مع كل آيةٍ كانت ترددها في ليلها ونهارها.

إنها ليست مجرد قصة مسنّة ختمت القرآن، بل درس عميق يعلّم أن الطريق إلى الله لا يُغلق إلا إذا أغلق القلب بابه، وأن الطريق مفتوح لكل من صدق، صغيرًا كان أو كبيرًا، قويًا أو ضعيفًا.

خرجتُ من دار القرآن ذلك اليوم ويتردد في قلبي قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[1]. نعم، القرآن هو البشارة، هو الحياة، هو البركة، ومن أراد السعادة في دنياه وآخرته، فليجعل للقرآن حظًا في قلبه.

---

(١) سورة الإسراء: ٩

حتى كدت أن أطير!



ليست الأمّ مجرّد مخلوقٍ عظيم في الحياة، بل هي روحُ الحياة حين تتجسّد في صورة إنسانٍ.

تسكن أمّي تفاصيل أيّامي الصغيرة؛ في نظرةِ الطمأنينة حين أنجح، وفي دعوةٍ صادقةٍ تُرافقني حيثما ذهبت، هي الحضور الذي لا يُغادر وإن سافرت، والصوت الذي يبقى صداه في قلبي وإن سكت.

❒ أمّي لا تشبه أحدًا

حين أكتب عنها، لا أكتب عن امرأةٍ فحسب، بل عن ركنٍ من أركان وجودي.

أمّي ليست صفحةً من الماضي، بل كتابي المفتوح كلَّ يوم،

هي الجملة التي تسبق كلَّ حديثٍ جميل، والسند الذي اتكئ عليه مهما تبدّلت الأحوال.

كنتُ إذا عدتُ من مشاغل الدنيا، وجدتها كما تركتها،

تنتظرني بلا ضجرٍ ولا ملامة، كأنّها وعدٌ من رحمة الله لا يتبدّل.

ما إن أراها حتى ينهار التعب في جسدي وتستقيم فوضاي

دون أن تقول شيئًا،

هي تعرف كيف تلمّ شعثي بنظرة، وكيف تبعث في روحي الطمأنينة بلمسةٍ على يدي.

❑ دفء الأمومة

ما بيني وبينها ليس حكايةً عاديّة؛ هو خيطٌ ممتدٌّ من نورٍ بين قلبين، خيطٌ يربطني بالحياة، وآخر يذكّرني بالله كلّما سمعتُ صوتها.

وأوّل من رأيتُها تبتسم عند الهمّ؛ فإذا بابتسامتها تشرق في قلبي هدايةٌ تغلب الألم.

منذ طفولتي، لم تكن أمي تكثر الحديث، لكنها كانت تملأ الحياة بالمعنى.

تعلّمني بالسكوت أكثر مما تعلّم بالكلمات، وتربّي بالنظرة أكثر مما تربي بالوصية.

كان تُزرع الموعظة في القلب دون خطبة.

❑ حين تهمس الدعوات

هي المرأة التي لا يثنيها المرضُ عن الدعاء، ولا يشغلها التعبُ عن السؤال؛ تتذكّرنا في كل سجود،

وتدعو لنا في الصباح قبل تمام النور، كثيراً ما رأيتها تسجد طويلًا، تُهمس بأسمائنا واحدًا واحدًا؛

لقد تعلّمتُ منها أن الدعاء لا يحتاج مناسبة، وأن العطاء قد يكون صمتًا أو كلمةً أو نظرةً أو قبلة على خد ابنة كبرت ولم تكبر في قلب أمّها.

هي امرأةٌ جعلت من الأنس بالله أسلوبَ حياة، ومن الرحمة لغةً لا تحتاج ترجمة.

لم تكن تتكلّم كثيرًا عن الصّبر؛ لكنها تعيشه،

تُخفي وجعها كي لا نحزن، وتدعو لنا في ليلها، وهي التي تحتاج الدعاء.

كلّما نظرتُ إليها رأيتُ معنى الأمان كما أراده الله لنا، لا كما تُصوّره الدنيا.

أحسب أن الإيمان في قلبها كان يسبق كلامها.

وحين تضيق الأمور، كان صوتها يُعيد ترتيب تفاصيل أيامنا؛ كأنها تسكب في قلوبنا طمأنينةً الأنس بالله.

نبرتها تذكّرني أن البلاء زائل، وأنّ لي في الدنيا صدرًا يتّسع لكلّ ضيق.

أستعيدُ في نفسي إجلالَ الصالحين لأمّهاتهم: موقف طَلْقَ بنَ حبيب رَحِمَهُ ٱللَّهُ كان لا يمشي على ظهر بيتٍ وأمُّه تحته إجلالًا لها[(١)]؛ فأقول: كلّ ما أنعمَ الله به عليَّ فلها فيه

---

(١) بر الوالدين، لأبي بكر الطرطوشي، صـ ٣٨

نصيب، وكلَّما استشعرتُ فضل الله علي تذكّرتُ أمّي.

وموقف عبيد الله بن عمير لما سأل عن حمله أمه على رقبته من خراسان حتى قضى بها المناسك، هل أجزأها فقيل له لا، ولا زفرة واحدة[1]؛ فتذوب نفسي حياءً؛ كيف أُدرك حقّها ولو حملتُ الدنيا على كتفيّ لها؟

❐ الأم وتبدل المعاني

الأمّ ليست حنانًا فحسب، بل منهجُ حياةٍ في الصبر والاحتساب.

معها تبدّل معنى القوّة: كنتُ أظنّ القوّة في المواجهة، فإذا بها تعلّمني أن القوّة في العفو.

كنتُ أظنّ السعادة في الإنجاز، فإذا بها تريني أن السعادة في الرضا.

في حضنها عرفتُ معنى السكن؛ ذلك السكن الذي لا تصنعه الجدران؛ بل القلوب.

إذا غبتُ عنها يومين شعرتُ أن التفاصيل تتناثر حولي؛ كأنّ حياتي تفقد ترتيبها حين تغيب أمي.

كلامها يرمّم في داخلي حوادث الأيام، في نبرتها دفءُ يقين، وفي سكونها نورُ صبر.

---

(١) انظر: مكارم الأخلاق، لابن أبي الدنيا، مكتبة القرآن: القاهرة، ص ٧٨.

كم مرّة أنقذَتْني من قرار خاطئ بنظرة أو سؤال بسيط: هل استخرت ربّك؟ فتسكن نفسي، وأعيد ترتيب قراراتي.

❑ حين يرنّ الهاتف

وحين يرنّ الهاتف ويظهر اسمها، يراودني حنينٌ لا يُوصف، أردّ فأسمع ذلك اللحن الذي لا يُشبه أحدًا، تسأل عن الحال، فإذا اطمأنت وضحكت أذابت الجليد في قلبي؛ ضحكةً لو سُقيت بها الجبالُ لأزهرت. يا الله، كم أنا محظوظةٌ بهذه النعمة التي تمشي على الأرض؛ ما زالت تدعو لي، وتنتظرني، وتفرح بي.

وأستعيد حديث النبي ﷺ «**رغم أنف رجلٍ أدرك والديه عند الكِبَرِ أو أحدهما ثم لم يدخل الجنة**»[1]، يوقظ الحديثُ في قلبِي رهبةً رقيقة؛ ليس تهديدًا بقدر ما هو فتحُ بابٍ عظيم لمن أراد الجنّة وهي تمشي حوله.

فأتمسّك بكلِّ مكالمةٍ كأنها عمرٌ جديد، الحديث مع الأم عبادة، والإنصات إليها طمأنينة، وكلُّ لحظة بقربها شكرٌ لله على تمام النعمة.

يمرُّ في قلبي قولُ الله تعالى: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ﴾[2]، فأفهم أن العبادة بشكر البارئ سبحانه بطاعته،

---

(١) صحيح مسلم (٢٥٥١)

(٢) سورة لقمان: ١٤

ومن العبادة الشكر لوالديّ بالإحسان إليهم.

وحين تغلق المكالمة، أنظرُ إلى اسمها المُضيء على الشاشة فأشعر أني أنظر إلى باب الجنة. أتمتم: اللهم اجعل رضاها طريقًا لرضاك، واحفظها بحفظك، وأطل في عمرها على الطاعة.

ما من يوم إلا ولها في قلبي حضور، وفي يومي صوت، في كل صباحٍ وفي المساء قبل أن يهدأ الليل .

❐ هكذا يكون عند أمّه!

كم مرّةً اتصلت بي في مجلسِ درسٍ فاعتذرتُ عن الدرس ورددتُ عليها؛ مهما بلغت مشاغلي، إذا رنَّ الهاتف وظهر رقمُ أمّي أو أبي اعتذرتُ من الجميع لأُجيب.

تذكّرتُ حَيوةَ بن شُرَيْح -وهو من أئمّة المسلمين- كان يجلس يعلّم الناس، فتقول له أمّه: «قم يا حيوةُ فألقِ الشَّعيرَ للدجاج»، فيقوم ويترك التعليم، فأقول في نفسي: ما قيمةُ علمٍ يُضيّع برًّا؟!

وأسمع ما رُوي عن محمد بن سيرين رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنّ رجلًا دخل عليه وهو عند أمّه فرآه خافضَ الصوت كأنه يتضرّع، فقيل: أيشتكي؟ قالوا: لا، ولكن هكذا يكون عند أمّه![1] فأقول

---

(١) مكارم الأخلاق، لابن أبي الدنيا، مكتبة القرآن: القاهرة، ص ٧٧.

لنفسي: ما أحلى التذلّل للوالدة؛ ﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ﴾[1]؛ تعبيرٌ لطيفٌ يبلغ شغاف القلب؛ رحمةٌ وتلطّفٌ حتى كأنّها ذُلٌّ لا يرفع عينًا ولا يردّ أمرًا. ومهما علت بك المنزلة، أمِرتَ بخفض الجناح لهما.

وحين كنتُ أقصّر عنها في الاتصال؛ لانشغالٍ ما، يسكنني ضيقٌ لا أدري له سببًا، كأنّ شيئًا من البركة غاب عن يومي، إلى أن تبادرني باتصالها.

وأذكر نفسي بحديثه ﷺ «الوالدُ أوسطُ أبوابِ الجَنّة، فإنْ شِئتَ فأضعْ ذلك البابَ أو احفظْه»[2].

فأضمّ الهاتف إلى نفسي بعد مكالمتها، كأنّي أضمّ بابًا من أبواب الجنّة، وأعاهد نفسي ألّا يغيب صوتُها عن صباحي ومسائي.

أتأمل بقوله تعالى: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا﴾[3]، وأقول سبحان من جعل الوصيّة مطلقةً لا تُقيَّد بحال ولا تُعلّق بشرط إحسانٌ يليق بمن كان سببًا لوجودي بعد الله.

---

(١) سورة الإسراء: ٢٤

(٢) أخرجه الترمذي (١٩٠٠) واللفظ له، وابن ماجه (٣٦٦٣)، وأحمد (٢٧٥٥١).

(٣) سورة النساء: ٣٦

❐ مدرسة صامتة

أمي لم تكن تحمل شهاداتٍ، لكنها كانت مدرسةً صامتة.

تقرأني كما تُقرأ السطور الواضحة في ضوء النهار.

تعرف فرحي من سلامي، وحزني من نظرتي.

وحين تضع يدها على رأسي، أشعر أن الله يبارك برضاها يومي.

كأنّ الله جعل في صوتها طمأنينةً لا تُنال إلا برضاها.

❐ همسات السماء

ما من علاقةٍ تُشبه علاقتي بها؛ ليست أمًّا فحسب، بل صديقتي التي أستشيرها في أبسط تفاصيل يومي، ونَسَمةُ الراحة التي تُطفئ ضجيج الحياة من رأسي.

وحين رزقني الله بأبنائي، رأيت فيها وجهًا جديدًا من الرحمة،

صارت أمًّا لي ولهم معًا، تسأل عنهم واحدًا واحدًا،

تُعلّمهم الأدب قبل العلم،

كانت تقول: «صلاحهم صلاحك، وإن أحببتهم لله أحبّك الله بهم».

وتدعو بأسمائهم كما لو كانت تحفظ أنفاسهم.

حين أسمع صوتها تدعو لي ولأبنائي،

أشعر أن الدنيا كلها تتسع.

أقول في نفسي: ما دام هذا الدعاء يصعد، فلن يضيع لنا طريق.

ومع مرور الأيام، صرتُ أرى أثرَ عنايتي بها في أولادي؛ حين يرونني أقبّل رأسها وأنصت إليها يبتسمون؛ كأنّهم يتعلّمون دون أن أقول.

وفي نهاية اليوم، حين أرى أولادي نائمين، أتذكّر كيف كانت تسهر لأجلي؛ وأدرك أن البرَّ لا يُؤدّى بالشعارات بل حين نعيش معناه: أن يكون الله حاضرًا في حبّنا لأمهاتنا؛ فنحبّهنّ لا لأنهنّ أعطيننا الحياة فحسب، بل لأنّ الله أودع حبَّهنّ في قلوبنا ليختبر صدقَنا في الطاعة.

قال هشام بن حسّان للحسن البصري: أتعلّم القرآن وأمّي تنتظرني بالعشاء فقال له الحسن: «تَعَشَّ معها؛ تقرّ عينُها؛ أحبُّ إليّ من حجّةٍ تطوّعًا»[(١)]؛ فهمتُ حينها أن سرّ التوفيق أن تُسرَّ أمّك.

أتأمّل قولَ الله تعالى: ﴿حَمَلَتۡهُ أُمُّهُۥ كُرۡهٗا وَوَضَعَتۡهُ كُرۡهٗاۖ﴾[(٢)]، لم يقل مشقّة بل قال كُرهًا؛ كأنّ الألم بلغ الغاية، ومع ذلك

---

(١) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع (٢/ ٢٣٣)

(٢) سورة الأحقاف: ١٥

سمّى هذا العناء إحسانًا؛ لأنّ الله يرى في معاناة الأمّ عبادةً خفيّة لا يعلمها إلّا هو! وهل جزاءُ الإحسانِ إلا الإحسان؟

❐ رمضان لا يشبه سابقه

لم يكن رمضانُ ذلك العام يشبه سابقيه، البيت ساكنٌ على غير عادته، والقلق يمرّ في زواياه كنسمةٍ غريبةٍ لا تُرى، في اليوم الأول، عادت أمي من الطبيب متعبةً على غير عادتها، وجهها هادئٌ لكن عينيها تخفيان شيئًا لا يُقال.

ثم بكت، ذلك البكاء الذي يشقّ القلب دون صوت، كأنها تعتذر لله قبل أن تعتذر لنفسها: «فطّرني الدكتور لعلّ ذنوبي منعتني من الصيام!»

تلك الجملة وحدها كانت درسًا في العبودية؛ رخصةٌ شرعيةٌ وافرة، ومع ذلك قلبٌ يتأدّب مع الله. ترددت في قلبي آيةٌ كأنها جاءت لتطيب خاطرها: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾[1]، قلت لها وأنا أمسح دمعتها: الله يعلم نيّتك، ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ﴾[2].

ذكّرتها بقول النبي ﷺ: «**إذا مرض العبد أو سافر كُتب له مثل ما كان يعمل صحيحًا مقيمًا**»[3].

---

(١) سورة البقرة: ١٨٤

(٢) البقرة: ١٩٧

(٣) أخرجه البخاري (٢٩٩٦)

ابتَسَمَت وقالت: الحمد لله وأمر الله كله خير.

❒ الخبر الذي هزّ الجدار

بعد أيامٍ من التحاليل، جلسنا في غرفة الطبيب.

كان صوته هادئًا كمن يريد أن يُخفي الحقيقة فلا يقدر.

قال وهو يتجنب النظر في عيوننا: «التحليل واضح المرض الخطير والانتشار واسع»

لم أفهم الكلمة الأولى، لكن كلمة «منتشر» بقيت ترنّ في رأسي كجرسٍ لا يتوقف.

نظرتُ إلى أمي، فرأيت شيئًا يشبه الثبات، كأنّ الصدمة لم تُفاجئها؛ بل استقبلتها كما يُستَقبل ضيفٌ ثقيل.

لمحت دمعةٌ انحدرت من طرف عينها، ثم قالت بهدوءٍ مهيب:

«الحمد لله على كل حال، أمر الله كله خير»

تذكّرتُ قوله ﷺ: «**عجبًا لأمر المؤمن، إن أمره كله له خير، وليس ذلك لأحدٍ إلا للمؤمن، إن أصابته سرّاء شكر فكان خيرًا له، وإن أصابته ضرّاء صبر فكان خيرًا له**»[1].

كان لسانها يردد: إنا لله وإنا إليه راجعون،

---

(١) أخرجه مسلم (٢٩٩٩)

نظرتُ إليها بدهشةٍ لم تخلُ من ألم، كيف وُفِقت لأن تحمد الله في أول الصدمة؟ كيف تذكر الله وتحمده حين يتحدث الطبيب عن الانتشار والعلاج الطويل والاحتمالات الصعبة؟

كنتُ أقرأ عليها وأستعيذ بالله في سري.

التفتُّ إلى أمي، فإذا بها تشدُّ على يدي وتقول بوجهٍ ساكنٍ: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا﴾[1].

لم أدرِ حينها: من يُعلِّم من؟ أنا التي أحفظ النصوص، أم هي التي تُجسّدها؟!

❑ الهيبةُ والوجع

بدأ الوجع يعلو موجتَه، صوتها أخفضُ من العادة، أنفاسُها أقصر.

ومع ذلك، كلّما سألتُها، قالت: «عندي يقين إن ربي بيشفيني؛ لكن اسألوا الله أن يصبرني على الألم، أمّا البلاء نفسه، فالحمد لله، وأمر الله كله خير».

تذكّرت قول الله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٥٥ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ١٥٦﴾[2].

---

(١) سورة التوبة: ٥١

(٢) سورة البقرة: ١٥٥-١٥٦

في غرفة المستشفى، كانت السكينة أثقل من الأجهزة.

أجلس عند سريرها أعدُّ أنفاسها؛ كلُّ شهيقٍ كأنه حياةٌ تُمنح لي، وكلُّ زفيرٍ كأنه خوفٌ ينتزع من قلبي. وإذا خرجتُ إلى الممرّ رفعتُ يدي« :اللهمّ لا تُرني فيها بأسًا».

❐ معركة الصبر

غداً جرعات الكيماوي،

جرعة!؟ الكلمة وحدها كافية لأن تسحب الدم من وجهي.

دخلت الجرعة كما يُسمّيها الأطباء، كأنها معركةٌ قصيرةٌ في يومٍ طويل.

جلستُ أقرأ عليها ما تيسّر.

دخلتُ معها غرفة الكيماوي للمرة الأولى، والبرد في الغرفة يلسع أطرافنا.

جلسَت على المقعد الأبيض، وحين رُبط الأنبوب بيدها، ارتجف قلبي أكثر مما ارتجفت يدها.

كانت تتنفس ببطء، تغلق عينيها وتردد:«يا الله، أنت الشافي، لا شفاء إلا شفاؤك».

ما إن بدأ السائل يسري في عروقها حتى تغيّر لون وجهها، كانت تتألم ألماً شديداً

شعرتُ كأن شيئًا يشتعل فيها.

تقلَّبَت على المقعد، تماسكت، ثم أمسكت يدي وقالت بصوتٍ مبحوح: «الله كريم»

ثم همَستُ في أذنها أستمدّ الصبر منها:

يا أمي، قال تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾[1].

بدأت تردد بصوتٍ ضعيف:

«اللهم إني أسألك باسمك القوي أن تقويني»

كنت أعضّ شفتي كي لا أبكي أمامها، لكن قلبي ينهار في داخلي.

كم من مرةٍ خرجتُ إلى الممر لأخفي دموعي، ثم أعود إليها بابتسامةٍ مصطنعة!

كنت أرى وجعاً يُقطّع ملامحها، ومع ذلك تبتسم لي كمن يعتذر عن الألم.

في تلك اللحظات، تذكّرتُ قول الإمام أحمد حين سُئل: متى يجد العبد طعم الراحة؟

فقال: عند أول قدم يضعها في الجنة[2].

وقلت في نفسي: أمي ذاقت تعب الدنيا، فارفع عنها وارزقها النعيم المقيم في الآخرة.

---

(١) النحل: ١٢٧

(٢) «طبقات الحنابلة» ٢/ ٢٩٠

تذكرت موقف أسامة بن زيد لما كانت النخلة تبلغ بالمدينة ألفًا، فعمَد أسامة بن زيدٍ إلى نخلةٍ فقطعها من أجل جمارها، فقيل له في ذلك، فقال: إن أمِّي اشتَهَتْه عليَّ، وليس شيء من الدنيا تطلُبُه أمي أقدِرُ عليه إلا فعلتُه[1]، تكلّم قلبي قبل لساني: والله لو طلبتِ عيني يا أمي لما ترددت؛ تمنيت لو أني أملك شيئا أقدمه لها، لم أستطع أن أفعل شيئًا سوى أن أرفع يدي وأقول كما قال يعقوب عليه السلام: ﴿إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾[2].

❐ تكرّر الألم

تكررت الجرعات، وتكرّر معها مشهد الألم، كنتُ أرى أمي تذوب شيئًا فشيئًا، حين تسري الإبرة في عروقها، يبدأ الجسد في ارتجافٍ خفيّ، كنت أراها تغمض عينيها، فتتقلص ملامحها كمن يعبر بحرًا من نار، ثم ما تلبث أن تهدأ، كأنها تُسكن الوجع بآيةٍ تحفظها عن ظهر قلب.

كانت أصابعها الهزيلة تسبّح بذكر الله، وكأن أنفاس الإيمان ترويها لتعبر الوجع.

كأنّ كل خليةٍ تستغيث، وكل عصبٍ يئنّ، لكن الشفاه تسبق الألم بالذكر: «الحمد لله، الحمد لله الله أرحم، وأمر الله كله خير».

---

(١) مكارم الأخلاق، لابن أبي الدنيا، مكتبة القرآن: القاهرة، ص ٧٦.

(٢) سورة يوسف: ٨٦

سمعتها تقولها عشرات المرات، بنفس الثقة، حتى مع اشتداد الألم،

كان الفرق فقط في ارتفاع النبرة عند اشتداد الألم،

حتى صار من حولها من أطباءٍ وممرضاتٍ - غير مسلمات -يسألونها بدهشة: لماذا تكثيرين من حمد الله رغم الألم؟!

فتجيب بثقةٍ من يعرف الطريق: «أحمد الله لأني مؤمنة به، أحمد الله الذي وفقني للدعاء،

أحمد الله على أن بلائي لم يكن في ديني، وأحمد الله على كل حال»

كانت كلماتها تسكن القلوب رغم الألم، أما أنا، فكنتُ كلما سمعتُها أزداد خجلًا من صبري الناقص، وأقول في نفسي: «اللهم إنا نسألك من اليقين ما تُهوِّن به علينا مصائب الدنيا».

وظلّت أمي تواجه المرض بطمأنينةٍ غريبة، كأنها تعرف سرًّا لا نعرفه.

وحين يشتدّ عليها الوجع، تغمض عينيها وتهمس في سكونٍ مهيب:

«لا حول ولا قوة إلا بالله، اللهم اجعل هذا الألم سببًا للقرب منك».

كان الكيماوي يُطفئ لونها، لكنه لا يطفئ نورها،

ويُضعف جسدها، لكنه لا يُضعف يقينها.

كانت تتلوى من الألم بصمتٍ مهيب، صمتٍ لا يشكو، ولا يطلب، كأنها تقول بلسان الحال:

«يا رب، هذا الجسد منك، وإليك يعود».

لم يكن المشهد موجعًا فقط لأنها تتألم، بل لأنه كان يذكّرني بحقيقةٍ يغفل عنها كثير من البشر: أن الإنسان مخلوقٌ ضعيف، كما قال تعالى: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾[1].

ضعيفٌ أمام المرض، ضعيفٌ أمام الفقد، ضعيفٌ أمام قدر الله، مهما أوتي من علمٍ أو قوة.

لكن هذا الضعف ليس نقصًا، بل هو سرّ التكريم الإلهي؛ لأنّ من عرف ضعفه صدق في لجوئه إلى الله، ومن أدرك عجزه استمدّ من الله قوته.

لقد رأيت في ضعف أمي صورة القوة الحقيقية؛ قوة الإيمان حين يواجه الجسد المنهك، وقوة القلب حين يثبت على الحمد في وجه الألم.

أيقنتُ يومها أن أعظم ما يملكه المؤمن ليس صلابته، بل خضوعه، وأن أقرب لحظات العبد إلى ربّه هي تلك التي يرفع فيها يديه منكسرةً، ليقول من أعماق قلبه: «لا حول ولا قوة إلا بالله».

---

(١) سورة النساء: ٢٨

فالقوة ليست في احتمال الوجع، بل في الرضا بالقضاء،

وليست في كتمان الدمع، بل في يقين أن الله يرى ويسمع،

وأن من اعترف بضعفه بين يدي الله، منحه الله من قوته ما يعجز عنه الأقوياء.

❒ وذاب قلبي يا أمي!

ذاب حين رأيتك تتألمين بصمتٍ وتبتسمين،

حين علمتُ أني لا أملك لك إلا الدعاء،

وأن الطبيب يملك الدواء لا الشفاء.

كنت أرى وجعك يذيبني كما تذيب النار الشمع،

وأقول في نفسي:

يا رب، لو جاز أن يُفتدى أحدٌ بأحد، لفديتها بعمري كله.

❒ غياب الكبد

بعد الجرعة بأيام، اختلطتْ الأمور؛ وتعثّر الكلام.

جاء الطبيبُ بصوت خافت: **توقّف الكبد عن العمل**، هي الآن في غيبوبة كبد، والحالة حرجة جداً!

غابت عن الدنيا التي كانت تملأها بالذكر والدعاء.

غابت لأيام؛ لكنّ أثرها لم يغب، كنتُ أسمع صدى

دعواتها،

أستشعر أثرها في السكينة التي كانت تحيطني رغم الوجع.

كانت تلك الغيبوبة امتحانًا طويلًا، كل لحظةٍ كنتُ أستعيد مواقفها،

كل نصيحةٍ، كل كلمةٍ، وكل مرةٍ نادتني فيها بلهفة الأم

شعرت أن قلبي خُلع من مكانه.

دخلتُ غرفتها أجرّ أقدامي، وضعتُ رأسي على صدرها، همستُ لها:

«أمي، سامحيني إن قصّرت، يا رب لا ترني فيها بأسًا».

تذكّرت قول الله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ﴾ (١).

فقلتُ في نفسي: يا رب، أمي حملتني وهنًا على وهن، فاحمل عنها الآن ما بها من الضعف، واجعل وجعها كفّارةً ورحمة.

وقفت عند رأسها طويلا، مر في خاطري موقف مِسعَر بن كِدام: لما استسقَتْ أمُّه منه ماءً في الليل، فقام فجاءها به وقد نامت، وكره أن يذهب فتطلبه ولا تجده، وكره أن يوقظها،

---

(١) سورة لقمان: ١٤

فلم يزل قائمًا والإناء معه حتى أصبح؛[1] فأقول في نفسي ليتني أنتظرها إلى الصباح فتقوم.

في كل صباحٍ كنتُ أستيقظ على صوت الهاتف من المستشفى، قلبي يسبق يدي إلى الإجابة،

أخاف من الصمت أكثر مما أخاف من الكلام.

كنتُ أرى في عيون إخواني سؤالًا واحدًا لا يجرؤ أحد على نطقه:

«هل اقترب الوداع؟»

وحين خرج الطبيب ذات مساء وقال بصوته الجافّ:

«الأمر بين يدي الله استعدّوا وأدعوا أهلها للسلام عليها ربما حانت ساعة الوداع».

❐ تجمّد الزمن.

لم أسمع بعدها شيئًا.

رأيت إخواني ينهارون بصمتٍ،

ورأيت نفسي أقف كمن فُقدت منه الروح.

اقتربتُ من سريرها، أمسكت يدها الباردة قليلًا،

في تلك الليلة، لم أنم.

---

(١) مكارم الأخلاق لابن أبي الدنيا ص ٧٧.

كنت أستعيد حياتي معها مشهدًا مشهدًا،

كل صباحٍ كنا نتحدث فيه،

كل كلمةٍ منها نسيتها في زحمة الأيام،

كل نظرةٍ حملت لي حبًّا لم أقدّره حينها كما ينبغي.

وعلمتُ حقًّا معنى قوله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا﴾[1].

كانت هذه الآية هي ملجئي كلّما رأيت ضعفها،

فما أعظمها من آيةً، وما أقصر العمر في إدراكها.

تردّد في أعماقي صوتٌ: ما أعظم دين البرّ، وما أضعف وفاءنا مهما فعلنا!

❐ السفر للعلاج

حين تحسّن وضعها قليلًا، قرر الأطباء سفرها للعلاج في الخارج.

كانت تلك الكلمة وحدها كافية لتفتح في قلبي باب الخوف.

في صباح السفر، بدا البيت كأنه يتهيأ لغياب روحه.

الكل كان يودعها باعتصار قلب، أمّا والدي فكان كمن

---

(١) سورة الإسراء: ٢٤

ينتزع منه نصف قلبه، كانت زوجته ورفيقة عمره التي تقاسمت معه تفاصيل الأيام الصغيرة والكبيرة، فإذا به يودّعها اليوم وكأنما يسلّم جزءًا من روحه للطائرة. كانت نظراته ساكنة، لكنها تحمل ألف اضطراب، وصمته أثقل من الكلام.

حاول أن يبدو مطمئنًا أمامنا، لكن يديه المرتجفتين فضحتا ما يعتصر قلبه من خوف، لم تكن المسافة بينهما سوى خطوات، لكنها كانت في قلبه مسافة من وجع لا يُقاس، وجدار من قلق لا يُرى.

أمّا أنا فقلتُ لها وأنا أحبس شهقاتي: «استودعتكِ الرحمن الذي لا تضيع ودائعه»

حين خرجتِ يا أمّي من الباب.

لم تكن رحلتكِ مجرّد سفرٍ للعلاج، كانت رحلةَ صبرٍ للقلب، وامتحانًا للروح.

رأيتُ حقيبتك الصغيرة تُرافقكِ بخطواتٍ متثاقلة، كأنّها تشعر أنّها تحمل قلبي أنا، لا أغراضك.

كنتُ أبتسم لكِ لأخفي ارتجاف ملامحي، وأنتِ تبتسمين لي لتُخفي قلقكِ عليّ.

لكنّنا كنّا نعرف أن بيننا شيئًا لا يحتاج إلى كلام؛ شيئًا يُشبه الوداع لكنه مملوء بالأمل،

ويُشبه الحزن لكنه مشبع بالرضا بقضاء الله.

وفي المطار، مشينا خلفها بخطواتٍ ثقيلة، كل خطوةٍ فيها وداعٌ لا يُقال.

حين اقتربت أمي من بوابة السفر، رأيت صورة برّ إخواني في أصدق معانيها.

لم يكن البرّ في الدموع التي ذرفناها؛ بل في قلوبٍ امتلأت بالدعاء وهي تودّعها لله.

تذكّرت قول النبي ﷺ حين سأله رجل: «**يا رسول الله، من أحق الناس بحسن صحابتي؟ قال: أمك، قال: ثم من؟ قال: أمك، قال: ثم من؟ قال: أمك، قال: ثم من؟ قال: أبوك**»[(١)].

أمي هي أحقّ الناس بصحبتي، هي السبب بعد الله في وجودي، كم سهرت وتعبت، وكم قدّمت راحتي على راحتها، وفرحي على فرحها، وآثرتني بنفسها في كل موقفٍ من حياتها.

كانت إذا رأت ألمي تألمت، وإذا مرِضت مرِضت معي، وإذا حزنت شاركتني الحزن قبل أن أنطق به، وقلت في قلبي:

يا رب، لا تحرمني برّها، ولا تحرمني لذة الدعاء لها، فالدعاء برٌّ بعد البرّ، وهو من أصدق العبادات.

---

(١) أخرجه البخاري (٥٩٧١)، ومسلم (٢٥٤٨)

وعند بوابة الجوازات، حدث المشهد الذي لم يفارقني إلى اليوم.

أصغر إخواني - الذي ظلّ صامتًا طوال الطريق، يحبس دمعه كي لا يُضعفها -

ما إن اقتربت من البوابة حتى ركض نحوها، ضمّها بكلّ قوته، وبكى كطفلٍ فقد أمانه الأول.

كانت تحاول أن تُخفي دمعها، لكنّ عينيها خانتاها.

بكت وأبكتنا جميعاً

حتى رجال الأمن وقفوا صامتين، كأن المشهد آيةٌ من الرحمة.

رفعتُ يدي أستودعها الرحمن، وقلت:

«اللهم إنك تعلم أن قلبي معها، فاحفظها بعينك التي لا تنام»

تذكرت قول الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ﴾ [1]،

فتمسكت بهذه الآية كما يتمسك الغريق بخشبة نجاةٍ في بحر الخوف.

---

(١) سورة الشورى: ١٩

❑ عندما أغلق الباب!

عندما أغلق الباب خلفك يا أمي، أحسستُ أن البيت كلّه تغيّر لونه.

الهواء صار أثقل، والسكينة التي كانت تملأ المكان غابت معكِ.

لم يكن غيابكِ غياب جسدٍ فقط، بل غياب دفءٍ وحنانٍ وصوتٍ كان يُنير أيامي.

في اليوم الأول بعد سفرك، استيقظتُ على صمتٍ لم أعرفه من قبل.

لم أسمع تسبيحكِ المعتاد مع فجر كل يوم،

ولا خطواتكِ الخفيفة في المطبخ، ولا صوتكِ وأنتِ تدعين لي: «اللهم بارك لابنتي في يومها»

تذكّرتُ كم كنتُ أظنّ تلك اللحظات عادية،

حتى اكتشفتُ أن العادي هو أعظم النِّعم حين يُسلب.

كل زاويةٍ في البيت تناديني باسمك،

الكرسي الذي كنتِ تجلسين عليه بات خاليًا كقلبٍ فقد دفأه،

حتى وسادتك التي كنتِ تسندين رأسكِ عليها،

تحتفظ بملامحكِ ورائحة عطرك، كأنّها تسألني كل مساء: متى تعود؟!

❐ ناقصة وإن اكتملت أجزاؤها

يا أمّي أقسمُ لكِ أن الدعاء لا يغيب عن لساني،

في غيابكِ يا أمّي، تعلّمتُ معنى أن تكون الحياة ناقصةً وإن اكتملت أجزاؤها.

تعلّمتُ أن البيت لا يُضيئه المصباح، بل يُضيئه وجهكِ.

أنّ الرضا لا يأتي من إنجازٍ أو راحة، بل من نظرةِ أمٍّ راضية.

شعرت حينها أنّ نعمة الأمّ لا تُقدَّر حتى تُمسّ أطرافها بالخوف من الفقد.

كم خسر من جهل قيمة الأمّ في حياتها، وظنّ أن البرّ مؤجّل إلى ما بعد الرحيل!

وكم من ابنٍ غفل عن قوله تعالى: ﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ﴾ (١).

فاستبدل الذلّ أمام الأمّ بالكِبر، واستبدل اللطف بالجفاء، ثم ندم حين لا ينفع الندم.

البرّ ليس كلماتٍ نُردّدها، ولا مشاعر تُقال في المناسبات،

---

(١) سورة الإسراء: ٢٤

إنّه أدبُ النية، وصفاءُ القلب، وصدقُ الفعل.

هو أن تُسارع إلى خدمتها قبل أن تطلب، أن ترفعها بالدعاء قبل أن ترفع صوتك بها،

أن ترى رضاها جنتك، ودمعتها نذير خسارتك.

البرّ عبادةٌ لا تنتهي بانتهاء الطفولة، بل تزداد وجوبًا كلّما كبُر الابن وضعفت الأمّ.

فكلّما انحنى ظهرها، وجب أن ينحني قلبك أمامها أكثر.

وكلّما خفت صوتها، وجب أن يعلو صوت دعائك لها.

البرّ ليس مرحلةً من مراحل العمر، بل هو عمرٌ كاملٌ يُكتب في ميزانك مع كلّ لحظةِ إحسانٍ إليها

حين أتأمل معنى الأمّ، أراها ليست فصلًا من فصول الحياة، بل هي الكتاب كلّه.

هي الطفولة حين تضحك، والشباب حين تدعو، والشيخوخة حين تصبر.

هي نبع الحنان الذي لا يجفّ، والأمان الذي لا يُشترى، والظلّ الذي لا يزول مهما طال الزمن.

فوجود الأمّ لا يُقاس بالسنوات، بل بالأمان الذي تبثّه في النفس.

وحين يغيب الأمان، تصبح الدنيا واسعةً ولكنها خاوية.

لمّاً غابت عن ناظري الطائرة، أحسست أن الدنيا أُغلقت عليّ.

كنت أبحث عن أي وسيلةٍ لأسمع صوتها، كل دقيقة تمرّ كانت أثقل من الجبال.

تذكّرت قول النبي ﷺ حين سُئل: «**أيُّ العمل أفضل؟ قال: الصلاة على وقتها. قيل: ثم أي؟ قال: برّ الوالدين. قيل: ثم أي؟ قال: الجهاد في سبيل الله**»[١].

فاندهشت كيف قدّم النبي ﷺ برّ الوالدين على الجهاد، لأن الجهاد يُراد به نصرة الدين،

وبرّ الوالدين من أعظم أبواب الرحمة التي يرضى بها ربّ العالمين.

في تلك الفترة، أصبحت كل مكالمةٍ من هناك امتحانًا للصبر.

أحيانًا يردّ أخي بصوتٍ مطمئن، وأحيانًا أخرى بنبرةٍ توحي أن شيئًا ما ليس بخير.

مرّت أيام السفر طويلةً كالأعوام، ثم جاءت اللحظة التي لن أنساها ما حييت.

---

(١) أخرجه مسلم (٨٥).

❑ حين عاد الصوت

وفي مساءٍ هادئ، وبينما كنتُ أستعد للنوم، رنّ الهاتف، كان رقم أخي.

فتحت الخطّ بسرعة، وإذا بصوتٍ أعرفه رغم ضعفه، صوتٌ ينتشلني من كل الحزن دفعةً واحدة.

كانت أمي!

لم أتمالك نفسي.

بكيتُ من الفرح كما بكيتُ من الخوف! كأنّ الله أعاد إليّ الحياة في لحظة.

مرّ في خاطري قوله تعالى: ﴿ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ﴾[1].

ولعل صوتها العائد كان استجابةً لدمع خفيٍّ لم يسمعه غير الله.

قلتُ وأنا أختنق بالبكاء:

«الحمد لله يا أمي، الحمد لله على سماع صوتك!»

ضحكت بخفوتٍ وقالت: «ليش تبكين؟ أنا بخير، بس اشتقت لكم الله كريم»

---

(١) سورة غافر: ٦٠

وقتها كدت أن أطير من الفرح، تذكّرت قول الله تعالى:

﴿وَهُوَ يُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝٩﴾[1].

ضممت الهاتف إلى قلبي، وبكيتُ طويلاً، بكاءً ممزوجًا بالامتنان، كنت أحمد الله الذي أعاد إليّ الحياة بصوت أمي.

وبعد أن انتهت المكالمة، جلستُ طويلاً أحدّث نفسي:

كم من النعم نعيشها ولا ننتبه إليها؟

كم من القلوب نؤجّل برّها حتى يفوت الأوان؟

كنتُ أسترجع كل تفاصيلها في ذهني،

حينها عدت إلى نفسي وتأملت نعمة وجودها، شعرت أني ما زلت صغيرةً مهما كبُرت،

وكأنّ الله أراد أن يعلّمني درسًا لم أتعلمه إلا بالابتلاء:

وكأني أحتاج أن أعيد تعريف البرّ، ومن كانت له أمّ، فقد نال من رحمة الله نصيبًا عظيمًا.

قال تعالى: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا﴾[2].

أدركت حينها أن البرّ ليس هديةً تُقدَّم، ولا زيارةً عابرة، بل حياةٌ تُعاش، ودعاءٌ لا ينقطع.

---

(١) سورة الشورى: ٩

(٢) سورة النساء: ٣٦

تذكّرت قول النبي ﷺ لما استأذنه رجل في الجهاد، فقال «**أحيٌّ والداك؟**»، قال: نعم، قال: «**ففيهما فجاهِدْ**»[(١)]؛ وعن ابن عباس، قال: لا أعلم عملًا أقربَ إلى الله ﷻ من برِّ الوالدة.[(٢)]

بعد المكالمة، جلست طويلًا أتأمل الهاتف بين يدي، كأن صوتها ما زال يسكنه.

شعرت أن الله منحني عمراً جديداً في تلك اللحظة،

عمراً اسمه «دعاؤها».

تذكرت قول النبي ﷺ: «**الوالد أوسط أبواب الجنة، فإن شئت فأضع ذلك الباب أو احفظه**»[(٣)].

فقلت في نفسي: يا رب، ما زال بابي مفتوحًا، فلا تغلقه قبل أن أملأه برًّا ودعاءً واعتذارًا لكل غفلةٍ مضت، وغفوت على طمأنينةٍ لم أذقها منذ زمن!

❒ آخر السطر!

لقد أخّرتُ كتابة هذه القصة لتكون آخرَ الكتاب لأن دموعي لم تكن تسعفني، كلما بدأتُ، خذلني الصوت وغلبني

---

(١) أخرجه البخاري (٣٠٠٤)، ومسلم (٢٥٤٩).

(٢) أخرجه البخاري في الأدب المفرد، ص ١٥

(٣) أخرجه الترمذي (١٩٠٠) واللفظ له، وابن ماجه (٣٦٦٣)، وأحمد (٢٧٥٥١).

الحنين، فأؤجل.

أردتُ أن أكتب هذا الفصل وأنا ممتلئةٌ بالشكر لا بالانكسار، وأن أترك لكم خيطًا من الدعاء لا من الألم.

واليوم لا أُهديكم قصةً، بل طريقًا: طريقُ البرّ الذي لا يُؤخَّر،

أخّرت هذا الفصل لأنه ليس كغيره، فهو فصل القلب لا القلم، فصل الدمع لا البيان.

كنتُ أقول لنفسي: «حين يهدأ وجعي سأكتبه»، لكنّي علمتُ أن الوجع لا يهدأ،

وأن الكتابة ليست نسيانًا، بل نجاة.

نجاة... اسم أمي الذي كان كل من حولنا يردده بطمأنينةٍ غريبة: «ستنجو نجاة بإذن الله»، كأنّ اسمها وحده وعدٌ من الله بالسلامة،

حين أكتب اليوم عنها، لا أكتب قصة مرضٍ فقط، بل أكتب عن مدرسةٍ من الصبر والإيمان والرضا.

عن امرأةٍ علّمتني أن الإيمان لا يُلقّن، بل يُرى في المواقف، وأن البرّ لا يُختبر بالكلام، بل بالصبر عند الشدّة.

كتبتها متأخرة لأن قلبي لم يسعفني إلّا الآن، ولأنّي أردت أن تبقى ختام كتابي، كما كانت أمي ختام أيامي الجميلة، وأول دعائي كلّ صباحٍ ومساء.

اللهم اشف أمي «نجاة»، كما نجّتني من الانكسار، وربّتني بالإيمان والسكينة، واجعل اسمها شاهدًا على برٍّ لم ينقطع، وعملٍ صالحٍ لا يزول، واجعلني لها صدقة جارية ما دمتُ أتنفّس.

• ومضة:

وهكذا أتعلم في كل يوم أن الأم ليست مرحلةً من الماضي؛ بل حضورٌ متجدّدٌ في الدعاء، في الكلمة، في الصبر، وفي الدعاء الذي لا ينقطع.

هي تلك الرحمة التي أودعها الله في حياتنا، وما دمتُ أسمع صوتها، فالحياة لا تزال تزهر.

اللهم أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والديّ وأن أعمل صالحاً ترضاه،

والحمد لله على التمام في البدأ والختام والدوام ثم الصلاة مع سلام شائع على النبي وصحبه والتابع[١].

د. آلاء عادل العبيد



---

(١) منظومة القواعد الفقهية للسعدي.

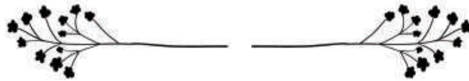


المحتويات





تم الإخراج بشركة دار لطائف للنشر والتوزيع
- تلفاكس: ٢٢٤٥٦٢٥٨ ، ٢٤٥٧٠٠٥٠



د. آلاء عادل العبيد

- المشرف العام على نادي الاقتصاد الإسلامي الدولي. @iec_shariaa
- عضو عدد من اللجان والهيئات الشرعية والبحثية.
- الاستاذ المشارك بقسم الفقه المقارن في كلية الشريعة بجامعة الكويت.
- محاضرة ومدربة معتمدة في فقه المعاملات المالية والمصرفية الإسلامية،
- نشرت اكثر من 30 بحث علمي محكم ، وتحكيم وفحص ومناقشة أكثر من 167 بحث ورسالة ماجستير ودكتوراه، ولها عدد من الأنشطة البحثية.
- تحمل شهادة دكتوراه (1): في المالية والمصرفية الإسلامية من الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا بتقدير ممتاز مع مرتبة الشرف الأولى.
- تحمل شهادة دكتوراه ثانية في الفقه المقارن وأصول الفقه جامعة الكويت بتقدير ممتاز مع مرتبة الشرف الأولى.
- حاصلة على جائزة الكويت للتميز والإبداع الشبابي
- جائزة الملصق العلمي
- جائزة التميز البحثي
- جائزة الأداء التدريسي المتميز





آلاء العبيد

 dr_alobaid

شركة دار لطائف للنشر والتوزيع